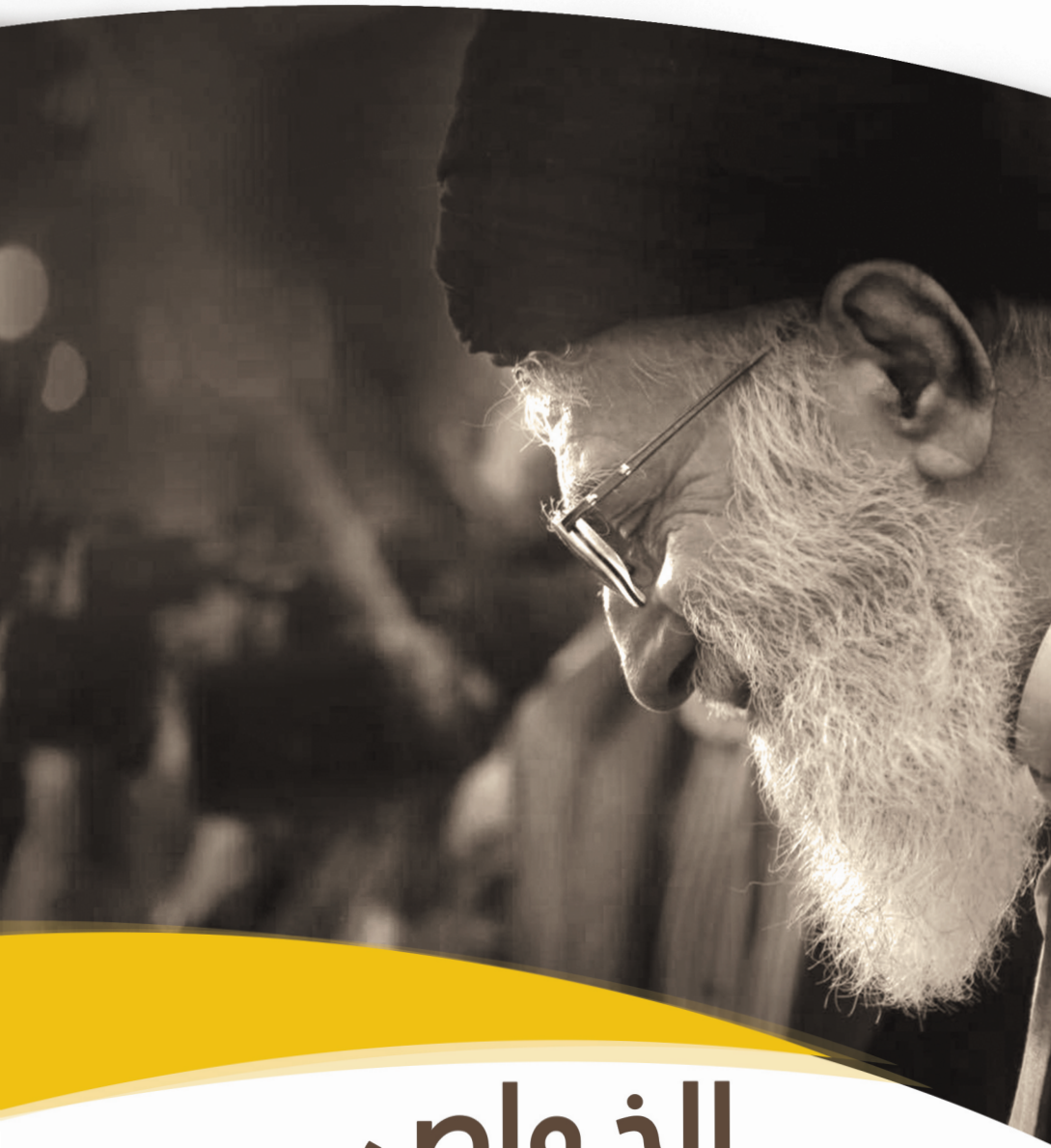

الخواص
واللحظات المصيرية

٣٨ عام على انتصار الثورة الإسلامية المباركة في إيران
٢٠١٧/٢/١١

الخـــواص
واللحظات المصيرية

الإمام الخامنئي دام ظله

دار المودة
للترجمة والتحقيق والنشر

إسـم الكتاب: الخـواص واللحظات المصيرية
اسـم المؤلف: الإمام الخامنئي دام ظله
تاريخ الطبعة: ٢٠١٥ م - ١٤٣٦ هـ

Lebanon , Beirut , sfeir , Moukarzel street
Mob : 00961 70 724 300 | Telefax : 00961 1 270 664
info@diwan-kitab.com | Diwan.kitab.dm@gmail.com

الخـــواص
واللحظات المصيرية

الإمام الخامنئي دام ظله

الفهرس

المقدمة..... ٩

الفصل الأول
خطاب الإمام الخامنئي دام ظله
بجمع من قادة فرقة محمد رسول الله

الجهاد في الثقافة الإسلامية ١٧
الجهاد الفكري..... ١٩
عبر يوم عاشوراء ٢٠
لماذا أصيبت الأمة الإسلامية بالتهاون والغفلة؟ فلنتعلم من التاريخ.... ٢١
الخواص والعوام في المجتمع ٢٢
الخواص فريقان خواص الحق وخواص الباطل ٢٥
الخواص من أنصار الحق ٢٦
احذروا أن تكونوا من العوام..... ٢٧
الخواص من أنصار الحق فريقان ٢٨
الزمن الذي انزلق فيه الخواص من أنصار الحق..... ٣٠
الخواص في زمن أمير المؤمنين عليه السلام ٣٢
الشهادة أم البقاء على قيد الحياة ٣٣
دور الخواص في تحديد مسار الأحداث..... ٣٤
حركة العوام تأتي على أعقاب حركة الخواص ٣٥
العوام لا يتحركون على أساس التفكير والتحليل ٣٧

نتائج تقصير خواص الحق ٣٨
وضوح الموقف وأثره في حركة التاريخ ٣٩
الأثر الذي تركه شهداء كربلاء ٤٠
الإمام الخميني اتخذ القرار المناسب في اللحظة الحاسمة ٤١
تطبيق الوقائع والحوادث التاريخية على كل زمان ٤٣
الانتخابات وتدخل قوات التعبئة ٤٤
بلدنا بلد الجهاد في سبيل الله ٤٥

الفصل الثاني
الخواص ومسار الأمّة

الغدير ومنزلة علي عليه السلام ٤٩
لو تركوا الرسول صلى الله عليه وآله وسلم يكتب وصيته ٥١
بدعة: لأجل الإسلام منعت ذلك ٥٢
فتنة الخواص عندما كان الرسول ملقيًا على الأرض ٥٤
لو كان عندي أربعون رجلًا لنهضت بهم ٥٩
الشورى التي منحت الحق إلى غير أهله ٦٠
بمن أقاتلهم؟ ٦١
عائشة وماء الحوأب ٦٥
الخواص الواعون الصامتون ٦٦
عودة متأخرة وعقيمة (طلحة والزبير نموذجاً) ٦٩
إصلاح شيء من الدنيا بفساد كبير في الدين ٧٣
عمرو بن العاص باع دينه بدنياه ٧٥
الأشعث بن قيس في بوتقة الاختبار ٧٩
المصاحف المرفوعة من مكائد الخواص ٨١
مخالفة الخواص للحَكَم الذي اختاره الإمام عليه السلام ٨٤

بعنا ديننا بدنياكم ٨٦
أعطنا الفرصة كي نعد العدة ٨٨
شهادة حرّفت التاريخ ٨٩
غربة مسلم درس آخر للخواص ٩٣
ديناميات الخواص ٩٧

الفصل الثالث
خطاب الإمام الخامنئي دام ظله
في صلاة الجمعة التي أُقيمت في طهران
بتاريخ ١٩٩٨/٠٥/٠٨م

محاور البحث في واقعة عاشوراء ١٠٢
ثلاث مراحل من حياة الحسين عليه السلام ١٠٥
ركائز بنية النظام النبوي ١٠٩
المجتمع الإسلامي بعد وفاة الرسول صلى الله عليه وآله وسلم ١١٢
بعض النماذج من الخواص ١١٤
مزرعة النشاستج الكبيرة ١١٥
أخرج ثقله عن قصره على أربعين بغلا ١١٦
امتنع عن إعادة الاموال التي اقترضها من بيت المال ١١٧
اشتري جميع هذا الخمس بخمسمائة درهم ١١٨
انظروا إلى تغيّر المعايير والموازين وتبدل أحوال الناس ١١٩
عندما تضيع المعايير ١٢٠
إنحراف الخواص في المجتمع يؤدي الى إنحراف العوام ١٢١
خلو المجتمع من القيم مسؤولية في أعناق الجميع ١٢٢
الحسين أبقى الإسلام حيًا في النفوس ١٢٤
صورة من واقعة الطف ١٢٤

الفصل الرابع
أمثلة من خواص الحق

قيس بن سعيد الأنصاري ١٣١
مالك الأشتر النخعي ١٣٧
محمد ابن أبي بكر ١٤٥
الحر ابن يزيد الرياحي ١٥٢
حكيم بن جبلة ١٦٠

الفصل الخامس
نماذج من خواص الباطل

عبيد الله ابن عباس ١٧١
المغيرة بن شعبة ١٧٩
عمر ابن سعد بن أبي وقاص ١٨٧
زياد بن أبيه ١٩٦
عبد الله ابن عباس ٢٠٧
مصقلة بن هبيرة ٢١٥

المقدمة

لكل مرحلة وعصر من حياة البشر خصوصيات ثقافية وسياسية واقتصادية واجتماعية، ولكن هذه المراحل على اختلافهما تتشابه من حيث سنن التاريخ التي تحكم سلوك الناس الإجتماعي فيها، وفي هذا الصدد، يقول أمير المؤمنين عليّ عليه السلام: «فاعتبروا بحال ولد إسماعيل وبني إسحاق وبني إسرائيل عليهم السلام فما أشد اعتدال الأحوال وأقرب اشتباه الأمثال»[1].

ولهذا فالتشابه في الصفات والسلوك يبلغ أحيانًا درجًة تجعله درسًا وعبرًة للأجيال القادمة. إن التاريخ هو تفصيل لحياة المجتمعات الإنسانيّة، والمجتمع الإنساني في كل مراحله له قواعد يمكن أن تتكرر إذا وفرت الشروط اللازمة، وعلى هذا الأساس فإنّ مطالعة التاريخ بصورة عامة ومتابعة تاريخ المجتمعات الإسلامية

(١) نهج البلاغة، الخطبة ١٩٢

التي كانت تسودها حكومات دينيّة بصورة خاصة، ستكون لمجتمعنا الإسلامي خير معلم وموجه، ويمكن دراسة التاريخ عن طريق بحث ومتابعة جوانبه المختلفة ومن هذه الجوانب مطالعة حياة وأسلوب الذين قاموا بتسجيل مواقف مصيرية في التاريخ البشري في مختلف المراحل. وقد قام البعض بتصنيف المجتمع الإنساني بصورة عامة إلى مجموعتين، الخواص والعوام، التابع والمتبوع، ولكل مجموعة من هاتين المجموعتين تعريفها الخاص بها الذي يميزها عن المجموعة الأخرى، ويمكن أن نصنّف المجموعة الثانية بأنها تابعة وليس لها القدرة على التحليل وإدراك الأمور في ميادين الحوادث الإجتماعية، وعلى الدوام تميل مع كل ريح، وتتقبل النظام الحاكم بسرعة، وعندها قابلية التكيّف مع الأوضاع الجديدة، ويكون سلوكها وتفكيرها خالٍ من التحقيق والتحليل، وغالبًا ما تندفع إلى التقليد في السلوك والتصرف.

وفي الحقيقة، يمكن القول إنه ليس كل من لديه شهادة أو تحصيل دراسي يكون قادرًا على التحليل والتحقيق، بل أن هناك كثير من الناس لم يذهبوا إلى المدارس لكنهم في الوقت نفسه لهم القدرة الفائقة على التحقيق والتحليل. إن بحثنا في هذا الكتاب سيدور حول المجموعة الأولى التي أطلقنا عليها لفظ (الخواص) وكل من كان سلوكه وأعماله قائم على أساس التحقيق والاطلاع، وكل من يعرف طريقه ويعرف كذلك الأسباب التي من أجلها سلك هذا الطريق وصمّم على تحقيق أهدافه طبقًا للمعرفة، وكل من لا ينجرف مع الدعايات، هؤلاء هم الذين يقومون بصناعة الأحداث التاريخيّة، وفي هذه الدرجة الأولى يؤدون أعمالهم استنادًا إلى الرغبة والميل. وبكلمة موجزة يمكن القول بأن سمو المجتمع الإنساني وانحداره مرتبط بهذه الفئة.

وللسيد القائد الخامنئي دام ظله كلام حول هاتين الفئتين ننقل منه:

«لاحظوا يا أعزائي، إذا نظرتم إلى المجتمع البشري -أيّ مجتمع كان- وفي أيّة مدينة أو بلد، تجدون الناس فيه يقسمون من وجهة نظر معينة إلى فئتين:

فئة تسير عن فكر ووعي وإرادة، وهي تعرف طريقها وتسلكه، ولا يهمنا في المقام إن هذه الفئة على صواب في مسلكها أو أنه مسلك خاطئ، هذه الفئة يمكن تسميتها (بالخواص). وفئة أخرى لا تنظر لترى ما هو الطريق الصحيح وما الموقف الصائب، ولا يهمها أن تفهم وتحلل وتقيس وتدرك، بل تتبع الجو السائد والهوى العام، ولنسمّ هذه الفئة (بالعوام). إذن، فالمجتمع يمكن تصنيفه إلى خواص وعوام. دققوا النظر، أريد الإشارة إلى نقطة بشأن العوام والخواص ويجب ألا يقع فيها أي التباس، من هم الخواص؟ هل هم طبقة خاصة؟ الجواب كلا! لأن هذه الفئة التي نسميها بالخواص، تضم بين أفرادها أشخاصًا متعلمين، فقد يكون أحيانًا بين الخواص شخص غير متعلم لكنه يفهم ما ينبغي عليه فعله، وهو يعمل وفقًا لتخطيط وإرادة حتى وإن لم يكن قد دخل المدرسة، أو لديه شهادة، أو يرتدي زيّ العلماء، لكنه متفهم لحقيقة الأمور.

إذن، الخواص هم الذين عندما يؤدون عملًا أويتخذون موقفًا، والنهج الذي يختارونه، إنما يقومون بذلك عن فكر وتحليل، أي أنهم يفهمون ويقررون ويعملون، هؤلاء هم الخواص. والذين يقفون في الجانب المقابل هم العوام. اولئك الذين يسيرون مع مسير الماء، ليس لديهم تحليل للمواقف، حين يشاهدون الناس يهتفون (يعيش فلان) يهتفون معهم، وحينما يهتف الناس (الموت لفلان) يرددون

نفس الهتاف. عندما تكون الأجواء في وضع معين يأتون هنا، وحينما تكون على منوال آخر يذهبون هناك.

وإذا ما عدنا إلى صدر الإسلام ثانية، نجد أن هناك خواص من أصحاب أمير المؤمنين والإمام الحسين عليهما السلام وبنو هاشم، وفريق آخر هم أصحاب معاوية ابن أبي سفيان، كان فيهم من الخواص أيضًا من ذوي الرأي والتدبير يناصرونهم ويعينوهم. وعليه، إن خواص كل مجتمع على نمطين: الخواص من أنصار الحق، والخواص من أنصار الباطل. وماذا ترجون من الخواص المشايعين للباطل؟ لا تتوقعوا منهم سوى التآمر ضد الحق وضدكم. وهذا ما يفرض عليكم محاربتهم، حاربوا الخواص من أنصار الباطل هذا أمر لا نقاش فيه»[١].

إذن، يمكن تقسيم الخواص إلى قسمين مثلما أشار إليهم السيد الخامنئي دام ظله: خواص فريق الحق وخواص فريق الباطل، وعندما يعرف أهل الحق جبهتهم يكون من الواجب عليهم محاربة أهل الباطل، وللسيد القائد كلام في هذا الخصوص:

«اعلموا يا أعزائي أن خواص أنصار الحق يقسمون إلى فريقين:

الفريق الأول، هم الذين يتغلبون في الصراع مع مغريات الدنيا والحياة من الجاه والشهوة والمال واللذة والرفاه والسمعة، والفريق الآخر هم الذين يخفقون في هذا الصراع. هذه (أي اللذة والسمعة والجاه وما شابه) كلها أمور حسنة، وكلها مباهج الدنيا ﴿مَتَٰعُ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ﴾. والقرآن حينما يصفها بأنها متاع الحياة الدنيا، فلا يعني ذلك

(١) محاضرة ألقاها سماحة السيد علي الخامنئي دام ظله في حسينية الفرقة ٢٧ (محمد رسول الله صلى الله عليه وآله) بتاريخ ١٣٧٥/٣/٢٠ هـ.ش.

أنها قبيحة، فالمتاع جعله الله ليتمتع به الإنسان، ولكن، إذا انغمس فيها إلى الحد الذي يعجز معه عن اجتنابها إذا ما استدعت التكاليف الصعبة منه ذلك فهذا شيء، وإذا استمتع فيها إلى الحد الذي يستطيع معه الكف عنها بكل سهولة عند حصول أي امتحان عسير، فهذا شيء آخر»[١].

إذا كان خواص أهل الحق يشكلون الأكثرية في المجتمع الإسلامي، وكانوا ممن لا تغرهم المظاهر الدنيوية واللذائذ الزائلة، سيكون المستقبل حتمًا لهذا المجتمع، أما إذا حدث العكس، أي أن خواص أهل الحق هم القلة بين أفراد المجتمع، وكانوا ممن يفشلون في البلاء والاختبار في الجولة الأولى -وهذا ما حدث فعلا أيام خلافة يزيد بن معاوية- ستنقلب الموازين في هذه الحالة، ويقع اولئك فريسة للقهر والاضطهاد.

يقول السيد علي الخامنئي دام ظله في هذا المجال: «كل مجتمع يوجد فيه هذان النمطان من أنصار الحق، إذا كان الفريق الصالح منهما، أي الذين يستطيعون عند الحاجة الانتهاء من متاع الدنيا هم الأكثر، فلن يقع في المجتمع ما وقع فيه على عهد الإمام الحسين عليه السلام، وكونوا على ثقة أن المستقبل سيكون مضمونًا إلى الأبد. أما إذا كانوا قلة، وكان ذلك الفريق من الخواص أي المناصرين للحق، ولكن في الوقت نفسه تنهار معنوياتهم أمام المغريات الدنيوية، بما فيها من ثروة، ودار وشهرة ومنصب وجاه، والذين يعرضون عن سبيل الله لأجل أنفسهم، فيلتزمون الصمت حيثما يجب قول الحق، حفاظًا

(١) مصدر سابق.

على أرواحهم أو مناصبهم أو أعمالهم وثرواتهم أو لحب الأولاد والأسرة والأقارب والأصدقاء، هؤلاء إذا كانوا هم الكثرة فالويل الويل حينئذٍ، عندما ينزل السائرون على خطى الحسين إلى أرض الشهادة ويقادون إلى مسالخ الذبح، ويتسلط أتباع يزيد على مقاليد الأمور، ويحكم بنو أمية الدولة التي أسسها رسول الله ﷺ، سيطول حكمهم ألف شهر وتتحول الإمامة إلى ملك وسلطان»[١].

اتضح لنا مما سبق، أن موقع الخواص في المجتمع حساس وهام، لأنهم قدوة المجتمع وحركتهم نحو الأهداف تدفع الآخرين إلى السعي نحو تحقيقها وعلى العكس، فإن توقفهم وتخاذلهم يؤدي إلى سكوت الجماهير وتوقفها وتخاذلها، وسكوت الخواص عن نصرة الإمام الحسين عليه السلام خير شاهد على ما نقول.

تحدث السيد الخامنئي دام ظله حول هذا الموضوع وقال:

«وعندما ثار الإمام الحسين عليه السلام، لم يأت الكثير من هؤلاء الخواص لنصرته مع ما كانت له من منزلة عظمى في المجتمع الإسلامي. لاحظوا مدى الضرر الناجم عن وجود هؤلاء الخواص في المجتمع، الخواص الذين يرجحون دنياهم حتى على مصير العالم الإسلامي لقرون مقبلة، مع ما كان للإمام الحسين عليه السلام من مكانة وعظمة يخضع لها حتى عبد الله بن عباس، وعبد الله بن جعفر، بل حتى عبد الله بن الزبير مع أنه لم يكن ينظر للإمام عليه السلام بعين الارتياح، كان يبدي له غاية التبجيل والإكرام.

---

(١) المصدر نفسه.

جميع الأكابر والخواص من أنصار الحق، أي الذين لم يكونوا إلى جانب الحكومة الأموية ولم يدخلوا جبهة الباطل، وجدت من بينهم الكثير من الشيعة الذين يقرون بإمامة أمير المؤمنين عليه السلام ويعتبرونه الخليفة الأول شرعًا، هؤلاء بأجمعهم حينما أحسوا ببطش السلطة الحاكمة، تخاذلوا رغبة في الحفاظ على أنفسهم وأموالهم ومناصبهم. ونتيجة لتخاذل هؤلاء، مال عوام الناس إلى جانب الباطل»[١].

لذلك يمكن القول بأن انتصار الأمة وانكسارها مرهون بهذه المجموعة من الخواص ولهذا أصبح من اللازم علينا أن نعرف الدور الذي يلعبه هؤلاء في تقدم المجتمع الإسلامي وانحطاطه.

يقول السيد الخامنئي دام ظله في هذا المجال:

«كل شيء مرتبط بالخواص، قراراتهم في الوقت المناسب تضحياتهم في الوقت المناسب، إقدامهم، إحجامهم... هؤلاء هم الذين ينقذون التاريخ ويدافعون عن القيم الإنسانية، وتهاونهم في اتخاذ المواقف اللازمة يعني ذلك فوت الفرصة وفي ذلك خسارة لا تعوض»[٢].

من خلال دراسة التاريخ، يتبين لنا أمر مهم وهو معرفة مصداقية الخواص في اللحظة الحساسة التي تؤدي إلى انحراف مسيرة التاريخ أو استقامته، أن دراسة الحوادث التاريخية وأخذ العبرة والتجربة منها خير سبيل للناس الواعيين كي يتعرفوا على وظائفهم وواجباتهم في المستقبل، ويأخذوا عبرة من تلك التجارب ويمنعوا تكرارها. فعلى

(١) مصدر سابق.

(٢) المصدر نفسه.

الخواص أن لا ينشغلوا في اللحظات الحساسة والمصيرية بالمطامع الدنيوية.

يقول السيد الخامنئي دام ظله في هذا المجال:

«بحثنا في مسألة الخواص يجب أن يكون على جانبين، الأول الجانب التاريخي الذي يشمل: من هم هؤلاء الخواص؟ وما هي أسماؤهم؟ والثاني: ما يجب على الخواص القيام به في أي مرحلة من مراحل التاريخ. وخلاصة القول: الخواص هم الذين لا يخضعون في اللحظات المصيرية إلى قيود حب الدنيا»[١].

والكتاب الذي بين يديك يبحث في القسم الأول من كلام السيد الخامنئي دام ظله وهو معرفة الخواص الذين حددوا مسار التاريخ بمواقفهم السياسية.

في خضم أحداث صدر الإسلام برزت إلى الوجود نخبة من الرجال الأوفياء للرسول صلى الله عليه وآله، وأصبحوا مصباح هداية للبشرية جمعاء، ومن هذه النخبة كان الأئمة المعصومون عليهم السلام وأصحابهم النجباء من أمثال أبي ذر الغفاري، عمار بن ياسر، سلمان الفارسي ومالك الأشتر رضوان الله تعالى عليهم أجمعين، وفي مقابل هذه النخبة كانت هناك مجموعة من الخواص ممّن أعمى حب الدنيا قلوبهم، فتطاولوا على مقدسات الإسلام والمسلمين وكانوا من أسباب تخلف الأمة وانحطاطها.

---

(١) المصدر نفسه.

الفصل الأول

خطاب الإمام الخامنئي دام ظله بجمع من قادة فرقة محمد رسول الله

بتاريخ ٢٠-٣-١٣٧٥ هـ ش/ ٦٠-١١-١٩٩٦ م.

بسم الله الرحمن الرحيم

اللهم سدد ألسنتنا بالصواب والحكمة

الجهاد في الثقافة الإسلامية

إحدى الظواهر البارزة في الثقافة الإسلامية ولها مصاديق بارزة وكثيرة في تاريخ صدر الإسلام هي ثقافة القتال والجهاد. والجهاد طبعًا لا ينحصر في نطاق القتال في ميادين الحرب، فكل ما ينضوي على جد واجتهاد ومجابهة مع العدو يسمى جهادًا.

التفتوا جيدًا، فلعل البعض يؤدي عملًا ويتحمل فيه مشقة كبيرة، ويدَّعي الجهاد. كلا، فأحد شروط الجهاد أن يكون في مجابهة العدو. ولكن قد يكون تارةً في ميدان الحرب فيسمى بالجهاد الحربي، وقد يكون تارّة في ميدان السياسة فيكون جهادًا سياسيًا، وقد يكون في الميدان الثقافي فيسمى جهادًا ثقافيًا، وقد يكون في مجال البناء فيسمى بجهاد البناء، كما أن له ميادين ومجالات أخرى طبعًا. لذا فالشرط الأول هو أن يبذل فيه جهدًا ومثابرةً والثاني أن يكون في مواجهة العدو.

هذه ظاهرة بارزة في الثقافة الإسلامية، ولها أمثلة في شتى الميادين، واليوم أيضًا بدأ هذا الجهاد منذ أن انطلق نداء مجابهة النظام البهلوي المقيت، من حنجرة الإمام رضوان الله عليه وأنصاره آنذاك، أي في عام ١٣٤١ (هـ.ش). وكان حتى قبل هذا التاريخ ولكن بصورة متناثرة ونادرة وقليلة الأهمية.

منذ أن بدأت هذه المجابهة اتخذت طابعًا أكثر أهمية إلى أن تكللت بانتصار هذا الجهاد الذي تجسد بانتصار الثورة. ومنذ ذلك اليوم وحتى يومنا هذا كان في هذا البلد جهاد دائم.

وبما أنّ لنا أعداء، وأعداؤنا أقوياء في الجانب المادي، وبما أن الأعداء قد أحاطوا بنا من كل جانب، وهم بصدد العدوان علينا، وقضية عدوانهم على إيران لا مزاح فيها، لأنهم يستهدفون ضربها بأي شكل ممكن.

الجهاد الفكري

إذن، فكل من يقف في إيران الإسلامية بوجه هذا العدو الذي سدد من كل جانب سهامه السامة إلى جسد هذه الثورة وهذا البلد الإسلامي فهو مجاهد في سبيل الله، ونحمد الله على أن شعلة الجهاد كانت ولا زالت وستبقى مضيئة. وبطبيعة الحال إن أحد أنواع هذا الجهاد هو الجهاد الفكري، أي بما أن العدو قد يباغتنا ويوقعنا في الأخطاء والمنزلقات، فكل من يبذل جهده على طريق توعية الناس ويحول دون حصول أي انحراف أو سوء فهم، فعمله هذا جهاد، إذًا فهو في سبيل مجابهة العدو ولعله من الجهاد المهم.

إذن يا أعزائي، بلدنا اليوم مركز الجهاد، وليس لدينا ما يستوجب القلق في هذا المجال. الحمد لله أن الشخصيات المسؤولة في البلد كلها شخصيات صالحة ومؤمنة ومجاهدة وواعية ومخلصة، عليكم أن تلتفتوا لهذه الجوانب، فرئيس الجمهورية سماحة الشيخ هاشمي رفسنجاني، رجل قضى عمره في الجهاد ولا زال حتى الآن يجاهد ليلًا ونهارًا، وكذلك الحال بالنسبة لمسؤولي المحافل الأخرى كمجلس الشورى الإسلامي، والسلطة القضائية، والقوات المسلحة، وكذا سائر أبناء الشعب، كلهم في حالة جهاد دائم. هذه الدولة هي دولة الجهاد في سبيل الله، ومن هنا فإن ثقل جهدي في المراقبة لأرى المواضع التي تخبو فيها شعلة الجهاد فأسارع بعون الله ولا أدعها تنطفئ، وأرى مواضع الخطأ والزلل فأتصدى لها، وهذه هي مسؤوليتي الأساسية.

إني لا يساورني أي قلق حول حالة الجهاد الحالية في البلد، وهذا ما يجب أن تعلموه، إلا أن في القرآن شيئًا يرغمنا على التفكير فيه.

أمرنا في القرآن الكريم أن ننظر إلى الماضي ونأخذ العبر من

التاريخ، ولكن قد يأتي البعض ويتفلسف بأن الماضي لا يمكن أن يكون مثالًا للحاضر، هذه الآراء يثيرها البعض ويتصور أنه قادر على صياغتها كأطروحة فلسفية، لكنه لا يستطيع ذلك! ولا شأن لنا بأمثال هؤلاء.

القرآن صادق مصدّق، وهو يدعونا إلى استقاء العبرة من التاريخ والاعتبار بالتاريخ، يعني حالة القلق التي عرضت آنفًا، لأن التاريخ تكتنفه أمور لو أردنا الاعتبار بها لساورتنا بعض الهواجس، وهذه الهواجس ذات صلة بالمستقبل، ولكن لماذا؟ وما سبب هذه الهواجس؟ وما الذي جرى عبر التاريخ؟

عبر يوم عاشوراء

الواقعة التي حدثت كانت في صدر الإسلام، وقد ذكرت في وقت ما أن الأمّة الإسلامية حري بها أن تفكر في السبب الذي وصل بالبلاد الإسلامية بعد وفاة الرسول بخمسين سنة فقط إلى أن يجتمع أبناؤها من وزير وأمير، وقائد وعالم، وقاضٍ وقارئ للقرآن في الكوفة وكربلاء، ويمزقوا كبد رسول الله ﷺ بتلك الطريقة الفجيعة.

على الإنسان أن يطيل النظر في الأسباب التي انتهت إلى تلك الحالة، وقد سبق لي وأن تحدثت فيما سبق في هذا الموضوع قبل سنتين أو ثلاث تحت عنوان (عبر من عاشوراء). طبعًا هذا شيء آخر يختلف عن موضوع (دروس من عاشوراء) كدرس الشجاعة، ودرس الإيثار وما إلى ذلك. الشيء الأهم من دروس عاشوراء هي العبر المستقاة من عاشوراء.

سبق لي وأن ذكرت، أن الأمور وصلت إلى الحد الذي جعلهم يأتون بحرم الرسول إلى الشوارع والأسواق أمام ناظر الناس ويصمونهم

بصمة الخوارج. والخوارج في الإسلام مصطلح يطلق على من يخرج على الإمام العادل ويشق عليه عصا الطاعة، ويستحق لعنة الله ورسوله والمؤمنين، هذا هو معنى الخوارج ولهذا السبب كان المسلمون آنذاك ينفرون من الخوارج (من خرج على إمام عادل فدمه هدر)، هذا مع أن الإسلام يولي أهمية فائقة لدماء الناس، لقد أشاعوا أن الإمام العادل هو يزيد بن معاوية، وصدقهم الناس، إن أفراد السلطة الحاكمة أناس ظلمة يقولون ما يحلو لهم، ولكن لماذا يصدقهم الناس؟ ولماذا يلتزمون الصمت إزاءهم؟

لماذا أصيبت الأمة الإسلامية بالتهاون والغفلة؟ فلنتعلم من التاريخ

إن ما يثير هواجسي هو هذا الجانب من القضية، لماذا وصلت الأمور إلى هذا الحد؟ ولماذا أصيبت الأمة الإسلامية وهي على تلك الدرجة من التدقيق في تفاصيل الأحكام الإسلامية والآيات القرآنية، لماذا أصيبت بهذه الحالة من الغفلة والتهاون والتراخي، الذي انتهى إلى بروز فاجعة كهذه؟ هذه المسألة تشغل فكر الإنسان. وهل نحن أقوى عزمًا وأشد شكيمة من مجتمع عهد الرسول وعهد أمير المؤمنين؟ وماذا نفعل حتى لا يجري مثلما جرى؟

طبعًا السؤال الذي أثرته حول تلك الأسباب لم يجب عليه أحد، ولكن جوابه عندي. وأشير أن أحدًا لم يتحدث في هذا الموضوع، أو إنهم قد تحدثوا حوله ولكن ليس بالشكل الوافي والكافي. أود اليوم التحدث بإيجاز في هذا المجال، وحديثي سيكون مقتضبًا بالنسبة لأصل القضية، سأثير رؤوس المواضيع أمام أفكاركم لتخوضوا فيها

بأنفسكم، وليتقصى جذورها المفكرون والباحثون، وليفكروا في السبل الكفيلة بالحيلولة دون تكرارها.

إذا لم نقف أنا وأنتم في وجهها اليوم، فلا تعجبوا إذا رأيتم مجتمعنا الإسلامي وصل إلى تلك الحالة، ربما بعد خمسين سنة أو بعد خمس سنوات أو بعد عشر سنوات، إلا إذا كانت هناك أبصار حادة تسبر أغوار الأمور، وعين أمينة تدل على الطريق، وأصحاب فكر يوجهون الأمور، وإرادة صلبة تساند هذا المسار، ليتكون عند ذاك ساتر متين وقلعة حصينة لا يستطيع أحد اختراقها، وإلا فستتكرر الحالة ذاتها فيما إذا أهملنا، وعندها ستذهب كل هذه الدماء هدرًا.

بلغت الأمور في ذلك العهد حدًّا، تربع فيه أبناء وأحفاد من قُتلوا يوم بدر على يد أمير المؤمنين والحمزة وبقية قادة الإسلام، في مكان الرسول، ووضع أمامه رأس مهجة رسول الله، وصار يضرب على ثناياه بعود الخيزران وينشد:

ليت أشياخي ببدر شهدوا

جزع الخزرج من وقع الأسل

هنا يأمر القرآن بالاعتبار ويقول: ﴿قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ انظروا ما الذي وقع، التزموا جانب الحذر. ولأجل أن يسري هذا المعنى إن شاء الله في الثقافة الحالية لبلدنا على يد المفكرين والباحثين وأصحاب الرأي، أتحدث إليكم اليوم باقتضاب عن هذا الموضوع.

الخواص والعوام في المجتمع

لاحظوا يا أعزائي، إذا نظرتم إلى المجتمع البشري، أي مجتمع كان،

وفي أية مدينة أو بلد، تجدون الناس فيه يقسمون من وجهة نظر معينة إلى فئتين، فئة تسير عن فكر وفهم ووعي وإرادة، وهي تعرف طريقها وتسلكه ولا يهمنا في هذا المقام إذا ما كانت هذه الفئة على صواب في مسلكها أو أنه مسلك خاطئ، هذه الفئة يمكن تسميتها بالخواص. وهناك فئة أخرى لا تنظر لترى ما هو الطريق الصحيح وما هو الموقف الصائب، ولا يهمها أن تفهم وتحلل وتقيس وتدرك، بل تتبع الجو السائد والهوى العام، فهذه فئة العوام.

إذن، فالمجتمع يمكن تصنيفه إلى خواص وعوام. دققوا النظر، أريد الإشارة إلى نقطة بشأن العوام والخواص ويجب ألا يقع فيها أي التباس.

من هم الخواص وهل هم طبقة خاصة؟ الجواب كلا! لأن هذه الفئة التي نسميها بالخواص تضم بين أفرادها أشخاصًا متعلمين وآخرين غير متعلمين، فقد يكون أحيانًا بين الخواص شخص غير متعلم لكنه يفهم ما ينبغي عليه فعله، وهو يعمل وفقًا لتخطيط وإرادة، حتى وإن لم يكن قد دخل المدرسة أو لديه شهادة أو يرتدي زي العلماء، لكنه متفهم لحقيقة الأمور. في أيام اندلاع الثورة وقبل انتصارها كنت في المنفى في مدينة إيرانشهر، وكان في إحدى المدن القريبة منها عدة أشخاص من بينهم سائق، كان هؤلاء الأشخاص من ذوي الثقافة والمعرفة، رغم أنهم يصنفون ظاهريًا في عداد العوام، إلا أنهم في الحقيقة كانوا من الخواص، كانوا يأتون للقائنا في إيرانشهر بشكل منتظم وينقلون لي حوارهم مع عالم الدين في مدينتهم، وقد كان الآخر رجلًا طيبًا إلا أنه كان من العوام! لاحظوا، سائق الشاحنة من الخواص بينما ذلك العالم المبجل إمام الجماعة كان من العوام!

كان العالم يقول: «لماذا حينما يذكر اسم النبي تصلَون على النبي ثلاث مرات؟ ألا تفهمون؟» فكان السائق يرد عليه بالقول: «يوم نفرغ من المجابهة ويوم يكون الإسلام قد ساد كل الأرجاء، وانتصرت الثورة، فإنا سنترك الصلاة عند ذكر اسم الخميني ثلاث مرات، بل لا نصلي ولا مرة واحدة، هذه الصلوات الثلاثة أسلوب من أساليب المجابهة». لاحظوا أن هذا الرجل يفهم مع أنه سائق لكن ذلك العالم لا يفهم.

ذكرت هذا المثال لتعلموا أننا حينما نقول الخواص، فلا يعني ذلك أنهم فئة ترتدي زيًّا بعينه، فقد يكون رجلًا وقد يكون امرأةً، وقد يكون ثريًا وقد يكون فقيرًا، وقد يكون من العاملين في الأجهزة الحكومية وقد يكون من المعارضين لها. فكلمة الخواص نقصد بها طبعًا الصالح والطالح منهم، ثم إننا سنصنف الخواص إلى أقسام أخرى أيضًا.

الخواص هم الذين عندما يؤدون عملًا يتخذون موقفًا، والنهج الذي يختارونه مبني على فكر وتحليل، أي أنهم يفهمون ويقررون ويعملون، هؤلاء هم الخواص. والذين يقفون في الجانب المقبل لهم هم العوام، الذين يسيرون مع مسير الماء، ليس لديهم تحليل للمواقف، حينما يشاهدون الناس يهتفون (يعيش فلان) يهتفون معهم، وحينما يهتف الناس (الموت لفلان) يرددون نفس الهتاف. عندما تكون الأجواء في وضع معين يأتون هنا، وحينما تكون على موال آخر يذهبون هناك.

لنفترض أن مسلم بن عقيل دخل الكوفة، تراهم يقولون: لقد وفد ابن عم الإمام الحسين، لقد جاء مبعوث بني هاشم وهو عازم على الثورة والنهوض، فيستثارون ويلتفون حوله ويبايعونه -بايعه ثمانية عشر ألفًا- وبعد خمس أو ست ساعات دخل رؤساء القبائل إلى الكوفة وقالوا للناس: لماذا اتخذتم هذا الموقف؟ عمن تريدون الدفاع؟ وضد

من؟ إنكم ستدفعون الثمن غاليًا؟ انسحب أولًا زعماء القبائل كل إلى داره. وبعدما حاصر جنود ابن زياد دار طوعة للقبض على مسلم، انبرى أولئك الناس أنفسهم لمحاربة مسلم، هؤلاء هم العوام. سلوكهم لا ينطلق عن تفكير ولا ينبثق عن تشخيص ولا هو قائم على تحليل صائب، بل يتحركون وفقًا لما يمليه الجو العام.

الخواص فريقان خواص الحق وخواص الباطل

لنترك قضية العوام جانبًا ونبحث في وضع الخواص، إذ يقسم الخواص طبعًا إلى فريقين: خواص فريق الحق، وخواص فريق الباطل، أهل الثقافة والفكر والمعرفة منهم يعملون لصالح جبهة الحق، عرفوا الحق وعلموا أن الحق مع هذا الجانب فهم يتحركون ويعملون لأجله، وقادرون على تشخيصه، هؤلاء يمثلون فريقًا. أمَا الفريق الآخر فهم الذين يقفون على الطرف الضد لطرف الحق، وإذا ما عدنا إلى صدر الإسلام ثانية، فهناك فريق أصحاب أمير المؤمنين والإمام الحسين وبنو هاشم، وفريق آخر هم أصحاب معاوية، كان فيهم الخواص كان فيهم أشخاص أذكياء من ذوي الرأي والتدبير يناصرون بني أمية وهؤلاء من الخواص أيضًا. إذن خواص كل مجتمع على نمطين: الخواص من أنصار الحق، والخواص من أنصار الباطل، وماذا ترجون من الخواص المشايعين للباطل؟ لا تتوقعوا منهم سوى التآمر ضد الحق وضدكم، وهذا ما يفرض عليكم محاربتهم، حاربوا الخواص من أنصار الباطل، هذا أمر لا نقاش فيه.

الخواص من أنصار الحق

نأتي الآن إلى الخواص من أنصار الحق، وأنا أتحدث إليكم الآن، انظروا إلى أنفسكم لتروا في أو موضع أنتم. وحينما نقول إن الأصل هو الفكر والإتباع عن رؤية، لا نخلط بين التاريخ والقصة، التاريخ وجه آخر لسيرتنا الذاتية، التاريخ معناه أنا وأنتم، معناه نحن الموجودون اليوم هنا، وإذا كنا نحن الذين نقوم ونشرح التاريخ فلا بدَّ أن ينظر كل منا محلّه من هذه القصة، وفي أي موضع منها. ثم لنرى ما الذي فعله من كان يوم ذاك في مثل موضعنا حتى كان نصيبه الخسران، حتى لا نقع في الخطأ نفسه، مثل ما هو متعارف في دروس التعليم العسكري.يفرض جهة معادية والأخرى جهتنا، ثم يلاحظ خطأ خطة جهتنا، وتجدون أن العقل الذي وضع الخطة قد أخطأ في هذا المكان، إذن حينما تريدون أنتم وضع الخطة يجب أن لا تقعوا في ذلك الخطأ نفسه، أو يفترض أن الخطة كانت صحيحة إلا أن الآمر أو المخابر أو المدفعي أو المراسل أو الجندي في جبهتنا ارتكب خطأ، تدركون أنتم وجوب عدم الوقوع في ذلك الخطأ، هكذا هي مسيرة التاريخ. والآن عليكم العثور على ذاتكم في هذا المشهد الذي أتحدث عنه في صدر الإسلام.

بعض الناس من طبقة العوام، لا قدرة لهم على اتخاذ القرار، أمرهم منوط بالفرصة المتاحة أمامهم، فإذا صادف أن كانوا في زمن يتصدى لزمام الأمور إمام كالإمام أمير المؤمنين عليه السلام، أو كالإمام الراحل رحمه الله، ويسير بهم نحو الجنة فخير على خير، وأمثال هؤلاء يسوقهم الصالحون وينتهي بهم الأمر إن شاء الله إلى الجنة. أما إذا صادف وعاشوا في زمن من يصفهم القرآن بقوله: ﴿وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً

﴿يَدْعُونَ إِلَى ٱلنَّارِ﴾[١] أو ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ بَدَّلُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا۟ قَوْمَهُمْ دَارَ ٱلْبَوَارِ ﴿٢٨﴾ جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا ۖ وَبِئْسَ ٱلْقَرَارُ﴾[٢] يكون مصيرهم إلى النار.

احذروا أن تكونوا من العوام

احذروا أن تكونوا من العوام، ولا نقصد بكلامنا هذا وجوب إكمال مراحل دراسية متقدمة، أبدًا، وقد قلت إن معنى العوام ليس هذا، فما أكثر الذين أنهوا مراحل دراسية عليا، لكنهم يحسبون في عداد العوام وما أكثر من درسوا العلوم الدينية وهم من العوام، وما أكثر الفقراء أو الأغنياء الذين يدخلون في عداد العوام. إن صفة العوام رهن إرادتي وإرادتكم، ولهذا علينا أن ننتبه ولا نكون من العوام، أي يجب أن يكون كل فعل نفعله عن بصيرة ومن لا يعمل على بصيرة فهو من العوام، ولهذا ورد في القرآن الكريم على لسان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ﴿أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى ۖ﴾[٣]. لذا انظروا أولاً هل أنتم من فئة العوام أم لا؟ فإذا كنتم من تلك الفئة فسارعوا إلى الخروج منها، حاولوا أنتكون لكم القدرة على التحليل والدراية والمعرفة. أما إذا كنا في عداد الخواص، فلنرى هل نحن من خواص أنصار الحق أم من خواص أنصار الباطل؟ والمسألة هنا واضحة، فالخواص في مجتمعنا من أنصار الحق بلا ريب، لأنهم يدعون الناس إلى القرآن

(١) سورة القصص، الآية ٤١.

(٢) سورة إبراهيم: ٢٨-٢٩.

(٣) سورة يوسف: ١٠٨.

والسنة والى العترة والى سبيل الله والى القيم الإسلامية، هذه هي طبيعة الجمهورية الإسلامية. إذن فلا نتحدث الآن عن الخواص من أنصار الباطل ولا شأن لنا بهم حاليًا، بل تمام الكلام في الخواص من أنصار الحق، والمشكلة كلها تبدأ من هنا.

الخواص من أنصار الحق فريقان

اعملوا يا أعزائي أن خواص الحق يقسمون إلى فريقين:

الفريق الأول هم الذين يتغلبون في صراع مع مغريات الدنيا والحياة من الجاه والشهوة والمال واللذة والرفاه والسمعة. والفريق الآخر هم الذين يخفقون في هذا الصراع. هذه المغريات وما شابه كلها أمور حسنة، وكلها من مباهج الدنيا ﴿مَتَٰعُ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا﴾، والقرآن حينما يصفها بأنها متاع الحياة الدنيا فلا يعني ذلك أنها قبيحة فالمتاع جعله الله ليتمتع به الإنسان، ولكن إذا انغمس فيها إلى الحد الذي يستطيع معه الكف عنها بكل سهولة عند حصول أي امتحان عسير فهذا شيء آخر.

هذه الأمور تستدعي إمعان النظر فيها، وتستلزم الدراسة والدقة لأن أفراد المجتمع والنظام والثورة، لا يمكن ضمان مستقبلهم اعتباطا، فكل مجتمع يوجد فيه هذا النمطان من أنصار الحق، إذا كان الفريق الصالح منهما هو الأكثر، فلن يقع المجتمع بما وقع فيه على عهد الإمام الحسين عليه السلام، وكونوا على ثقة أن المستقبل سيكون مضمونًا إلى الأبد.

أما إذا كانوا قلة، ومكان ذلك الفريق من الخواص أي المناصرين

للحق، ولكن في الوقت نفسه تنهار معنوياتهم أمام المغريات الدنيوية بما فيها من ثروة ودار وشهرة ومنصب وجاه، والذين يعرضون عن سبيل الله لأجل أنفسهم، فيلتزمون الصمت حيثما يجب قول الحق حفاظاً على أرواحهم أو مناصبهم أو أعمالهم أو ثرواتهم أو لحب الأولاد والأسرة والأقارب والأصدقاء، هؤلاء إذا كانوا الكثرة، فالويل الويل حينئذ، عندما ينزل السائرون على خطى الحسين إلى أرض الشهادة ويقادون إلى مسالخ الذبح، ويتسلط أتباع يزيد على مقاليد الأمور، ويحكم بنو أمية الدولة التي أسسها رسول الله ﷺ، ويطول حكمها ألف شهر وتتحول الإمامة إلى ملك وسلطان. المجتمع الإسلامي مجتمع الإمامة، أي يكون الإمام فيه على رأس السلطة وهو الشخص الذي يكون بيده زمام الأمور، والناس ينقادون له انقيادًا قلبيًا نابعًا من الإيمان، أما السلطان فهو على خلاف ذلك، يحكم الناس بالقهر والغلبة والناس لا يعتقدون به، ولا يقبلون حكمه، ولا يميلون إليه، والمقصود من الناس هنا ذوو الفهم والوعي.

لقد بدَل بنو أمية الإمامة في الإسلام إلى سلطنة وملكية، وحكموا هذه الدولة الإسلامية ألف شهر أي تسعين سنة،حينذاك وضعت أسس بناء هشّ انتهى إلى الثورة ضد بني أمية الذين انقرضوا وجاء من بعدهم بنو العباس، وحكموا العالم الإسلامي ستة قرون على أساس أنهم خلفاء الرسول. بنو العباس الذين كان خلفاؤهم أو بتعبير أدق ملوكهم، يمارسون الفساد والفسق وشرب الخمر والفجور والفحشاء والخبائث وجمع الثروات واللهو والملذات، وآلاف أنواع المفاسد الأخرى، كانوا يحضرون المساجد أيضًا، كما هو حال سائر الملوك في العالم، ويأمّون الناس في الصلاة، وكان الناس يصلون خلفهم اضطرارًا، وإن لم يبلغ اضطرارهم ذلك الحد أو من باب الاعتقاد المغلوط للحق

في مجتمع ما، كلهم أو أكثرهم يخافون على حياتهم وعلى فقدان الأموال والمناصب والجاه والمكانة الإجتماعية، ويخشون العزلة بسبب تعلقهم بالدنيا، حينذاك لا يناصرون الحق ولا يضحون بأنفسهم.

عندما تصير الأمور إلى هذا الحال، حينئذٍ يقع في طليعة الأمور استشهادالإمام الحسين عليه السلام بتلك الصورة المأساوية، ويكون آخرها تسلط بني أمية والعصابة المروانية ومن بعدهم بنو العباس، ثم سلسلة السلاطين الذين حكموا العالم الإسلامي إلى يومنا هذا. انظروا اليوم إلى العالم الإسلامي، والى مختلف البلدان الإسلامية، انظروا إلى محل بيت الله والمدينة المنورة، ولاحظوا من يحكمها من فسّاق وفجّار، وهكذا في بقية الأماكن. ومن هنا تقولون في زيارة عاشوراء: (اللهم العن أول ظالم ظلم حق محمد وآل محمد) وهذه هي الحقيقة، حسنًا اقتربنا شيئًا من تحليل واقعة عاشوراء ذات العبرة الكثيرة، وبعد ما سمعتم هذه المقدمة ننتقل إلى التاريخ.

الزمن الذي انزلق فيه الخواص من أنصار الحق

بدأ انزلاق الخواص المؤيدين للحق بعد وفاة الرسول بست أو سبع أو ثمان سنوات، وحديثي هنا مع غض النظر عن مسألة الخلافة تمامًا، قضية الخلافة على حدى، بل أتحدث الآن حول هذا النهج بسبب ما يتصف به من خطورة القضايا بأجمعها، وقعت بعد وفاة الرسول بسبع سنوات، وبرزت أولى مؤشراتها في قولهم: «لا يجوز أن يستوي ذوو السابقة في الإسلام»، وهم من أصحاب الرسول ومن شهد منهم حروبه مع سائر الناس، هؤلاء يجب أن تكون لهم امتيازات، فمنحت لهم امتيازات مالية من بيت المال، كانت هذه هي اللبنة الأولى، وهذا

هو حال سائر التيارات المنحرفة، تبدأ من نقطة صغيرة ثم يستفحل شأنها ويتفاقم مع كل خطوة. الانحرافات بدأت من هنا، الى أن بلغت عهد عثمان، حيث آلت الأوضاع في أواسط عهد الخليفة الثالث إلى حالة صار فيها كبار صحابة رسول الله أثرى الأثرياء في زمانهم، أي أن كبار الصحابة من ذوي الأسماء المعروفة كطلحة والزبير، وسعد بن أبي وقاص وأمثالهم، الذين كان لهم مفاخر باتو من رأسماليّي الطراز الأول، بحيث أن أحدهم لما مات وأرادوا تقسيم أمواله بين وارثيه، اضطروا إلى كسر الذهب الذي أذابه وحولوه إلى سبائك بالفؤوس، والحال أن الذهب يوزن بالمثاقيل، هذا ما سجله التاريخ، هذا ليس مما يقال إن الشيعة سطّروه في كتبهم، أبدًا،هذا ما كتبه الجميع فالمبالغ التي خلّفوها من الدنانير والدراهم كانت مبالغ خيالية، وهذه الحالة هي التي أدت إلى وقوع تلك الأحداث على عهد أمير المؤمنين عليه السلام ، أي بما أن البعض صار يولي أهمية فائقة للمناصب والمغريات لذلك فقد دخلوا في صراع معه. هذا وقد مرَت خمس وعشرون سنة على وفاة الرسول صلى الله عليه وآله وسلم ، وقد بدأت الكثير من الأخطاء والاشتباهات.

إن نفس أمير المؤمنين عليه السلام هي نفس الرسول صلى الله عليه وآله وسلم ، ولولا هذه الفترة الخمس والعشرون سنة لما كانت تواجه عليًا عليه السلام أية مشكلة في بناء ذلك المجتمع، إلا أنه عليه السلام ، جوبه بمثل هذا المجتمع الذي يوصف بعض أفراده بأنهم (يتخذون مال الله دولًا وعباده خولًا ودينه دخلًا بينهم)، مجتمع ضاعت القيم فيه، مجتمع يواجه فيه أمير المؤمنين عليه السلام مصاعب جمَة عندما يريد قيادة الناس إلى الجهاد.

الخواص في زمن أمير المؤمنين عليه السلام

كان أكثر الخواص في عهد أمير المؤمنين من المناصرين للحق، أي من الذين كانوا يعرفون الحق لكنهم يرجحون الدنيا على الآخرة، وهو ما أدّى به إلى خوض ثلاث معارك وأنهى فترة حكمه التي استمرت أربع سنوات وتسعة أشهر في هذه المعارك الثلاثة، إلى أن استشهد في نهاية المطاف على يد أحد الأشقياء.

إن دم أمير المؤمنين عليه السلام غالٍ كدم الإمام الحسين عليه السلام ،تقرأون في زيارة عاشوراء: (السلام عليك يا ثار الله وابن ثاره)، أي أن الله تعالى هو ولي دم الإمام الحسين وأبيه أمير المؤمنين عليهما السلام ، ولم يرد هذا التعبير لأحد غيره، ومن البديهي أن لكل دم يراق وليَ، وهو ما يسمى بولي الدم، فالأب ولي دم ولده والولد ولي دم أبيه، والأخ ولي دم أخيه، ويسمى هذا عند العرب ثأرا.فالمطالبة بالدم ومالكية حق الدم سموها بالثأر،والذي يطالب بدم الإمام الحسين هو الله تعالى، كما انه هو المطالب بدم أمير المؤمنين، إذن ولي دم هاتين الشخصيتين هو الله تعالى.

لقد استشهد أمير المؤمنين عليه السلام بسبب تلك الأوضاع، ومن بعده جاء ابنه الحسن عليه السلام الذي لم يتسنَّ له الصمود بوجه تلك الحالة لأكثر من ستة أشهر، إذ تخلَّى عنه أنصاره وتركوه وحيدًا فريدًا، فرأى أنه إذا سار لمحاربة معاوية بهذه الثلة القليلة واستشهد، فلن يطالب أحد بثأره نتيجة لاستشراء الانحطاط الأخلاقي بين أفراد المجتمع الإسلامي وبين هؤلاء الخواص، وإن دعاية معاوية وأمواله وحيله ستستحوذ على الجميع، وسيقول الناس بعد مضي سنة أو سنتين: أن الإمام الحسن لم يحسن صنعًا أساسًا حين تحدّى معاوية،

ومعنى هذا أن دمه سيذهب هدرًا، لذلك تحمل جميع المصاعب ولم يلق بنفسه في ميدان الشهادة.

الشهادة أم البقاء على قيد الحياة

أنتم تعلمون أن الشهادة تكون أحيانًا أسهل من البقاء على قيد الحياة، وهذا المعنى يدركه جيدًا أهل الحكمة والدقة والآفاق المعنوية، أحيانًا تصبح الحياة والعمل في أجواء معينة أصعب بكثير من القتل والشهادة ولقاء الله، لكن الإمام الحسن عليه السلام سلك هذا السبيل الأصعب، في تلك الأوضاع كان الخواص في حالة انهيار ولم يكونوا على استعداد للقيام بأي تحرك، لهذا السبب حينما استلم يزيد السلطة ثار عليه الإمام الحسين عليه السلام، لأن يزيد بما يتصف به من صفات سيئة كان من السهولة محاربته، وفيما لو قتل احد في محاربته لا يذهب دمه هدراً، إذ كانت الأوضاع في عهده لا خيار فيها إلا خيار الثورة، على العكس من زمن الإمام الحسن عليه السلام، الذي فيه خياران خيار الشهادة وخيار الحياة، وكان البقاء على قيد الحياة أكثر ثوابًا وجدوى ومشقة من القتل، والإمام الحسن عليه السلام اختار هذا المسلك الأصعب ولكن الوضع لم يكن على هذه الصورة في عهد الإمام الحسين عليه السلام، ولم يكن هناك إلا خيار واحد، والبقاء على قيد الحياة الذي يعني عدم الثورة ما كان له آنذاك أي معنى، كان لا بد من الثورة، سواء انتهى به الأمر إلى القبض على الحكم أم كان مصيره إلى الشهادة. كان عليه أن يرسم الطريق ويركز لواء الدلالة عليه ليكون واضحًا، لأن الأمور إذا بلغت هذا الحد لا بد إلا وأن يكون التحرك في هذا الاتجاه.

دور الخواص في تحديد مسار الأحداث

عندما ثار الإمام الحسين عليه السلام لم يأت الكثير من هؤلاء الخواص لنصرته، مع ما كانت له من منزلة عظمى في المجتمع الإسلامي، لاحظوا مدى الضرر الناجم عن وجود هؤلاء الخواص في المجتمع، الخواص الذين يرجحون دنياهم حتى على مصير العالم الإسلامي لقرون مقبلة مع ما كان للإمام الحسين من مكانة وشهرة، كنت انظر في قضايا ثورة الإمام الحسين عليه السلام وحركته من المدينة، ولاحظت أنه في الليلة التي سبقت مسيره من المدينة كان عبد الله بن الزبير قد خرج من المدينة أيضًا، وفي الحقيقة كان كلاهما في وضع واحد ولكن أين الإمام الحسين عليه السلام من عبد الله بن الزبير؟ حديث الإمام الحسين وخطابه اجبرا والي المدينة آنذاك، وهو الوليد، على أن يرقق كلامه ولا يتَّبع الغلظة مع الحسين عليه السلام، وما إن تفوه بكلمة إلا والحسين يرد عليها مهددًا غاضبًا فلا حيلة لمروان إلا السكوت ذليلًا. هؤلاء الأشخاص أنفسهم ذهبوا وحاصروا دار عبد الله بن الزبير فأخرَج إليهم أخيه، فاستأذن منهم أن يسير معهم إلى دار الإمارة في تلك اللحظة فأهانوه وهددوه إن هو لم يخرج إليهم قتلوه، حتى خضع لهم وتوسل إليهم أن يأذنوا له أن يرسل أخوه وغدًا يأتيهم بنفسه. مع أن عبد الله بن الزبير كان شخصية بارزة أيضا، إلا أن موقفه كان يختلف إلى هذا الحد مع موقف الإمام الحسين، لم يكن أحد يتجرأ على التصرف مع الإمام الحسين عليه السلام أو يخاطبه بهذا الأسلوب، لما له من حرمة وما يتسم به من عظمة وشخصية وهيبة وقوة روحية. وفي طريقه إلى مكة كان كل من يلقاه ويتكلم معه يخاطبه بالقول: «جعلت فداك»، أو «بأبي أنت وأمي». هكذا كانوا يكلمون الإمام الحسين عليه السلام وهكذا كانت له مكانة ممتازة بارزة في المجتمع الإسلامي.

جاء الحسين عليه السلام عبد الله بن مطيع وهو بمكة وقال له: «يا ابن رسول الله، إن قتلت لنسترقنّ من بعدك» أي أن هؤلاء القوم يحجزهم عن أذانا خشيتهم لك وهيبتهم منك، وإنك إذا ثرت عليهم وقتلت اتخذونا رقيقًا لهم. كانت للإمام الحسين عليه السلام مكانة وعظمة يخضع لها حتى عبد الله بن عباس، وعبد الله بن جعفر وحتى عبد الله بن الزبير، مع أنه يم يكن ينظر للإمام الحسين بعين الارتياح، كان يبدي له غاية التبجيل والإكرام. جميع الأكابر والخواص من أنصار الحق، أي الذين لم يكونوا إلى جانب الحكومة الأموية ولم يدخلوا جبهة الباطل، وحتى من بينهم الكثير من الشيعة الذين يقرون بإمامة أمير المؤمنين عليه السلام ويعتبرونه الخليفة الأول شرعًا، هؤلاء بأجمعهم حينما أحسوا ببطش السلطة الحاكمة تخاذلوا رغبة في الحفاظ على أنفسهم وأموالهم ومناصبهم، ونتيجة لتخاذل هؤلاء مال عوام الناس إلى جانب الباطل.

حركة العوام تأتي على أعقاب حركة الخواص

لو نظرنا إلى أسماء أهل الكوفة الذين كاتبوا الإمام الحسين ودعوه للقدوم إليهم، وكانوا طبعًا من طبقة الخواص ومن أكابر القوم ووجهاء الناس، وكان عدد الرسائل هائلًا، حيث بلغ مئات الصفحات، وربما مُلأت عدة خروج، والذين كتبوها جلُّهم من الأعيان والوجهاء، يتبين من خلال لهجة تلك الرسائل كم كان عدد الخواص من أنصار الحق، من كان على استعداد للتضحية بدينه من أجل دنياه، ومن منهم كان حريصًا على التضحية بالدنيا في سبيل الدين وهذا ما يمكن أن يستشف من خلال الرسائل. ولكن، بما أن عدد الذين كانوا يميلون إلى التضحية

بالدين في سبيل الدنيا أكبر، آلت النتيجة إلى استشهادمسلم بن عقيل في الكوفة بعدما كان قد بايعه ثمانية عشر ألفًا من أهلها، وبعد ذلك خرج منها عشرون أو ثلاثون ألفًا تقاتل الإمام الحسين عليه السلام بكربلاء. معنى هذا أن حركة الخواص تجلب في أعقابها حركة العوام. لا أدري هل عظمة هذه الحقيقة التي تلازم الناس الواعين على الدوام، تتبين لنا بشكل واضح صحيح أم لا؟

لا بد وأنكم سمعتم بما جرى في الكوفة، إذ كان القوم قد كتبوا الرسائل إلى الإمام الحسين عليه السلام أن أقدم علينا معززًا، فأوفد إليهم مسلم بن عقيل ليطّلع على حقيقة الموقف، فإن كان خيرًا سار إليهم بنفسه. سار مسلم إلى الكوفة، ودخل دور كبار الشيعة، وتلا عليهم كتاب الإمام الحسين عليه السلام إليهم، فأخذ الناس يفدون عليه أفواجا وجماعات ويعلنون عن ولائهم،وكان النعمان بن بشير والي الكوفة آنذاك شخصًا ضعيفا ومسالمًا، فأعلن أنه لا يقاتل إلا من يقاتله، ولم ينهض لمجابهة مسلم بن عقيل، فرأى الناس أن المجال مفسوح أمامهم، فجاءوا إلى مسلم وبايعوه، فبعث بعض الخواص المؤيدين للباطل من أنصار الأمويين رسالة إلى يزيد يعلمونه فيها أن إذا كانت له في الكوفة حاجة فليولي عليها رجلاً حازمًا، وإن النعمان بن بشير لا طاقة له على مجابهة مسلم بن عقيل، فكتب يزيد إلى عبيد الله بن زياد الذي كان واليًا على البصرة حينذاك يعلمه بأنه عينَه واليًا على الكوفة مع احتفاظه بولاية البصرة، وانطلق عبيد الله من ساعته يحث السير من البصرة إلى الكوفة.

العوام لا يتحركون على أساس التفكير والتحليل

وصل عبيد الله بن زياد إلى مشارف الكوفة ليلًا، وما أن رأى الناس رجلًا ملثما قادمًا ومعه الخيل والعدة حتى ظنّوا أنه الإمام الحسين عليه السلام، فتقدموا إليه بكل بساطة وحيّوه قائلين: (السلام عليك يا ابن رسول الله).

هذه هي صفة عوام الناس، ليست لأحدهم قدرة على التحليل أو النظر في الأمر، فما أن رأوا شخصًا قادمًا ومعه الخيل والعدة حتى ظنوه الإمام الحسين قبل أن يتحدث معهم بكلمة واحدة، وأخذ الجميع يردد أنه الإمام. إذ كان الجدير بهم أن يتأملوا ويتروّوا ليعرفوا من هو هذا الشخص، لكن هذا القادم لم يلتفت إلى الناس وسار إلى دار الإمارة وعرَفهم بنفسه ودخل القصر، وبدأ يخطط من هناك للقضاء على وثبة مسلم بن عقيل، وتركزت مساعيه على استخدام أشد أساليب الضغط والتهديد والتعذيب ضد أنصار مسلم بن عقيل، واحتال على هانئ بن عروة واستقدمه إلى القصر وشج رأسه ووجهه، ولما احتشد بعض الناس حول القصر نجح بتفريقهم بأساليب الحيلة والكذب. وهنا أيضًا يتضح دور الخواص الفاسدين الذين يسمَون بأنصار الحق، وهم الذين عرفوا الحق وميزوه، لكنهم رجحوا دنياهم على الدين.

وبعد أن سار مسلم بن عقيل بحشد كبير من أنصاره -جاء في كتاب ابن الأثير أن عددهم بلغ ثلاثين ألفًا- والذين أحاطوا بداره فقط بلغ عددهم أربعة آلاف يحملون السيوف دفاعاً عنه كان هذا في اليوم التاسع من ذي الحجة، سارع ابن زياد إلى بث بعض خواص الباطل بينهم لأجل إثارة الخوف والرعب فيهم، ويشيعوا بينهم أن لبني أمية كل شيء، السلاح والمال والقوة، وأن هؤلاء لا شيء عندهم، فاستشرى

الذعر بين الناس وأخذوا يتفرقون عنه تدريجيًا وما أن حان وقت صلاة العشاء حتى لم يبق مع مسلم أحد، ونادى منادي ابن زياد يجب أن يحضر الجميع إلى مسجد الكوفة عند صلاة العشاء ليصلوا معه، وجاء في المصادر التاريخية أن المسجد امتلأ بالناس للصلاة خلف ابن زياد.

نتائج تقصير خواص الحق

حسنًا، السؤال الذي يطرح نفسه هنا، لماذا آلت الأمور إلى ذلك المآل؟ إنني حينما أنظر أرى أن ذلك يعزي إلى الخواص من أنصار الحق، الذين سلك بعضهم مسلكًا اتّسم بغاية التخاذل، من أمثال شريح القاضي، شريح هذا لم يكن من بني أمية وكان يعرف حقيقة الأوضاع، فحينما جاءوا بهانئ بن عروة وشجوا رأسه وجرحوا وجه وألقوه في السجن، هبّت عشيرته وحاصرت قصر ابن زياد، فخشي ابن زياد اجتماعهم إذ يرون أن قاتل هانئ هو ابن زياد، لذلك أمر شريحًا أن يذهب ليرى بعينه أن هانئ حي، فاطّلع شريح على حياة هانئ بنفسه ولكنه وجده مجروحًا، فما أن رآه هانئ حتى استغاث بالمسلمين (مخاطبًا لشريح) أين قومي؟ هل ماتوا؟ لماذا لا يأتون وينقذوني مما أنا فيه؟ يقول شريح: أردت أن أذهب وأبلغ المجتمعين حول قصر الإمارة بمقالة هانئ، لكن للأسف كان هناك جاسوس ابن زياد فلم أستطع. ماذا يعني (لم أستطع)؟ يعني ترجيح الدنيا على الدين، ولعل شريحًا لو كان فعل ذلك لتغير التاريخ، لو قال للناس أن هانئ حي ولكنه في السجن، وابن زياد يريد قتله، ولم يكن ابن زياد قد استولى على الأمور بعد، لهجموا وأنقذوا هانئ وأصبحوا أكثر قوة وشكيمة

ولقبضوا على ابن زياد وقتلوه أو أخرجوه من هناك، ولاستتب أمر الكوفة للحسين عليه السلام ولما وقعت حادثة كربلاء، ولو لم تقع حادثة كربلاء لانتهى الأمر إلى استلام الإمام الحسين لزمام الحكم، ولو أن هذا الحكم استمر تسعة أشهر، وربما كان يمتد لفترة أطول لكانت له بركة كبيرة في التاريخ.

وضوح الموقف وأثره في حركة التاريخ

قد تؤدي حركة ما أحيانًا إلى تبديل وجه التاريخ، وقد تقود حركة أخرى مغلوطة وناتجة عن الخوف والضعف وحب الدنيا والحرص على الحياة إلى جعل التاريخ يتمرّغ في مهاوي الضياع. أنت (يا شريح القاضي) لماذا لم تشهد بالحق حينما رأيت هانئ على تلك الحالة؟! هذا هو دور الخواص الذين يفضلون الدنيا على الدين، حينما أمر ابن زياد رؤساء القبائل أن يذهبوا ويعملوا على تفريق الناس من حول مسلم، لماذا أطاعوا أمره؟ فهم لم يكونوا بأجمعهم من الأمويين، ولم يكونوا قد قدموا من الشام، بل أن بعضهم كان ممن كتب الرسائل إلى الإمام الحسين عليه السلام، كشبث بن ربعي الذي كان قد كتب له رسالة ودعاه إلى القدوم، هذا الرجل كان من جملة الذين أمرهم ابن زياد بالسعي لتفريق الناس، فذهب وأخذ يثبط الناس ويستخدم أساليب التهديد والتخويف والإغراء، وساهم في تفريق الناس، لماذا فعلوا هكذا؟ لو أن شخصًا كشبث بن ربعي خشي الله في لحظة مصيرية بدلًا من خشية ابن زياد لتبدَل وجه التاريخ، لكن هؤلاء انبروا لتثبيط الناس، فتفرق العوام. لكن لماذا تفرق الخواص المؤمنون المحيطون بمسلم؟ مع أنهم كانوا من بينهم شخصيات خيَرة وصالحة وبعضهم

سار فيما بعد إلى كربلاء واستشهد هناك لكنهم أخطأوا في ذلك الموقف. من الطبيعي أن الذين استشهدوا في كربلاء قد كفروا عن خطئهم ذلك، ونحن هنا لا نتحدث عنهم ولا نذكر أسماءهم. ولكن أيضًا كان من بينهم من لم يأت إلى كربلاء، لم يستطيعوا أو لم يوفقوا، لكنهم انخرطوا فيما بعد في صفوف التوابين.

الأثر الذي تركه شهداء كربلاء

ولكن ما فائدة ذلك بعد ما وقعت فاجعة كربلاء وقتل سبط الرسول، وبدأت حركة التاريخ بالانتكاس؟ لهذا السبب كان عدد التوابين عدة أضعاف شهداء كربلاء. فشهداء كربلاء صرعوا كلهم في يوم واحد، والتوابون صرعوا كلهم في يومٍ واحد أيضًا، ولكن تلاحظون أن الأثر الذي تركه التوابون في التاريخ لا يعدل واحدًا من ألف مما خلفه شهداء كربلاء.

وذلك لأنهم لم يبادروا إلى ذلك العمل في وقته، ولأن شخصيتهم وقرارهم قد جاء متأخراً. لماذا تركوا مسلم وحده بعدما جاء إليهم كمندوب عن الإمام الحسين عليه السلام وبعدما بايعوه؟ وأنا هنا لا أخاطب العوام بل أعني الخواص، لماذا حينما جنَّ عليه الليل تركوه يلتجئ إلى دار طوعة؟

لو أن الخواص لم يتخلوا عن مسلم ووقفوا إلى جانبه على سبيل المثال مائة رجل، وآووه في دار أحدهم ودافعوا عنه، ومسلم حتى حينما كان وحده حينما أرادوا اعتقاله بقي يقاوم عدة ساعات، واستطاع بعد أن هجموا عليه عدة مرات، ورغم كثر عددهم أن يردهم على أعقابهم، ولو كان معه مئة رجل هل كان بإمكانهم القبض عليه؟

كلا، لأن الناس سيهبون لنجدتهم، إذن الخواص قصَروا هنا، إذ لم يهبوا لمؤازرة مسلم. لاحظوا أينما تذهبون تصطدمون بموقف الخواص، من الواضح أن قرار الخواص في الوقت المناسب ورؤيتهم الصائبة للأمور في الوقت المناسب وتجاوزهم عن الدنيا في اللحظة المناسبة، وموقفهم في سبيل الله في الفرصة المؤاتية، هو الذي يستنقذ التاريخ ويصون القيم، وهذا ما يوجب اتخاذ الموقف المناسب في اللحظة المناسبة، أما إذا فات الأوان، فلا جدوى فيما وراء ذلك.

بعد الانتخابات التي جرت في الجزائر وفازت بها الجبهة الإسلامية، سيطر الجيش على مقاليد الحكم بتحريض من أمريكا وغيرها،وفي اليوم الأول لمجيء حكومة العسكر إلى السلطة لم تكن لها أي قوة، فلو أن مسؤولي الجبهة الإسلامية قادوا الناس إلى الشوارع من اليوم الأول وقد أعلنت لهم ذلك حين لم تكن الحكومة العسكرية يوم ذاك على درجة من القوة، ولا قادرة على أي عمل، لقضوا عليها ولأقاموا حكمًا إسلاميًا، ولكانت في الجزائر اليوم حكومة إسلامية،ولكنهم لم يتخذوا قرارًا كهذا،بعضهم أخذتهم الرهبة والبعض الآخر انتابه الضعف والبعض قال: لنا الرئاسة، أو لهذا أو لذاك.

الإمام الخميني اتخذ القرار المناسب في اللحظة الحاسمة

في عصر يوم ٢١ من بهمن عام ١٣٥٧ هـ.ش (١٩٧٩/٢/٢٩م) أعلنت الأحكام العرفية في طهران، لكن الإمام دعا الناس للنزول إلى الشوارع ولو لم يتخذ الإمام هذا القرار في تلك اللحظة لكان محمد رضا لا يزال يحكم هذا البلد، ولو أن الناس حين إعلان الأحكام العرفية لزموا منازلهم، لبدأوا أولا بالإمام ومن بعده مدرسة الرفاه ثم بقية المناطق،

ولقضوا على كل شيء، ولكانوا قتلوا في طهران خمسمائة ألف شخص وانتهى كل شيء. على غرار ما حصل في اندونيسيا، حيث قتلوا مليون شخص ثم عاد كل شيء إلى حاله، وذلك الشخص على رأس السلطة اليوم، شخصيته المبجلة والمكرمة، ولم يتزحزح عن موضعه، غير أن الإمام اتخذ القرار اللازم في اللحظة الحاسمة من موقعه.

إذًا لو أن الخواص شخصوا ما ينبغي عمله في الظرف المناسب، وطبقوا ذلك، لتغير وجه التاريخ، ولما سيق أمثال الحسين بن علي إلى الميادين كميدان كربلاء،وإذا كان الخواص قد أساءوا الفهم أو أبطؤا في الفهم، أو فهموا ولكن اختلفوا كما هو الحال بالنسبة للإخوة الأفغان، وحتى إذا كان المتصدون للعمل كفوئين، إلا أن طبقة من الخواص لم تتجاوب معهم وقال أحد أفرادها نحن مشغولون حاليًا، وقال غيره لقد انتهت الحرب دعونا نتفرغ لأعمالنا ونكسب لقمة عيشنا، وإننا قد سئمنا القتال والتجوال تارةً في جبهة الغرب وتارةً في جبهة الجنوب، إذا تعرف الخواص بهذه الصورة، فاعلموا أن التاريخ سيتكرر فيه وقائع كربلائية.

وعد الله تعالى بنصره من ينصره، فإن قام أحد لله وبذل جهده، يكون النصر حليفه لا بمعنى يكتب النصر لكل واحد من الأشخاص، بل معناه أن أية جماعة عندما تتحرك تنال النصر، ومن الطبيعي أن يحفّ مسارها المصاعب والقتل والآلام، ولكن فيه انتصار أيضًا.

يقول الباري تعالى: ﴿وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ﴾،ولا يقول ننصركم دون أن يدمى أنف أحدكم، لا أبدًا، وإنما يقول ﴿فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ﴾ولكن ينتصرون، هذه سنة إلهية. حينما نخاف على دمائنا وعلى كرامتنا، وعلى أموالنا ولأجل عوائلنا وأحبائنا، وحينما نخشى على الراحة والمعيشة الوادعة ونحرص على الكسب وعلى الحصول على

دار فيها أكثر من غرف الدار السابقة، عندما تعيقنا أمثال هذه الأمور عن الحركة، يصبح من الواضح حينها أنه حتى لو كان أشخاص كالإمام الحسين عليه السلام تزعموا الطريق لاستشهدوا عن آخرهم مثلما استشهد أمير المؤمنين عليه السلام وكما استشهد الحسين عليه السلام. انظروا يا أعزائي أين موقعكم، إن كنتم من الخواص وأنتم فعلا منهم فحاذروا، هذا كل ما نريد قوله، من الطبيعي أن كلامنا هذا خلاصة لهذا الموضوع الذي يستدعي أن يدرس في حقلين: يتمثل الحقل الأول في الجانب التاريخي للقضية،ولو كان أمامي متسعاً من الوقت لبادرت إليه بنفسي، ولكن مع الأسف لم يعد في الوقت متسع له، إذن يجب أن يبحث لأجل العثور على أمثلة مما يحفل به التاريخ عن الخواص والظروف التي كان ينبغي عليهم فيها المبادرة للعمل فلم يبادروا، مع ذكر أسمائهم ولو كان المجال يسمح الآن ولا يتعبني ويتعبكم لتحدثت إليكم ساعة عن هذه المواضيع والأشخاص ففي ذهني الكثير منها.

تطبيق الوقائع والحوادث التاريخية على كل زمان

أما الحقل الذي يجب البحث فيه فهو تطبيق ذلك على وضع كل زمان، لا في زمننا الحالي فحسب، وإنما في كل زمن كان يجب فيه على الخواص العمل بتكاليفهم لكنهم لم يعملوا لها، وما ذكرناه عن اجتناب انقيادهم لمغريات الدنيا، كان كلمة واحدة، ويجب البحث في كيفية عدم الانقياد للدنيا، مع ذكر الأمثلة والمصاديق على ذلك. يا أعزائي، إن السير على طريق الله له معارضون على الدوام، ولو أن شخصًا من هؤلاء الخواص الذين تحدثنا عنهم أراد أن يقدم على عمل، إن هو أراد ذلك، لانبرى له جماعة آخرون من اولئك الخواص أنفسهم

باللوم والتعنيف والتقريع على موقفه ذاك، مثلما كانوا يفعلون في أيام ثورتنا، لكن الخواص يجب عليهم أن يقاوموا، هذه إحدى ضرورات جهاد الخواص، وهي الصبر على اللوم والتقريع، لأنهم يتلقون من المعارضين التهم والإساءات على الدوام.

الانتخابات وتدخل قوات التعبئة

نحمد الله على أن انتخاباتنا جرت على ما يرام، وشارك فيها أبناء الشعب كافة، وقد انتخب والحمد لله نواب صالحون، ونشكر الله على أن الحكومة ووزارة الداخلية ورئيس الجمهورية ومجلس صيانة الدستور وغيرهم، ساهموا بأجمعهم في إقامة هذه الانتخابات، فجرت على أفضل ما يكون. فقد تحدث بعض أفراد قوات التعبئة ببعض الكلمات في طهران أو هنا أو هناك، فأثيرت لأجل ذلك ضجة بذريعة أن الحرس الثوري تدخل في الانتخابات وما شابه ذلك، ما هذا الكلام؟ أجل، إن الأمور تسير على هذه الشاكلة، إذا أراد المرء أن يقوم بأي إجراء أو يأتي بأي عمل فالعدو بالمرصاد، والأعداء صورهم شتى، حتى أن بعضهم من الأصدقاء وهم ليسوا أعداء، ولكنهم لا يفهمون ولا يشخصون، فيثيرون الشكوك والشبهات. طبعًا كما قال الإمام الراحل: «لا ينبغي للحرس الثوري والجيش وسائر القوات المسلحة الخوض في السياسة»، ولا يعني هذا أن الأعداد الهائلة من قوات التعبئة لا يحق لها أداء دور مناسب في قضية خطيرة كالانتخابات، لماذا يخلط البعض بين هذين الأمرين؟ أفراد الحرس الثوري شأنهم شأن سائر الناس،يجب عليهم التعامل مع كل شيء بشكل عقلاني، ومن الطبيعي أن عدم الخوض في السياسة باق على قوّته بذات المعنى

الذي أمر به الإمام، ولا يتوهم البعض أن المسار السياسي قد طرأ عليه تغيير، على اعتبار أن الإمام قال: «لا تقحموا أنفسكم في السياسة»، بينما يقال حاليًا: ادخلوا في السياسة، أبدًا، فالأمر ما أمر به الإمام، ولكن مصداقه ومثاله لا ينطبق على المورد، إذا أدى الناس الملتزمون والشباب المؤمنون، وهم خيرة شبان البلد دورًا في الانتخابات، وحضروا عند صناديق الاقتراع لغرض الإشراف وللحيلولة دون حصول أي تجاوزات أو خلافات، فلا خير في عملهم هذا. وخلاصة القول هي أن أي عمل تؤدونه أي يؤديه الخواص، وفي أي قطاع كان، وقد يكون من القضايا الهامة التي قد تطرأ في المستقبل، وما ذكر كان نموذجًا مصغرًا سيؤدي إلى إثارة الاعتراضات والتساؤلات من قبل البعض.

بلدنا بلد الجهاد في سبيل الله

نحمد الله على أن بلدنا اليوم بلد المجاهدة في سبيل الله، وبلد الجهاد والإيثار والقيم. ومسؤولوا البلد وأكابر العلماء الأعلام والخطباء والمبلغون في شتى القطاعات كالجامعات وغيرها يعملون لخدمة الثورة والإسلام والفضائل، والقوات المسلحة كما هو واضح مظهر للفضائل، وحرس الثورة بماله من مناقب مشرفة، وهذه القوات بما تتميز به من خصائص، كم بذلت من جهود مضنية، وكم سطرت من الملاحم، يجب عليها أن تبقى الآن سائرة في طريق تلك القيم والفضائل ذاتها.

كان هذا عرضًا عامًا لهذه القضية التي ارتأيت الحديث عنها بمناسبة أيام محرم الحرام. لا شك أن ما قلناه يعتبر موجزًا، وإن كان الوقت قد طال بنا شيئًا ما، رغم التوصيات المتكررة بضرورة الاختصار

في الأحاديث لكيلا أصاب بالإرهاق، والحقيقة أنني أرى ليس من المصلحة أن أرهق نفسي، ليتسنّى لي أداء مهامي الأخرى، لكن المرء حينما يجلس في محفل كمحفلكم يستغرق في الوجد ولا يشعر بالتعب.

نسأل الله أن يوفقكم جميعًا، وأن يحشر روح الإمام مع الأنبياء والأولياء، وأدعوه تعالى أن يثبت الشعب الإيراني على هذا الطريق الواضح الذي وضع قدمه فيه.

اللهم أحينا لخدمة الثورة الإسلامية والقيم الإسلامية وأمتنا على هذا الطريق، اللهم اجعل موتنا قتلاً في سبيلك، وارفع درجات شهدائنا الأبرار يومًا بعد آخر، اللهم تفضل على المضحين منا بالأجر الجزيل ومنَ علينا بتمام الصحة والسلامة، اللهم اجعل أعلى الدرجات لمن تحمل المشقة على هذا السبيل، ولمن كانوا في الأسر مدة من الزمن وأطلق سراحهم أو لم يطلق سراحهم إلى الآن، ولمن فقدوا أو فقدت أجسادهم ولا أحد يعلم عنهم شيئًا، واكتب لعوائلهم الأجر والصبر. اللهم اقضِ حاجات المسلمين، وخلّص البلدان الإسلامية من مخالب الأجانب ومن براثن أمريكا، وأيقظ زعماء المسلمين من ثبات الغفلة، واستنقذهم من مستنقع الشهوات.

اللهم بحق محمد وآل محمد أرنا عزتك وقدرتك بمذلة وانكسار أمريكا وسائر أقطاب الاستكبار وأذنابهم، وأذق الشعب الإيراني حلاوة الانتصار عليهم، اللهم وكما محوت الإتحاد السوفيتي نسألك أن تمحوا بقية أقطاب الاستكبار، اللهم اشمل برحمتك وبركاتك كل من عاش ومات على هذا السبيل، اللهم تقبل بلطفك وكرمك كافة الأعمال والجهود.

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

الفصل الثاني
الخواص ومسار الأمّة

قرارات الخواص في الوقت المناسب، تحديد الخواص للمواقف في الوقت المناسب، عزوف الخواص عن الدنيا في اللحظة المناسبة، كل ذلك يحفظ لنا التاريخ وينقذ لنا القيم ويحفظها، يجب اتخاذ الموقف اللازم في اللحظة الحاسمة، وإذا مرَّت تلك اللحظة المصيرية بدون استثمار تكون الفرصة قد ضاعت والخسارة لا تعوض.

السيد الخامنئي دام ظله

الغدير ومنزلة علي عليه السلام

إن خلافة الرسول صلى الله عليه وآله وسلم في عقيدة الشيعة هي منصب إلهي، وإن الله سبحانه لا يجعل هذا المنصب إلا لمن توفرت فيه كامل الشروط لحفظ وصيانة هذا المنصب الإلهي، وفي المرحلة الأولى التي أعلن فيها الرسول صلى الله عليه وآله وسلم عن دعوته المباركة أمر بإنذار عشيرته الأقربين، وقد طلب النبي من علي عليه السلام أن يدعو ٤٥ نفرًا من بني هاشم لحضور دعوة الرسول لتناول طعام العشاء، ومنذ تلك الجلسة التاريخية طرحت مسألة خلافة علي عليه السلام من قبل الرسول، عندما قال للحاضرين: «قد أمرني الله تعالى أن أدعوكم إليه فأيكم يؤازرني على هذا الأمر على أن يكون أخي ووصيِّ وخليفتي فيكم»، وبعد أن أبلغهم الرسول صلى الله عليه وآله وسلم بنبوته، ما آمن أحدٌ به إلا علي عليه السلام، وهذا ما نقلته جميع الكتب التاريخية، فقال لهم النبي: «هذا أخي ووصي وخليفتي».

على مدى ٢٣ سنة من رسالة النبي وفي مناسبات مختلفة، طرح صلى الله عليه وآله وسلم خلافة ووصاية علي عليه السلام على أسماع المسلمين، وأول تلك الأحاديث هو حديث المنزلة الذي أدخل السرور على قلوب المحبين والحسد في قلوب المنافقين، عندما جعل الرسول عليًا عليه السلام منه بمنزلة هارون من موسى، والحديث الآخر هو حديث سد الأبواب، وذلك عندما أمر الرسول بسد جميع أبواب الصحابة التي تؤدي إلى مسجده ما عدا باب علي عليه السلام، هذا بالإضافة إلى حديث المؤاخاة بين المهاجرين والأنصار في المدينة المنورة، عندما أعلن الرسول

للجميع أن عليًا عليه السلام «أخي في الدنيا والآخرة»،ولا يمكن أن ننسى هنا حديث إبلاغ البراءة، الوارد في الآيات الأولى من سورة التوبة، والتي فضّل فيها علي عليه السلام على أبي بكر في مسألة إبلاغ البراءة، وكذلك حديث المباهلة بين الرسول صلى الله عليه وآله وسلم ونصارى نجران، الذي ذكرته الآيات (٥٩– ٦١) من سورة آل عمران، الذي جعل فيه الرسول نفس علي عليه السلام بمنزلة نفسه، وفي ختام تلك الوقائع حديث الغدير في سنة ١٠ للهجرة، وذلك بعد حجة الوداع، عندما أراد الرسول الرجوع إلى المدينة المنورة وفي موقع يقال له غدير خم، وهذا الموقع ليس بعيدًا عن مكة المكرمة، نزلت الآية الكريمة الآتية ﴿**يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ**﴾[١]. وواضح من ذيل الآية الكريمة أهمية هذا الأمر الإلهي، وكيف أن الآية خاطبت الرسول صلى الله عليه وآله وسلم بعبارة ﴿**وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ**﴾ أي يحفظك ويرعاك. فأمر الرسول بجمع المسلمين، وأبلغهم ذلك الأمر الإلهي على لسان الوحي، وكان عدد الحاضرين يقدر بمائة ألف نفر في ذلك المكان، وكان الجو فيها حارًّا جدًا، فوقف صلى الله عليه وآله وسلم على مكان مرتفع، وحمد الله وأثنى عليه، ونادى عليًا عليه السلام وأخذ بيده ورفعها وقال: «أيها الناس..من كنت مولاه فعلي مولاه..اللهم وال من والاه وعاد من عاداه...»، وبعد أن انتهت الخطبة أخذ الصحابة والمسلمون يبايعون علي عليه السلام، وفي هذا المقام طلب الشاعر حسان بن ثابت من الرسول أن يأذن له بإلقاء قصيدة شعرية بهذه المناسبة فأذن له الرسول، وكان مطلعها:

يناديهم يوم الغدير نبيهم
بخمّ فاسمع بالرسول مناديًا[٢]

---

(١) المائدة، الآية ٦٧.

(٢) الغدير، العلامة الأميني، الجزء الأول، صفحة١١.

لو تركوا الرسول ﷺ يكتب وصيته

مرض الرسول ﷺ بعد عودته من الحج ولازم الفراش، وعندما وصلت الأخبار عن وجود نوايا للروم بالهجوم على حدود الدولة الإسلامية، أمر الرسول بتجهيز جيش لصد ذلك العدوان وانتخب له قائدًا شابًا اسمه (أسامة بن زيد) وسلمه ﷺ الراية بنفسه، وبحضور كبار الصحابة من أمثال: أبي بكر وعمر وأبو عبيدة وسعد بن أبي وقاص وغيرهم، ووضعهم تحت قيادته، وقد اتخذ أسامة من منطقة (جُرف) معسكرًا لتدريب وإعداد المجاهدين، وفي خلال تلك الأحداث بدأت بعض الأيادي تعمل خلف الستار وذلك عن طريق بث الإشاعات والشكوك بمشروع حملة أسامة بن زيد، وإثارة التساؤلات عن سبب ترجيح الرسول لهذا الشاب على باقي الصحابة الكبار، وفي الحقيقة أن هذه الشكوك كانت تعبّر بصدق عن النفس الجاهلية والقيم الجاهلية والقبلية التي كانت سائدة قبل ظهور الإسلام، والتي كانت تؤكد على ضرورة كون القائد أو الرئيس يجب أن يكون كبير السن، أما مسألة العلم والتقوى فتأتي في المرتبة الثانية أو الثالثة، في بداية الأمر واجه بعض الصحابة تلك الدسائس لكونه ﷺ كان مريضًا، وعندما وصلت الأمور إلى طريق مسدود اضطر الرسول ﷺ أن يترك فراش المرض ويذهب إلى المسجد لإلقاء خطبة يوضح فيها مسار الأحداث، وبعد أن حمد الله وأثنى عليه قال: «أيها الناس.. قد بلغني أن أقوامًا يقولون في إمارة أسامة، ولعمري لإن قالوا في إمارته، لقد قالوا في إمارة أبيه من قبله، وإن كان أبوه لخليقًا للإمارة وإنه لخليق لها، فأنفذوا بعث أسامة»، ونزل ﷺ من على المنبر وعاد إلى فراشه، وكان يقول لكل من زاره: «أنفذوا بعث أسامة، لعن الله من تخلف عن جيش أسامة»، وعندما

اشتد به المرض بسبب تأثره من الذين أخذوا يقدمون الأعذار بعدم قدرتهم على المشاركة بجيش أسامة، وجاءت مجموعة من تلك الثلة المتخاذلة من الصحابة لعيادته، فنظر ﷺ بوجوههم نظرة عميقة، ثم أطرق برأسه قليلًا ثم رفع رأسه ونظر إليهم ثانية فعم الهدوء والصمت أنحاء المجلس، وأخذت تلك اللحظات تمر ببطء وثقل،الى أن تحركت شفتاه ﷺ وقال: «ايتوني بدواة وكتف لأكتب لكم كتابًا لا تضلوا بعده أبدًا» فعمت الحاضرين الحيرة والدهشة فقال عمر ابن الخطاب وبدون تردد: «إن النبي قد غلب عليه الوجع وعندكم القرآن حسبنا كتاب الله»،وعلى أثر كلام عمر اختلف الحاضرون حول الوصية، وقال بعضهم لا بد من إجراء وصية رسول الله، وأما عمر ومن سايره فقاموا بالرد عليهم وعلى أثر ذلك اختلفوا وكثر اللغط في محضر النبي، حتى قالت بعض نساء النبي اللاتي شهدن المجلس: «ائتوا رسول الله بحاجته» فقال لهن عمر: «اسكتن فإنكن صواحبه إذا مرض عصرتَكن أعينكنَ وإذا صحَّ أخذتنَّ بعنقه»، فخجلن وسكتن فكثر اللغو والاختلاف، فقال الرسول: «قوموا عني»، فطلب منهم عمر الإسراع بالخروج من عند رسول الله.

بدعة: لأجل الإسلام منعت ذلك

وهكذا أفسد بعض الصحابة الذين يجهلون حقيقة الإسلام ما أراد الرسول أن يوصي به بخصوص استمرار خط النبوة في ولاية عليّ عليه السلام وإقامة صرح العدالة بين أفراد المجتمع الإسلامي، وقد بكى ابن عباس بكاء شديدًا على ما جرى من أحداث (يوم الخميس)، ذلك اليوم الذي حال بعض الصحابة بين الرسول وكتابة وصيته وقال: «الرزية

كل الرزية ما حال بين رسول الله وبين أن يكتب لهم ذلك الكتاب من اختلافهم ولغطهم». وقد تحدث عمر أيام خلافته عن موضوع امتناع الرسول عن كتابة وصيته لعلي عليه السلام، ونقل ابن أبي الحديد عن كتاب تاريخ بغداد أن ابن عباس قال: «دخلت على عمر في أول خلافته وقد ألي له صاعٌ من تمر على خصفة، فدعاني إلى الأكل، فأكلت تمرة واحدة وأقبل يأكل حتى أتى عليه، ثم شرب من جر كان عنده، واستلقى على مرفقة له وطفق يحمد الله ويكرر ذلك، ثم قال: من أين جئت يا عبد الله؟ قلت من المسجد، قال: كيف خلّفت ابن عمك؟ فظننته يعني عبد الله بن جعفر، قلت: خلفته يلعب مع أترابه، قال: لم أعن ذلك، إنما عنيت عظيمكم أهل البيت، قلت: خلّفته يمتح بالغرب على نخيلات من فلان، وهو يقرأ القرآن، قال: يا عبد الله، عليك دماء البدن أن كتمتينها؟ هل بقي في نفسه شيء من أمر الخلافة؟ قلت: نعم، أيزعم أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في أمره ذرء من قول لا يثبت حجة، ولا يقطع عذرًا، ولقد كان يربع في أمره وقتًا ما، ولقد أراد في مرضه أن يصرّح باسمه، فمنعت من ذلك إشفاقًا وحيطة على الإسلام، ولا ورب هذه البنيّة لا تجتمع عليه قريش أبدًا، ولو وليها لانتفضت عليه العرب أقطارها، فعلم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أني علمت ما في نفسه فأمسك وأبى الله إلا إمضاء ما حتم»[١].

(١) ابن أبي حديد، شـرح نهج البلاغة، الجزء ١٢، الصفحة ٢١. ونقله عن شرح النهج تاريخ تحول الدولة والخلافة، رسـول جعفريان، صفحة٧٢. / اتقوا الله، محمد التيجاني السماوي، صفحة ٣٤، ترجمة لطيف راشدي.

فتنة الخواص عندما كان الرسول ملقيًا على الأرض

في اليوم الذي خرج فيه الرسول ﷺ عائدًا من المسجد متكئًا على ساعد علي عليه السلام والفضل بن العباس، قامت عائشة بإعداد فراش النبي في بيتها لتتولى تعليله، وسألت أزواج النبي في ذلك فإذنّ لها، وكانت الدوافع التي أدّت بعائشة للقيام بهذا العمل هو منع الرسول من الذهاب إلى بيت فاطمة عليها السلام، ولكي تكون على علم بمجريات الأحداث، ولما اشتد به المرض ﷺ قال: «ابعثوا إلى علي فادعوه»،فقالت عائشة: «لو بعثت إلى أبي بكر»، وقالت حفصة: «لو بعثت إلى عمر»، فاجتمعوا عنده جميعًا، فقال رسول الله: «انصرفوا فإن تك لي حاجة أبعث إليكم»، فانصرفوا وظلّ بيت النبي على هذه الحالة من عدم الاستقرار حتى حانت وفاته، وعندما غلب الوجع على النبي ذهب عمر إلى معسكر جيش أسامة في خارج المدينة المنورة وطلب من أبي بكر ترك جيش أسامة والعودة إلى المدينة، ويكون عمر بعمله هذا قد خالف أوامر ووصايا الرسول في تجهيز جيش أسامة، ولم يكتف بذلك، بل كان له الدور الفاعل في وضع الخطة السياسية لنشاط قريش في المدينة في بداية رحلته ﷺ إلى الرفيق الأعلى، وقد أشار النبي في أواخر أيام حياته إلى الفتن والاضطرابات التي ستثيرها مجموعة من الخواص في المدينة، وما أن توفي الرسول وعرجت روحه الطاهرة إلى الرفيق الأعلى، بدأت المرحلة الفعلية لتنفيذ تلك المؤامرات التي حيكت خلف الستار ضد أهل البيت عليهم السلام، فبينما كان الهاشميون وجمع كثير من المؤمنين جالسين حول الجثمان الطاهر للنبي ﷺ، ذهب عمر وأبو عبيدة الجراح إلى المسجد لغرض الاتفاق حول موضوع الخلافة، فاقترح عمر على أبي عبيدة أن يكون الخليفة بعد النبي أبو بكر، لأنه يحمل كثير من الصفات التي تؤهله لهذا المنصب،

وعندما سمع الأنصار بذلك أسرعوا الى(سقيفة بني ساعدة) لغرض تثبيت أحقيتهم بالخلافة، والمشاركة في صنع القرار السياسي، والتقى عمر وأبو بكر وأبو عبيدة مع الأنصار في السقيفة، وحدث الجدال فيما بينهم حول أحقيّة كل طرف بالخلافة فقال أبو بكر: «نحن المهاجرون أول الناس إسلامًا، وأمسهم برسول الله رحمًا، أن العرب لا تدين إلاّ لهذا الحي من قريش فلا تنفسوا على إخوانكم المهاجرين ما فضلهم الله به»، وعقّب عمر على كلام أبي بكر وقال: «من ذا ينازعنا سلطان محمد وإمارته ونحن أولياؤه وعشيرته، إلّا مدل بباطل أو متجاف لاثم متورط في هلكة»،ثم بعد ذلك أعلن عمر وأبو عبيدة بيعتهم لأبي بكر،وحدثت كل تلك الملابسات وبنو هاشم وكثير من الصحابة من المهاجرين والأنصار لم يكونوا حاضرين، ولم يشتركوا في هذه البيعة المزيفة لأنهم كانوا مشغولين بتجهيز الرسول ﷺ، فلما أخبروهم بما جرى في السقيفة احتج بنو هاشم وعدد آخر من الصحابة أمثال سلمان الفارسي، أبو ذر الغفاري، عمار بن ياسر، والمقداد على تلك القرارات، لأنهم كانوا يعلمون أحقيّة أهل البيت عليهم السلام بهذا الأمر، وعلى إثر ذلك تجمعوا في حي (بني بياضة) لغرض الإعلان عن وصايا رسول الله بخصوص خلافة علي، أما الطرف الآخر وهم أبي بكر وجماعته فقد جاؤوا صباح اليوم التالي إلى المسجد وجددوا البيعة لأبي بكر، وقد جرت كل هذه الأحداث وعلي عليه السلام بعيد عن ساحة الصراع مشغول بتجهيز الرسول ﷺ، وبينما كان العباس عم النبي وعلي مشغولان بتكفين النبي ﷺ، قال العباس لعلي عليه السلام: «أمدد يدك أبايعك فيقال عم رسول الله بايع ابن عم رسول الله فلا يختلف عليك اثنان»،فقال له علي: «يا عم نحن الآن مشغولون بتجهيز الرسول»، وفي مثل تلك اللحظات لم يكن الإمام عليه السلام يفكر بالخلافة بقدر ما كان يفكر بتجهيز الرسول ودفنه.

وقد أشار الرواة إلى أن أبا سفيان وقف موقف المتحمس لعلي عليه السلام، وأخذ يتهدد ويتوعد ويقول: «والله لأملأنّها عليهم خيلًا ورجالًا»، ولم يكن ليخفى على علي عليه السلام أن ذلك كان منه مقصد الوقيعة بين المسلمين وإشعال الفتنة ليتاح له ولأمثاله ممن أسرّوا الشرك والنفاق أن يصلوا لأهدافهم المعادية للإسلام. وما أن أكمل علي عليه السلام تجهيز الرسول وتكفينه وإيداعه في قبره الشريف حتى استعد لشرب كأس المرارة على أيدي بعض الخواص من الذين تحجرت عقولهم وأعمى حب الدنيا قلوبهم، وقد وقف بعض الصحابة إلى جانب عليّ عليه السلام في تلك المحنة ولم يشتركوا في بيعة أبي بكر.

وبعد مرور عدة أيام على تلك البيعة المرتجلة احتجَّ عليه السلام على الأنصار بأحقيته بالخلافة، وكونه أخو الرسول صلى الله عليه وآله وسلم وقد أوصى به في كثير من المواقع وشاركته زوجته فاطمة عليها السلام، وأخذت تطالب بحق زوجها حتى أثارت بعض النفوس وألهبت المشاعر وندم كثير منهم على موقفهم المتخاذل من عليّ عليه السلام، فأخذوا يتسللون إلى دار علي ويتكتلون ضد الحكم القائم ويتداولون فيما يجب أن يكون، فأحس أبو بكر وأنصاره بالخطر فتشاور مع عمر وأبو عبيدة فقال أبو عبيدة له: «للمغيرة بن شعبة رأي في هذا الأمر» فأرسل إليه أبو بكر وأحضره وطلب منه المساهمة في حل النزاع الدائر بينه وبين الصحابة الذين رفضوا بيعته فقال له المغيرة: «لا بد من إيجاد الفُرقة فيما بينهم حتى تتشتت كلمتهم». وفي الواقع لا بد أن نتساءل لماذا لم ينصاع أبو بكر إلى الحق وسعى لإيجاد التفرقة بين أهل البيت عليهم السلام وبين المؤمنين؟

والشيء المثير للعجب هو أن المغيرة بن شعبة كان من صحابة

الرسول ﷺ، ومن الذين سمعوا وصايا رسول الله وأحاديثه ومن أبرزها حديث الغدير، ثم سأل أبو بكر المغيرة ثانية وقال: «كيف أفرق جمعهم؟»، فقال له المغيرة: «أرى أن تلقوا العباس فتطعموه في أن يكون له في هذا الأمر نصيب، فتقطعوه بذلك عن ابن أخيه علي بن أبي طالب، فإن العباس لو صار معكم كانت الحجّة على الناس، وهان عليكم أمر علي بن أبي طالب وحده».قبل أبي بكر رأي المغيرة وذهب إلى العباس، وبعد مقدمات قال له أبو بكر: «جئناك ونحن نريد أن نجعل لك في هذا الأمر نصيبًا ولعقبك من بعدك»،فرد عليه العباس موبخًا وقال له: «إن الله بعث محمدًا نبيا وللمؤمنين وليًا، فإن كنت برسول الله طلبت هذا الأمر فحقًا أخذت، وإن كنت بالمؤمنين طلبت فنحن منهم، ما تقدم رأينا في أمرك ولا شَورنا، ولا نحب لك ذلك إذ كنا من المؤمنين، وكنا لك كارهين»،فخرج أبو بكر من بيت العباس بن عبد المطلب يائسًا، ولغرض إيجاد التفرقة بين الصحابة الذين يؤيدون أهل البيت عليهم السلام ،قصد أبو بكر في اليوم التالي بيت علي عليه السلام برفقة عمر وأبي عبيدة، فوجدوا في بيت الإمام عليه السلام مجموعة من كبار الصحابة أمثال سلمان وعمار وأبو ذر وغيرهم من الذين رفضوا وبشكل قاطع بيعة أبي بكر، فدخلوا دار الإمام عليه السلام وقال أبو بكر: «ابن عم الرسول وزوج ابنته يريد إيجاد الفرقة بين صفوة المسلمين»، والعجيب من أبي بكر أنه يتهم الآخرين بالفرقة وقد تناسى أنه أول من شق عصا المسلمين بذهابه للتشاور مع جماعته بأمر الخلافة وسعى لحياكة المؤامرات خلف الستار. فقال العباس وقد كان حاضرًا في ذلك المجلس: «ليس هناك أحد أفضل من عليّ وأجدر بخلافة رسول الله»، وقال لهم علي عليه السلام : «أنا أحق بهذا الأمر، وأنتم أولى بالبيعة لي، أنا أولى برسول الله حيًّا وميتًا، فعلام تنازعونا هذا الأمر؟»، فقال

عمر لعلي عليه السلام: «إنك لست متروكًا حتى تبايع طوعًا أو كرهًا»، فردّ عليه السلام: «احلب حلبًا لك شطره، اشدد له اليوم ليرد عليك غدًا». فقام أبو عبيدة إلى علي عليه السلام فقال: «يا ابن عم الرسول لسنا ندفع قرابتك ولا سابقتك ولا علمك ولا نصرتك، ولكنك حدث السن وأبو بكر شيخ من مشايخ قومك، وهو أحمل لثقل هذا الأمر»، فقال له الإمام: «أنت أعلم أم رسول الله؟» فقال: «حتمًا رسول الله أعلم»، فقال له الإمام عليه السلام: «لقد أمَّر رسول الله أسامة بن زيد على كبار الصحابة وكان عمره ثمانية عشرة سنة»، فسكت وطأطأ برأسه لكنه لم يستسلم للحق.

وهكذا بقي عليه السلام ملازمًا لبيته يعاني من العزلة والغربة لا ناصر له سوى فاطمة عليها السلام وبعض الصحابة، وقد تكالب عليه الجميع فأصبح بين فريقين، الأول متجاهل لحقه والثاني منافق حاسد، وظل عليّ وفاطمة عليهما السلام يقصدان بيوت الأنصار يسألونهم النصرة فكانوا يقولون لفاطمة عليها السلام: «يا بنت رسول الله قد مضت بيعتنا لهذا الرجل- يعني أبي بكر- ولو أن زوجك وابن عمك سبق إلينا قبل أبي بكر ما عدلنا به»، فيقول الإمام عليه السلام لهم: «أفكنت ادع رسول الله في بيته ولا أدفنه وأخرج أنازع الناس سلطانه؟» فقالت فاطمة: «ما صنع ابو الحسن إلّا ما كان ينبغي له، ولقد صنعوا ما الله حسيبهم وطالبهم».

نعم لقد أدّى عليه السلام واجبه تجاه النبي من التجهيز والتغسيل والدفن، لكن الآخرين وللأسف الشديد استغلوا انشغاله فقاموا بالاستيلاء على الخلافة وسرقتها ومنعوا حقه منها، وقد كان لذلك العمل الجبان آثارًا سلبية ستبقى في سجل التاريخ ما بقي الليل

والنهار.وفي هذا المجال ننقل هذا المقطع من إحدى خطب نهج البلاغة لأمير الكلام: «حتى إذا قبض الله رسوله ﷺ، رجع قوم على الأعقاب، وغالتهم السبل، واتكلوا على الولائج، ووصلوا غير الرحم وهجروا السبب الذي أمروا بمودته، ونقلوا البناء عن رص أساسه، فبنوه في غير موضعه،معادن كل خطيئة وأبواب كل ضارب في غمرة،قد ماروا في الحيرة وذهلوا في السّكرة»[١].

لو كان عندي أربعون رجلًا لنهضت بهم

بعد أن انتهت معركة صفين، نظر عليّ عليه السلام إلى من تبقى من أصحاب الرسول الذين بقوا معه وأخذت الأفكار والتكهنات تجول في ذهنه، فكيف أنكروا حقه في الخلافة؟ وكيف تركوه يحترق في هذه الغربة والوحشة؟ كيف انقلبت الأمور بمجرد رحيل النبي؟ وكيف يكون هو مقابل أحد أبناء الطلقاء الذين عفا عنهم رسول الله ﷺ بعد فتح مكة؟ كل هذه الويلات والمصائب حدثت منذ يوم أعرض بعض كبار الصحابة عما أوصى به رسول الله يوم الغدير، وما حدث بعد هذا اليوم من العجائب والغرائب في السقيفة من انتخاب أبي بكر، لقد جاءت كل هذه الأحداث كنتيجة لأعراض بعض الصحابة وانسياقهم وراء هؤلاء. ولو فرضنا أن هؤلاء لم يقوموا بالتآمر على الحكم والخلافة لانقاد باقي الصحابة لأمر الرسول ﷺ، ولم يفسح المجال للفتنة أن تقع، ولكان ذلك تسجيلًا منهم لموقف لا ينساه التاريخ.

ألم يكن عمر حاضرًا في يوم الغدير؟ ألم يكن يعلم بمنزلة أهل

(١) نهج البلاغة، الخطبة ١٥٠.

البيت عليهم السلام ومنزلة فاطمة عليها السلام ؟ فكيف يسمح لنفسه أن يقف بباب دار علي وينادي: «والذي نفس عمر بيده ليخرجن أو لأحرقنّه على ما فيه» فقيل لعمر: «إن في الدار فاطمة بنت رسول الله»، فردّ عليهم وبدون تحرّج: «وليكن». فضرب عمر الباب برجله فكسره ثم دخل، فارتفع صوت الزهراء عليها السلام مستغيثة برسول الله: «يا أبه، يا رسول الله»، فغضب عليه السلام غضبًا شديدًا ووضع يده على مقبض سيفه ليلقنهم درسًا ثم رفع يده عن سيفه وعاد الهدوء إليه رويدًا رويدًا وأخذ يناجي روح الرسول ويقول: «يا ابن أم، إن القوم استضعفوني وكادوا يقتلونني» ثم نظر إلى الزهراء عليها السلام وقال: «إن أتمّوا أربعين فجاهدهم».

إذن من حقنا أن نسأل هؤلاء ما هي الأسباب التي جعلتكم تعرضون عن الحق؟

الشورى التي منحت الحق إلى غير أهله

ابتدع عمر بن الخطاب قبل وفاته بتعيين ستة من الصحابة سماهم أصحاب الشورى وهم: عليّ عليه السلام، سعد بن أبي وقاص، الزبير، طلحة بن عبد الله، وعبد الرحمن بن عوف وعثمان ابن عفّان. وقد وضع عمر لهذه المجموعة ضوابط صارمة ألزم الجميع التقيد بها ومن جملة تلك الضوابط أن يكون عبد الرحمن بن عوف رئيسًا لهذه الشورى، وأن تجتمع في مكان معين بحراسة خمسين نفرًا من الأنصار ويقومون بانتخاب واحد من بينهم. ولو فرضنا قام خمسة منهم بانتخاب واحد وقام الشخص السادس بمخالفة ذلك فستكون عقوبته القتل، وإذا أصبحوا ثلاثة مقابل اثنين فلا بد من قتل الاثنين، وإذا

أصبحوا ثلاثة مقابل ثلاثة فيجب عليم الخضوع إلى تحكيم عبد الله بن عمر، وفي حالة عدم الاتفاق على رأيه تكون المجموعة التي فيها عبد الرحمن القتل المحقق.وبهذه الطريقة استطاع عمر أن يوحي للجميع بأن الخلافة لا بد أن تكون لعثمان.

وفي تحليل لعلي عليه السلام لمسرحية الشورى التي وضعها عمر قال عليه السلام لابن عباس: «أولا تعلم أن عبد الرحمن ابن عم سعد بن أبي وقاص وأن عثمان صهر عبد الرحمن؟» قال بلى قال: «فإن عمر قد علم أن سعد وعبد الرحمن وعثمان لا يختلفون في الرأي، وأنه من بويع منهم كان الاثنان معه، ولم يبال أن يقتل طلحة إذا قتلني وقتل الزبير، أما والله لئن عاش عمر لأعرفنّه سوء رأيه فينا قديمًا وحديثًا، ولإن مات ليجمعني وإياه يوم يكون فيه فصل الخطاب».

والعجيب من عمر أنه هو نفسه من رواة حديث الغدير، وهو أول من حال بين الرسول صلى الله عليه وآله وبين أن يكتب وصيته في خلافة عليّ عليه السلام ، وقد كان عمر آخر أيام حياته يكرر هذا القول: «لو كان أبو عبيدة حيا لاستخلفته».

بمن أقاتلهم؟

قام أعضاء الشورى برئاسة عبد الرحمن بن عوف لمدة ثلاثة أيام بمشاورة رؤساء القبائل والأشراف وقادة الجيش وأهل الحل والعقد بخصوص أمر الخلافة، ثم بعد ذلك اجتمعوا في المسجد صباحًا، وبحضور جمع من الأنصار والمهاجرين قال عبد الرحمن بن عوف: «إني قد نظرت وشاورت الناس، فإذا هم لا يعدلون بعثمان». فصاح عمار بن ياسر: «إن أردت ألا يختلف الناس فبايع علياً عليه السلام »، ثم قال

المقداد بن الأسود: «صدق عمار، إن بايعت عليًا عليه السلام قلنا سمعًا وطاعة» وفي خلال ذلك قال عبد الله بن أبي السرح[١]: «إن أردت ألا يختلف قريش فبايع عثمان»، فاضطرب المجلس فقام لهم عمار بن ياسر وقال: «أيها الناس! إن الله أكرمنا بنبيه فأنّى تصرفون هذا الأمر عن أهل بيت نبيكم؟»، ثم قال المقداد: «إني لأعجب من قريش أنهم تركوا رجلًا ما أقول ولا أعلم أن أحدًا أقضى بالحق ولا أعلم ولا أتقى منه، أما والله لو أجد أعوانًا عليه لقاتلتهم».وفي خلال ذلك صاح عبد الله ابن سعد بعمار وقال: «لقد عدوت طورك يا بن سمية، وما أنت وتأمير قريش لأنفسها»، وقال عمار بن واثلة: «كنت في البيت يوم الشورى وسمعت عليًا عليه السلام وهو يقول: إلّا أن عمر جعلني مع خمسة أنا سادسهم لا يعرف عليّ فضل، ولو أشاء لاحتججت عليهم بما لا يستطيع، عربيّهم ولا عجميّهم، المعاهد منهم والمشرك، تغيير ذلك»، ثم قال: «أنشدكم الله، أيها النفر هل فيكم احد وحّد الله قبلي؟»، قالوا: «اللهمّ لا»،قال: «أنشدكم الله هل فيكم أحد له أخ مثل أخي جعفر المزيّن بالجناحين في الجنة يحلق فيها حيث يشاء غيري؟»، قالوا: «اللهمّ لا»،قال: «أنشدكم الله، هل فيكم احد له عم مثلي عمّي حمزة أسد الله وأسد رسوله وسيد الشهداء غيري؟»، قالوا: «اللهمّ لا»،قال: «أنشدكم الله، هل فيكم أحد له زوجة مثل زوجتي فاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، وبضعة منه وسيدة نساء أهل الجنة غيري؟»، قالوا: «اللهمّ لا»، ثمّ قال: «أنشدكم الله، هل فيكم أحد له سبطان مثل سبطي الحسن والحسين ابني رسول الله وسيدي شباب أهل الجنة غيري؟»، قالوا: «اللهمّ لا»، فقال: «أنشدكم الله،

(١) أخ عثمان ابن عفّان في الرضاعة، وكان رسول الله قد أهدر دمه أيام الفتح.

هل فيكم أحد قدّم بين يدي نجواه صدقة غيري؟»، قالوا: «اللهمّ لا»،قال: «أنشدكم الله، هل فيكم أحد قال فيه رسول الله: «من كنت مولاه فعلي مولاه، اللهم ّ وال من والاه وعاد من عاداه وانصر من نصره ليبلغ الشاهد الغائب؟» وبعضهم نقلها: «هل فيكم أحد نصّبه رسول الله يوم غدير خمّ بأمر الله؟»[١].

وفي مقابل تلك الفضائل التي ذكرها وذكّرهم بها الإمام عليه السلام لم يستطع عبد الرحمن ابن عوف أن يعترض بشكل علني، فالتجأ إلى المكر والخداع لأنه كان يعلم أفضليّة الإمام ومنزلته من رسول الله، ولا يمكن لأحد أن يضع آراءه الشخصيّة مقابل كتاب الله والسنة المطهرة، فقال لعلي عليه السلام: «عليك عهد الله وميثاقه لتعملنّ بكتاب الله وسنّة رسوله، وسيرة الخليفتين من بعده».

وعندما وضع عبد الرحمن سيرة أبي بكر وعمر في مقابل كتاب الله وسنّة نبيه، يكون قد أفرغ آخر ما في جُعبته من الحقد على جبهة الحق وأمامها، لأنه كان يعلم جيدًا مدى التزام الإمام عليه السلام بالشرع المقدس، وبهذه الخدعة استطاع عبد الرحمن وجماعته من حرف الناس عن محور الحق والعدالة، وهكذا بقي الإمام عليه السلام وحيداً غريبًا مغصوبًا حقه، يكاد قلبه يتقطع مما عاناه من هؤلاء وأمثالهم خلال مدة ٣٦ سنة من بعثة النبي الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم، وما جرى خلالها منذ الحصار في شعب أبي طالب والهجرة وما جرى من مواقفه في بدر وفي غزوة أحد عندما فرّ بعضهم طلبًا للسلامة والحصول على الغنائم، وخيانتهم يوم

(١) حديث عليّ عليه السلام يوم الشورى، نقله العلّامة الأميني في المجلد الثاني من كتابه (الغدير) مع شرح وافٍ لأسانيد هذا الحديث من الفريقين.

السقيفة ومخالفتهم الصريحة لوصايا النبي ﷺ إلى تزييفهم الحقائق في يوم الشورى، ويعرف جيدًا أنه تحملها وسكت عنها حفاظًا على مصلحة الإسلام والمسلمين.

وأصر عليه السلام على رفض سيرة الشيخين ورد على عبد الرحمن قائلًا: «بل على كتاب الله وسنة رسوله ﷺ واجتهاد رأيي»، فعدل عنه إلى عثمان فعرض ذلك عليه فقال: «نعم»، فقال عبد الرحمن لعلي عليه السلام: «يا علي لا تجعلن على نفسك سبيلًا (أي القتل)».

فأحسّ عليه السلام بالضيق والهم، وكأنما تراكمت في صدره جبال من الغمّ والحزن ولسان حاله يقول: «عجب من هذه الدنيا كيف تعز قومًا وتذل آخرين»، فما هو السبب الذي يجعل عبد الرحمن يتكلم مع الإمام عليه السلام بهذه الصورة وبهذه اللهجة؟ في الحقيقة إن الذي مكّن عبد الرحمن وأمثاله أن يقفوا مع الإمام عليه السلام مواقف مخزية كان بسبب سكوت بعض الصحابة الخواص عن إظهار الحق بسبب ركونهم إلى الدنيا، بعد ذلك سأل عمار بن ياسر والمقداد الإمام عليه السلام عن مدى استعداده لخوض حرب مع هؤلاء، فنظر إليهما الإمام عليه السلام نظرة عميقة وأجاب بحزن: «بمن أقاتلهم؟».

وهكذا تم ما أرادوه في مسرحية الشورى في إبعاد الإمام علي عن استلام مقاليد الأمور تمهيدًا لوقوعها بيد عثمان، بالرغم من أن الجميع كان يعلم بأن الحق لمن ومع من، لكن الإقرار يحتاج إلى قلوب نظيفة خالية من وساوس الشيطان، وللأسف كانوا لا يمتلكون مثل هذه القلوب لأن قلوبهم مريضة فزادهم الله مرضًا.

عائشة وماء الحوأب

بعد أن تمت واستتبّت الأمور لعثمان بدأت مرحلة جديدة من الاختلافات والشقاق بين أفراد الأمة، وبدأت الأفكار الجاهلية تدب فيما بينهم وتحوّل الدين شيئًا فشيئًا إلى بضاعة للكسب والحصول على المنافع المادية الدنيوية،وقد تنبأ الرسول ﷺ بهذه الأحداث قبل وفاته، عندما كان جالسًا يوم من الأيام في البيت مع عائشة وبحضور بعض أزواجه فقال: «كأني بإحداكن قد نبحها كلاب الحوأب» ثم نظر إلى عائشة وقال لها: «وإياك أن تكوني أنت يا حميراء»، وأخذت تنظر كل واحدة منهن للأخرى نظرة تعجب واستنكار عندما سمعن كلام النبي، وأخذن يستنكرن تلك المرأة التي تحدث عنها، وظلت تلك الكلمات منقوشة في ذهن عائشة وبعض نساء النبي ولكن هذه الكلمات وبمرور السنين تغطت بشيء من السحاب بسبب الإهمال والنسيان، وبعد أن مرّت ٢٥ سنة مليئة بحوادث الانتصار والانكسار، بدأت بوادر ذلك الكلام بالتحقق عندما مرت قافلة مكونة من ٦٠٠ رجل على مقربة من بيت الله الحرام متجهة إلى البصرة وفيها عائشة وفي الطريق انتهوا إلى ماء الحوأب، فنبحها كلاب الحوأب فقالت عائشة: «ما أراني إلا راجعة»، فقيل لها: «ولِمَ ذلك؟» فقالت: «لأني سمعت رسول الله وهو يقول كأني بامرأة من نسائي تنبح عليها كلاب الحوأب، فاتقي الله أن تكوني أنت». ونزل القوم هناك، فلما أصبحا إذا بعبد الله ابن الزبير وقد أتى بخمسين رجلًا يشهدون عندها أن هذا الماء ليس بماء الحوأب وأنهم قد جازوا ماء الحوأب بليل، فكانت هذه الشهادة أو شهادة زور شهد بها في الإسلام. وتحرك الجيش نحو البصرة بوجود عائشة، ووقعت تلك الفتنة الكبرى التي حذّر الرسول زوجته منها منذ سنين ليست ببعيدة. ومن الحق أن نقول

لو أن الخواص الذين رافقوا عائشة انصاعوا للحق عند وصولهم إلى الحوأب ورجعوا مع زوج النبي إلى المدينة في ظل ولي أمرهم الإمام علي عليه السلام لكانوا قد سجلوا موقفًا تاريخيًا لا يمكن أن ينسى.

الخواص الواعون الصامتون

لقد حارب الإمام علي عليه السلام خلال فترة حكمه ثلاث مجاميع من المعارضين له، وكما عرفناهم تاريخيًا هم: القاسطون والناكثون والمارقون.

فالقاسطون هم الذين نقضوا العهود التي قطعوها للإمام عليّ عليه السلام بعد البيعة لعدم حصولهم على المناصب التي كانوا يسعون للحصول عليها من حكومة الإمام، وفي النهاية ذهبوا إلى مكة برفقة عائشة ومن هناك توجهوا إلى البصرة، ونتيجة لما قاموا به من هتك للحرمات هناك حاربهم الإمام عليه السلام وهزمهم في الواقعة المشهورة بحرب الجمل. أما **الناكثون** فهم المتمردون في الشام برئاسة معاوية الذي ولّاه عمر قيادة الجيش، ثم أخذ بتقوية مركزه هناك في زمن عثمان، وبعد وفاته بقي معاوية متمسكًا بالشام بخلاف كل الطلبات التي وجهت إليه بترك الشام والتوجه إلى مقر الخلافة، ولم يكتف بذلك بل أخذ يَعد العِدة لإسقاط الحكومة الإسلامية في زمن عليّ عليه السلام مما اضطر الإمام إلى محاربته في صفين. أما المجموعة الثالثة التي عادت الإمام عليه السلام فهي **الخوارج**، الذين يطلق عليهم اسم **المارقين**، وهم الذين خرجوا عن الإمام عليه السلام بعد التحكيم الذي قام به أبو موسى الأشعري وعمرو بن العاص بعد توقف الحرب بين جيش الإمام وجيش معاوية، مستندين في ذلك على الحجج الواهية، وقد

تحدث عليّ عليه السلام للناس عما تنبأ به رسول الله وقال لهم: «قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لي: ستقاتل الناكثين والقاسطين والمارقين».

بالإضافة إلى تلك المجاميع الثلاث وما عاناه منها عليّ عليه السلام كانت هناك مجموعة رابعة وهي من خواص المسلمين، وهم الذين كانوا على يقين من أن عليًا عليه السلام مع الحق وأعداؤه مع الباطل، لكنهم مع الأسف الشديد التزموا الصمت ولم ينصروا الإمام، وقد نعتهم التاريخ باسم **القاعدين**، وكان مركز ثقلهم في المدينة المنورة التي كانت مليئة بالفتن والاضطرابات، وقد تبيّن عليه السلام في بداية خلافته تلك الأوضاع في إحدى كلماته وقال ستكون حبلى بالأحداث. وبعض من القاعدين امتنعوا عن بيعة الإمام عليه السلام وبعض منهم اشترطوا في بيعتهم للإمام أن تكون متوقفة على بيعة جميع المسلمين، وبعضهم بايع الإمام في بداية خلافته لكنهم لم يشتركوا في حرب مع الإمام عليه السلام وكما سماهم الإمام بجليس الدار.

جميع هؤلاء كانوا من أسباب الفتنة، لأنهم أصبحوا على الدوام يمنعون الناس من الالتفاف حول قيادة الإمام عليه السلام ، وكان على رأس هذه المجموعة سعد بن أبي وقاص، أبو سعيد الخدري، ابو موسى الأشعري، عبد الله بن عمر، محمد بن سلمة وأبو مسعود الأنصاري. ومن الملفت للنظر أن سعد بن أبي وقاص وأبو سعيد الخدري كانا من الذين رووا الأحاديث والروايات التي تتكلم في شأن آية التطهير التي نزلت بحق الرسول صلى الله عليه وآله وسلم وآل بيته عليهم السلام ، والغريب أنهم يعتبرون عليًا عليه السلام مثيرًا للفتن والحروب وفي نفس الوقت يروون أحاديث في شأنه، وأنه مطهّر من الرجس ومصون عن الخطأ والزلل، مضاف إلى ذلك أن أغلبهم من الذين شهدوا يوم الغدير ومن رواة حديثه.

وبعد أن قام معاوية باغتصاب الخلافة ذهب إلى المدينة المنورة، وقد رآه سعد ابن أبي وقاص في إحدى المجالس يطعن بالإمام عليه السلام، فأخذ سعد يذكر فضائل الإمام فلعنه معاوية وقال له: «لو كنت أعلم من فضل علي ما علمت لما تخلّيت عنه».

إذا، ألم تشهد هذه المجموعة من الخواص تلك البيعة الحرة التي قام بها طلحة والزبير لعلي ومن ثم قيامها بنقض تلك البيعة بشكل علني؟ ألم يعلموا بأن معاوية كان مدّعيًا للخلافة؟ ألم يعلموا بأنهم من معارضي الخليفة الثالث لعثمان؟ ألم يعلموا قدر معاوية وعائلته وما فعلوه من فضائح في تاريخ الإسلام؟ ألم يعلموا بأن معاوية وباقي طلقاء فتح مكة هم ليسوا بأهل لقيادة المجتمع الإسلامي؟ ألم يكونوا من الذين شهدوا ما قاله رسول الله يوم الغدير عندما قال: «اللهم وال من والاه وعاد من عاداه؟».

نعم، إنهم يعرفون علي عليه السلام ومنزلته وفضائله في القرآن وفي أحاديث الرسول صلى الله عليه وآله وسلم، لكن حب الدنيا وزخارفها حال بينهم وبين الاعتراف بالحقيقة، وقد التفت معاوية إلى نقطة مهمة وهي وجود بعض الصحابة في المدينة ممن أعرضوا عن الإمام عليه السلام وتخلوا عنه، فقرر استمالتهم إلى جانبه فأخذ يكتب الرسائل إليهم، ومن جملة أولئك سعد ابن أبي وقاص الذي وعده بالخلافة، فأجاب سعد على تلك الرسالة: «غير أن عليًا قد كان فيه ما فينا ولم يك فينا ما فيه، وهذا أمر قد كرهنا أوله وكرهنا آخره، وأمّا طلحة والزبير فلو لزما بيتهما كان خيرًا لهما». ورفض بذلك دعوة معاوية له، ثم كتب معاوية إلى عبد الله بن عمر ودعاه للمجيء إلى الشام ووعده بالخلافة، فكتب إليه عبد الله بن عمر: «ما أنا كعلي في الإيمان والهجرة ومكانه من رسول

الله ونكايته بالمشركين، فاغن عنا نفسك». أما محمد بن مسلمة فقد ردّ على الرسالة التي أرسلها له معاوية بقوله: «لعمري ما طلبت إلّا الدنيا ولا اتّبعت إلى الهوى فإن تنصر عثمان ميتًا فقد خذلته حيًا فما أخرجني الله من نعمة ولا صيّرني إلى شك».

وبهذا الشكل ألا يمكن أن نقول بأن القاعدين على الرغم من يقينهم بأحقية الإمام عليه السلام لم يمدوا له يد البيعة؟ وفي أشد أيام الصراع بين الإمام والفئة الباغية كان حضورهم في الساحة واجبًا ولكن مع الأسف وجدناهم التزموا الصمت وأصبح كل واحد منهم جليس داره، ولم يكتفوا بذلك بل اخذوا يمنعون الناس من الالتفاف حول قيادة الإمام، وصاروا حجر عثرة في طريق الإصلاحات التي يقوم بها، وقد ظلت تلك المواقف السلبية تجاه حكومة الإمام قائمة في ذاكرة التاريخ، ولو سألهم سائل عن سبب قعودهم يقولون كن عبد الله المقتول ولا تكن عبد الله القاتل، ومعنى ذلك أنهم يدعون إلى ترك الجهاد الواجب واللجوء إلى الصلح ومداراة الخواطر في دفع أخطار الفتنة، وقد ظلت هذه الشبهة التي أحدثها هؤلاء معلقة بأذهان القبائل في الحجاز وامتدت إلى أطراف الدولة الإسلامية في العصور القادمة.

عودة متأخرة وعقيمة (طلحة والزبير نموذجاً)

عند استلام علي عليه السلام للخلافة بعد مقتل عثمان طلب طلحة والزبير من الإمام أن يوليهما البصرة والكوفة، لكن الإمام لم يستجب إلى طلبهما وولّى عليهما آخرين. وبعد بضعة أيام من ذلك، ذهب طلحة والزبير إلى مكة المكرمة بحجة أداء العمرة، وقد التحق بهما مجموعة من بني أمية برئاسة مروان بن الحكم وكانت قد سبقتهم

عائشة بالوصول إلى هناك قبل أحداث مقتل عثمان، والتحق بهؤلاء عبد الله بن عامر الذي كان واليًا على البصرة، ويعلي بن منية الذي كان واليًا على اليمن من قبل عثمان، وبعد أن تم اللقاء بين الجميع في مكة اتفقوا على التوجه إلى البصرة بست مئة محارب وبدعم وإسناد الأموال التي قام بسرقتها يعلي بن منية من بيت مال المسلمين أيام عثمان. عند وصولهم إلى البصرة تصدى لهم والي المدينة عثمان بن حنيف وبعد مواجهة قليلة تم توقيع الهدنة، وفي ليلة مظلمة ذات رياح أتى طلحة والزبير وأصحابهما دار الإمارة في البصرة وكان عثمان بن حنيف غافلًا عنهم، فأسروا خمسين رجلًا من حراس بيت المال وقيدوهم بالسلاسل وقتلوهم، وتعتبر هذه الحادثة أول جريمة قتل في الإسلام. بعد ذلك هجموا على بيت عثمان بن حنيف فأوثقوه وعمدوا إلى لحيته فنتفوها حتى لم يبق فيها شيء ولا شعرة واحدة ثم أرسلوه إلى المدينة، ولما وصل إليها كان الإمام عليه السلام قد أعد جيشًا للتوجه إلى البصرة فولاه على المدينة وتوجه بالجيش نحو البصرة، وعندما وصل إليها حاول أول الأمر إقناع طلحة والزبير وحذرهما من عواقب هذا التمرد فرفضوا الانصياع لنصائحه وأصروا على عنادهم، ولما يئس أمير المؤمنين من التوصل إلى حل يحقن به دماء المسلمين عن طريق الحجة والمناظرة، أمر أحد رجاله أن يخرج بين الصفين وبيده مصحف يدعوهم إلى العودة إلى حكم القرآن، وقد أخبره الإمام بأنه سيقتل شهيدًا، فلم يتردد ومضى بيده المصحف حتى إذا بلغ ما بين الصفين رفعه بكلتا يديه ووقف باتجاه جيش المتمردين ودعاهم إلى حكم القرآن، فكان جوابهم أن رموه بالسهام من كل جانب حتى وقع شهيدًا ثم استشهد اثنان من ميمنة جيش الإمام وميسرته، ثم تقدم إليهم عمار بن ياسر وناداهم لكن دون جدوى، فقام علي عليه السلام في الناس

خطيبًا، وبعد أن وجد الإمام أن الحجة قد ألقيت على الصحابة خرج بنفسه حاسرًا على بغلة رسول الله ﷺ لا سلاح عليه فنادى: «يا زبير أخرج إلي»، فخرج إليه الزبير شاكًّا في سلاحه، فقال له علي عليه السلام: «ويحك يا زبير! ما الذي أخرجك؟» فقال: «دم عثمان»، فرد الإمام عليه السلام: «قتل الله أولانا بدم عثمان، أمّا تذكر يوم لقيت رسول الله في بني بياضة وهو راكب حماره، فضحك إليّ رسول الله، وضحكت إليه، وأنت معه فقلت أنت: يا رسول الله ما يدع عليّ زَهوه؟ فقال لك: ليس به زهو، أتحبه يا زبير؟ فقلت: أني والله لأحبه، فقال لك: أنك والله ستقاتله وأنت له ظالم»، فقال الزبير: «أستغفر الله، والله لو ذكرتها ما خرجت» فقال له الإمام عليه السلام: «يا زبير ارجع»، فقال: «وكيف أرجع الآن وقد التفت حلقتا البطان؟ هذا والله العار الذي لا يغسل»، فرد الإمام عليه السلام: «يا زبير ارجع بالعار قبل أن تجمع العار والنار». فرجع الزبير وهو يردد أبياتًا من الشعر تدل على ندامته، فقال له ابنه عبد الله: «أين تذهب وتدعنا؟» فقال له: «يا بني أذكرني أبو الحسن بأمر كنت قد أنسيته»، فقال: «لا والله، ولكنك فررت من سيوف بني عبد المطلب، فإنها طوال حداد، تحملها فتية أنجاد»، فقال: «لا والله، ولكني ذكرت ما أنسانيه الدهر، فاخترت العار على النار».

ثم نادى عليه السلام طلحة حين رجع الزبير: «يا أبا محمد ما الذي أخرجك؟» فقال: الطلب بدم عثمان»، فقال عليّ عليه السلام: «قتل الله أولانا بدم عثمان، أما سمعت رسول الله ﷺ يقول: اللهم وال من والاه، وعاد من عاداه، وأنت من بايعني ثم نكث، وقد قال الله عزّ وجلّ: ﴿فَمَن نَّكَثَ فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ﴾؟ فقال الزبير: «استغفر الله» ثم رجع، فصاح مروان ابن الحكم: «رجع الزبير ويرجع طلحة!!» فرماه

أكحله فقتله.

وهكذا كانت نهاية هذين الصحابيين الذين كان لهما قصب السبق في الهجرة أيام رسول الله ﷺ، حتى حصل طلحة على لقب (طلحة الخير) والزبير (سيف الإسلام)، لكن لسوء العاقبة ومصارع السور أوصلتهما إلى هذه النهاية فأصبحا عبرة للمعتبرين، فقد كان الزبير من أصحاب الرسول وابن عمة أمير المؤمنين عليه السلام، وكان كذلك ممن بايع عليّ ودافع عنه وتحصن في بيته ضد أبي بكر وعمر، وقال الإمام عليه السلام في سيفه: «سيف طالما جلا الكرب عن وجه رسول الله، لكنه الحينُ ومصارع السوء».

ولنقرأ ما كتبه المؤرخ المشهور أبو الحسن المسعودي في كتابه: [وفي أيام اقتنى جماعة من الصحابة الضيَّاع والدور، منهم الزبير ابن العوام بنى داره في البصرة وهي المعروفة في هذا الوقت - وهو سنة اثنتين وثلاثين وثلاثمائة، سنة تأليف مروج الذهب-تنزلها التجار وأرباب الأموال وأصحاب الجهاز من البحريين وغيرهم، وابتنى أيضًا دورًا بمصر والكوفة والإسكندرية، وما ذكرنا من دوره وضياعه فمعلوم غير مجهول إلى هذه الغاية، وبلغ مال الزبير بعد وفاته خمسين ألف دينار، وخلف الزبير ألف فرس، وألف عبد وأمه، وخططًا بحيث ذكرنا من الأمصار، وكذلك طلحة بن عبيد الله التيمي، ابتنى داره بالكوفة المشهورة به هذا الوقت، المعروفة بالكناسة بدار الطلحين، وكانت غلته من العراق كل يوم ألف دينار، وقيل أكثر من ذلك، وبناحية الشرارة أكثر ما ذكرنا وشيد داره بالمدينة وبناها بالآجر والجصّ والساج][1].

(١) المسعودي، مروج الذهب، دار العلم والثقافة، الجزء الأول، صفحة٦٩٠.

هل يمكن القول بأن تعلق هؤلاء الخواص بالدنيا وزخارفها والابتعاد عن البساطة في العيش هو الذي أدى بهم إلى السقوط في حبائل الشيطان؟ لقد كان لهؤلاء الخواص شرف المشاركة بالجهاد والتضحية والفداء مع رسول الله، وكانوا على علم بفضل عليّ عليه السلام وأحقيّته بالخلافة لأنهم سمعوا بآذانهم كلام النبي في شأنه، إذن فما الذي حدث؟ هل غرّهم الجهاد الأصغر وما يترتب عليه من مغانم دنيوية؟ الجواب: نعم، إنه هوى النفس الذي يدفع إلى الفتن، ولهذا نجده صلى الله عليه وآله عندما عاد من إحدى غزواته قال لأصحابه: «مرحبًا بقوم قضوا الجهاد الأصغر وبقي عليكم الجهاد الأكبر» فقالوا: «وما الجهاد الأكبر» فقال: «جهاد النفس»، وهؤلاء فشلوا للأسف الشديد في ميدان جهاد النفس وخسروا المعركة مع النفس وذلك هو الخسران المبين.

إصلاح شيء من الدنيا بفساد كبير في الدين

إن عمرو بن العاص بن وائل بن سهم هو من قبيلة بني سهم، واستنادًا إلى ما نقله الزمخشي فإن أمه كانت جارية عند قبيلة عنزة، وقد أسرت في إحدى الغزوات وأخذت إلى مكة فاشتراها عبد الله بن جدعان التيمي وكانت من النساء الزانيات، فزنى بها في ليلة واحدة كل من أبي لهب، أمية بن خلف، أبي سفيان والعاص بن وائل، فحملت وولدت عمرو، فتنازع الجميع فيما بينهم كل واحد منهم يدّعي بأن عمرو ابنه، وفي الختام احتكموا إلى أمه فقالت لهم أنه ابن العاص وأن حملها منه، والسبب في ذلك هو أن العاص بن وائل كان قد أعطاها أجرًا أكثر من جماعته.

وعندما بُعث النبي ﷺ، كان عمرو بن العاص لا يزال فتى، وأبوه فقد كان من الذين يستخفون ويستهزئون بالنبي حتى نزلت بحقه الآية الكريمة﴿إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ﴾ فأصبح الأبتر عند قريش لقبًا له. وعندما هاجر المسلمون الهجرة الأولى إلى بلاد الحبشة كان عمرو بن العاص من الذين ذهبوا إلى النجاشي ملك الحبشة وحاول بشتى الطرق إقناع الملك بإرجاعهم إلى الحجاز لكن بحمد الله باءت تلك المساعي بالفشل. ومن مواقفه الأخرى ضد النبي ﷺ قيامه برمي الحجارة صوب عائلة النبي، وعلى إثر ذلك أسقطت زينب بنت النبي جنينها. وبقي عمرو بن العاص حتى زمان هجرة الرسول ﷺ يهجوه بأشعاره ويقوم بجمع الأطفال في مكة ويحرضهم على قراءة الأشعار خلف الرسول عندما يمر في الطرقات، وذات مرّة ذهب ﷺ من شدة غضبه إلى مكان حجر إسماعيل ودعا الله سبحانه أن يلعن عمرو بن العاص بقدر ما هجاه وآذاه. ولما انتشر الإسلام في بلاد الحجاز وأحس عمرو بن العاص أن لا مناص من الدخول في الإسلام جاء إلى المدينة المنورة وأعلن إسلامه بعد صلح الحديبية.

وفي زمن خلافة أمير المؤمنين عليه السلام، وعده معاوية بإمارة بلاد مصر، وعلى أثر ذلك وفي سبيل الحصول على المطامع الدنيوية وقف مع معاوية ضد الإمام.وفي حديث للزبير من بكار: «في يوم من الأيام جلس ابن العاص عند معاوية وقال: «ألا تبعث إلى الحسن بن علي فتحضره؟ فقد أحيا سيرة أبيه، وسببناه وسببنا أباه، وصغّرنا بقدره وقدر أبيه وقعدنا لذلك حتى صدق لك فيه»، فقبل معاوية اقتراح عمرو بن العاص فبعث إلى الإمام الحسن عليه السلام، فلما أتى مجلسهم أخذوا يلعنون أمير المؤمنين بحضوره، فأخذ الإمام يرد على كل واحد منهم حتى إذا وصل الدور إلى عمرو بن العاص رد عليه الحسن عليه السلام:

«وما أنت يا عمرو بن العاص الشاني اللعين الأبتر، وإنك ولدت على فراش مشترك فتحاكمت فيك رجال قريش، فغلبهم عليك من بين قريش ألأمهم حسبًا، أخبثهم منصبًا، وأعظمهم بغية، وقال أبوك: أن محمدًا رجل أبتر ولد له، فأنزل الله ﴿إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ﴾ ثم كنت في أصحاب السفينة الذين أتوا النجاشي، فحاق المكر السيئ بك وأكذب أحدوثتك وجعل كلمة الذين كفروا السفلى ولكمة الله العليا».

هذا وقد تولى عمرو بن العاص مصر إلى آخر أيام حياته طبقًا للاتفاق الذي تم بينه وبين معاوية، وفي أواخر عمره ندم كثيرًا على ما قام به من أعمال، ونقل الشافعي لنا هذه المحاورة التي جرت بينه وبين عبد الله بن عباس قبل وفاته عندما ذهب للقائه ابن عباس وسأله: «كيف أصبحت يا عمرو؟»، فأجابه: «أصبحت وقد أصلحت القليل من دنياي وأفسدت الكثير من ديني، ولو أن الطلب اليوم ينفعني لطلبت ولو استطعت الفرار لفررت، مثلي كمثل من يصعد إلى السماء ولا يستطيع الرقي، فهو معلق بين السماء والأرض لا يستطيع الصعود ولا يقوى على النزول».

عمرو بن العاص باع دينه بدنياه

أسرع عمرو بن العاص نحو الشام حيث القصر الأخضر وهو قصر معاوية الذي كان يضاهي قصر كسرى الأسطوري، ووصل إلى دمشق ليحقق أحلامه في الحصول على المال والسلطان من أميرها العنيد معاوية، وما أن حلّ هناك بدأ بإعلان مخالفته ومعارضته لعلي عليه السلام والسائرين على نهجه، وفي هذه الأثناء أرسل علي عليه السلام رسالة بيد جرير بن عبد الله إلى معاوية جاء فيها: «أما بعد فقد لزمك ومن قبلك من المسلمين بيعتي وأنا بالمدينة وأنتم بالشام، لأنه بايعني

الذين بايعوا أبا بكر وعمر وعثمان،فليس للشاهد أن يختار ولا للغائب أن يرد، فادخل فيما دخل فيه الناس ثم حاكم القوم إليّ أحملك وإياهم على ما في كتاب الله وسنة نبيه، واعلم أنك من الطلقاء الذين لا تحلّ لهم الخلافة ولا تعرض فيهم الشورى»[١].

وخلاصة الرسالة التي حملها جرير هي منع انتشار الفتنة وتثبيت الحق والتهيؤ لنشر مفاهيم الإسلام الأصيل في أنحاء المعمورة. ولما وصل جرير إلى باب الشام في دمشق قام بتسليم رسالته إلى أميرها، وفي صباح اليوم التالي دخل على معاوية وأخذ يبلغه بمضامينها فرد عليه معاوية: «يا جرير، إنها ليست بخلسة وإنه أمر له ما بعده، فأبلغني ريقي حتى أنظر». والمهلة التي طلبها معاوية منه ليست لغرض دراسة مضمون الرسالة التي بعث بها الإمام عليه السلام، وإنما لغرض التشاور مع أهل الغدر والمكر، فاستدعى معاوية أخاه عتبة وشاوره في أمر الرسالة فقال له عتبة: «اجتمعن على هذا الأمر بعمرو بن العاص وأثمن له بدينه فإنه من قد عرفت، وقد اعتزل أمر عثمان في حياته وهو لأمرك أشد اعتزالا أن يرد فرصة». أسرع معاوية بإرسال رسالة إلى عمرو بن العاص الذي اختار من فلسطين سكنًا له بعد أن قام عثمان بعزله عن مصر وذلك لغرض الوصول إلى مخرج لهذه المشكلة، وجاء في تلك الرسالة: «وقدم علينا جرير بن عبد الله في بيعة علي، وقد حبست نفسي عليك حتى تأتيني، أقبل أذاكرك أمرًا». وعندما استلم عمرو بن العاص الرسالة

(١) في بداية مجيء الإمام علي إلى الكوفة كان جرير حاكمًا على همدان، فقام الإمام بعزله عنها واستدعاه إلى مركز الخلافة، وقبل ذلك وعاد إلى جانب الإمـام طائعًا لأوامره، ثم بعد ذلك اقترح جرير على الإمام أن يذهب إلى الشام ويتكلم مع معاوية لعله ينصاع إلى طريق الحق والهداية التي لم يدخلها آل أبي سفيان يومًا ما.

فكّر مليًا بها، وقد كان على يقين من سلامة دينه بوقوفه مع علي عليه السلام، أمّا الدنيا التي فقدها بعد عزله عن ولاية مصر فيمكنه استعادتها بالوقوف مع معاوية، فاستشار ابنيه عبد الله ومحمد، فقال عبد الله: «أرى أن نبي الله قَبض وهو عنك راض والخليفتان من بعده، وقتل عثمان وأنت غائب عنه، فَقِر في منزلك فلست مجعولًا خليفة، ولا تريد أن تكون حاشية لمعاوية على دنيا قليلة أوشك أن تهلك فتشقى فيها». وقد وضّح عبد الله الواقع الذي يعيشه أبوه، لكن استغراقه بأحلامه في الحصول على مصر منعه من الإصغاء إلى كلامه فلم يقنع، فالتفت إلى جانب أخيه محمد وقال له: «ما هو رأيك؟» فقال محمد لأبيه: «أرى أنك شيخ قريش وصاحب أمرها، وإن تصرّم هذا الأمر وأنت فيه خامل تصاغر أمرك، فالحق بجماعة أهل الشام، فكن يدًا من أياديها وطالب بدم عثمان، فإنك استنمت فيه إلى بني أمية».

فاضطربت الأفكار في ذهن ابن العاص وأصبح بين أمرين، بين وعود معاوية له بالسلطان والمال وبين سوء العاقبة التي ستحل به في بيع دينه بدنياه، وكان وردان غلام عمرو يلاحظ الموقف على بعد فتقدم نحوه وقال: «خلطت أبا عبد الله»،فرد عليه عمرو موبخًا: «ويحك»، ولم يبال وردان بذلك واستمر بالقول: «إمّا أنك إن شئت إنباتك بما في نفسك اعتركت الدنيا والآخرة على قلبك، فقلت علي معه الآخرة في غير دنيا وفي الآخرة عوض الدنيا، ومعاوية معه الدنيا بغير آخرة وليس في الدنيا عوض من الآخرة، فأنت واقف بينهما»، فقال عمرو: «فإنك والله ما أخطأت فما ترى يا وردان؟» قال: «أرى أن تقيم في بيتك، فإن ظهر أهل الدين عشت عفو دينهم وإن ظهر أهل الدنيا لم يستغنوا عنك». لم يتأثر ابن العاص بكلام غلامه لأن حب الدنيا والسلطان قد أغشى بصره عن رؤية الحق، فأسرع نحو

الشام حبًّا بالمطامع التي كان يحلم بها، فلما وصل إلى دمشق دار بينه وبين معاوية تبادل في وجهات النظر وتبادلا فيما بينهما خبرات المكر والخداع التي اكتسبها كل منهما، وبعد أن طلب معاوية من عمرو التهيؤ لجهاد علي عليه السلام رد عمرو بصراحة «والله يا معاوية، مالك هجرته ولا سابقته ولا صحبته ولا جهاده ولا فقهه ولا علمه، والله إن له مع ذلك حدًا وجدّاً وحظًا وحظوةً وبلاءً من الله حسنا، فما تجعل لي أن شايعتك على حربه وأنت تعلم ما فيه من الغرر والخطر؟»، فقال له معاوية: «حكمك»، فقال عمرو: «مصر طعمة»، فتلكأ عليه معاوية ثم قال له: «يا أبا عبد الله إني أكره أن يتحدث العرب عنك إنّما دخلت في هذا الأمر لغرض الدنيا» فقال عمرو: «دعني عنك»، فقال له معاوية: «إني لو شئت أن أمنيك وأخدعك لفعلت»، فقال عمرو: «لا لعمر الله ما مثلي يُخدع لأنا أكيس من ذلك»، فقال له معاوية: «ادنُ مني برأسك أسارك»، فدنا منه عمرو يسارّه، فعضّ معاوية أذنه وقال: «هذه خدعة، هل ترى في بيتك أحدًا غيري وغيرك؟»، فأعطاه مصرًا.

قال معاوية لعمرو: «طرقتنا في هذه الأيام ثلاثة أمور، ليس فيها ورد ولا صدر»، فقال عمرو: «ما هن؟» فقال معاوية: «أما أولهن فإن محمد بن حذيفة كسر السجن وهرب إلى مصر فيمن كان معه من أصحابه، وهو أعدى الناس لنا، وأما الثانية فإن قيصر الروم قد جمع الجنود ليخرج إلينا على الشام، وأما الثالثة فإن جريرًا قدم رسولًا لعلي بن أبي طالب يدعونا إلى البيعة له أو إيذان بحرب»، فقال له عمرو: «أما ابن حذيفة فما يغمك من خروجه من سجنه في أصحابه، فأرسل في طلبه الخيل فإن قدرت عليه فذاك وإن لم تقدر عليه لم يضرّك، وأما القيصر فاكتب إليه تعلمه أنك ترد عليه جميع من في يديك من أسرى الروم وتسأله المصالحة، وأمّا علي أرى فيه خيرًا، أتاك في هذه البيعة

خير أهل العراق ومن عند خير الناس في أنفس الناس، ودعواك أهل الشام إلى رد هذه البيعة خطر شديد، ورأس أهل الشام شرحبيل بن السمط الكندي، وهو عدو لجرير المرسل إليك، فأرسل إليه ووطن له ثقاتك فليفشوا في الناس أن عليًا قتل عثمان، وليكونوا أهل الرضا عند شرحبيل فإنها كلمة جامعة لك أهل الشام على ما تحب، وإن تعلقت بقلب شرحبيل لم تخرج منه بشيء ابدًا، فاكتب إلى شرحبيل». فلما قدم كتاب معاوية على شرحبيل وهو بحمص، فسار إلى دمشق ودخل على معاوية فقال له: «يا شرحبيل إن جرير يدعونا إلى بيعة عليّ، وعلي خير الناس لولا أنه قتل عثمان بن عفان وقد حبست نفسي عليك»، فقال شرحبيل: أخرج فانظر فخرج فلقيه الموطؤن له، فكلّهم يخبره أن عليًا قتل عثمان، فخرج مغضبًا إلى معاوية فقال: «يا معاوية، أبى الناس إلا أن عليًا قتل عثمان، والله لئن بايعت له لنخرجنك من الشام أو نقتلنك»، قال معاوية: «ما كنت لا خالف عليكم، وما أنا إلا رجل من أهل الشام» فقال شرحبيل: «فردّ هذا الرجل (أي جرجير) إلى صاحبه إذًا. فلما أخبر معاوية أهل الشام قال معاوية لجرير: «يا جرير إلحق بصاحبك»، وكتب إلى علي بالحرب.

وهكذا كانت مؤامرة الخواص من طلاب الدنيا، الذين قاموا بوضع خطة ماكرة لكسب الرأي العام في الشام واستعدوا لقرع طبول الحرب وفق هذه الخطة المدروسة.

الأشعث بن قيس في بوتقة الاختبار

كان الأشعث بن قيس رئيسًا لقبيلة بني كندة، دخل الإسلام في أواخر حياة النبي وبعد وفاته ﷺ قام أبو بكر بإرسال جيش لتتبع بعض

المشركين من قبيلة بني وليعة، فدخلوا في قبيلة بني كندة وطلبوا من رئيسهم الأشعث بن قيس النجدة فاستجاب لطلبهم بسبب ضعف إيمانه متناسيًا العهود التي قطعها للرسول وقال لهم: «لا أنصركم حتى تملكوُني عليكم»، فملكوه وتوجوه، ولما أحس بالقدرة والعظمة أخذه العجب والخيلاء فأعّد جيشًا وقادة لمحاربة جيش الإسلام، وعندما التقى جيشه مع جيش المسلمين سلّم نفسه إلى قائد الجيش الإسلامي وطلب الأمان مع عشرة آخرين فحملوه إلى أبي بكر موثقًا بالحديد مع العشرة، فعفا عنه وعنهم.

وقد ندم أبو بكر قبل وفاته على ذلك الأمان الذي أعطاه للأشعث بن قيس، واشترك الأشعث أيام الخلفاء الثلاثة في الفتوحات الإسلامية وتولى أذربيجان وأرمينيا أيام الخليفة الثالث عثمان، وعندما تولى علي عليه السلام الخلافة، قام بعزله واستدعاه إلى مقر الخلافة، وفي بداية الأمر أراد الإلتحاق بمعاوية ثم تذكر ارتداده بعد وفاة رسول الله فلم يذهب إلى الشام وفضّل نهج النفاق والخداع فعاد إلى علي عليه السلام وأصبح ضمن جيشه واستلم بعض المناصب، وفعلاً أثبتت الأيام القليلة القادمة قيامه بأعمال يمكن أن نقول بأنها غيّرت مجريات الأمور، وفي معركة صفين كان له دور في تحريض الناس ضد الإمام عليه السلام ، وبعمله أجبر الإمام على إيقاف الحرب. وفي قضية تعيين ممثل من جهة جيش الإمام، ضم رأيه مع رأي الذين أصروا على تمثيل أبي موسى الأشعري، وقد اعتبر الإمام عليه السلام فشل حرب صفين بسبب مؤامرة التحكيم التي شارك بها الأشعث بن قيس بشكل مباشر.

ومن مواقفه المشينة الأخرى هي الدور النفاقي الذي لعبه في إحباط عزائم الجنود عندما أراد الإمام تعبئتهم في معسكر النخيلة

لغرض العودة بهم إلى الشام لصد اعتداءات جيش معاوية على الدولة الإسلامية. وفي هذا الصدد لا بد من ذكر المواقف الخيانية التي اتخذها ابنه محمد بن الأشعث بمساهمته في جلب مسلم بن عقيل وهانئ بن عروة إلى قصر عبيد الله بن زياد، أمّا بنته (بنت الأشعث) فدورها معروف بسمّ الإمام الحسن عليه السلام بإشراف معاوية حتى مضى مسمومًا شهيدًا.

المصاحف المرفوعة من مكائد الخواص

للحرب منطقها الخاص بها، ومنطق الحرب هو الدم والشهادة والأسر والبعد عن الراحة والأمن. هكذا يجب أن تكون حرب صفين لأنها حرب كباقي الحروب، وقد دامت هذه الحرب شهوراً وذهب ضحيتها أكثر من مائة ألف من المسلمين الذين غرّر بهم ابن هند وابن العاص حتى أوردهم ذلك المورد السيء، وشيئًا فشيئًا أخذ بعض ممن كانوا في جيش معاوية يفهمون الأحداث، وأخذوا يتحسسون النوايا الخبيثة لقادة جيش الشام، وعندما تقدم مالك الأشتر وكان قائدًا لميمنة جيش الإمام نحو خطوط جيش العدو وأخذ يسحق المدافعين عن معاوية وكادت المعركة أن تنتهي لصالح جيش أمير المؤمنين عليه السلام، في تلك اللحظات المصيرية عاد معاوية إلى المكر والخداع ونادى: «يا عمرو، إنما هي الليلة حتى يغدو عليّ علينا بالفيصل فما ترى؟»، قال: «الق إليهم أمراً إن قبلوه اختلفوا وإن ردوه اختلفوا، ادعهم إلى كتاب الله حكمًا فيما بينك وبينهم فإنك بالغ به حاجتك في القوم، فإني لم أزل أوخر هذا الأمر لوقت حاجتك إليه»، فعرف ذلك معاوية فقال لعمرو: «صدقت». فأصبح أهل الشام وقد

رفعوا المصاحف على رؤوس الرماح، وذكر أنه قد رفع أكثر من ٥٠٠ نسخة من القرآن التي كانت قبل قليل ملطخة بدماء عمار بن ياسر وأويس القرني وعشرات من أمثالهم، وبتحريض من عمرو بن العاص نادى أهل الشام: «الله الله في نسائكم وبناتكم، فمن للروم والأتراك وأهل فارس غدًا إذا فنيتم؟ هذا كتاب الله بيننا وبينكم». وبهذه الكذبة وقعت الفتنة، واندفع الذين في قلوبهم مرض نحو الجدال بسبب وقوعهم بالمتشابهات فقال بعض من أهل العراق للإمام «أجب القوم إلى ما دعوك إليه».

فقال الإمام عليه السلام لهم: «عباد الله، إني أحق من أجاب إلى كتاب الله، ولكن معاوية وعمرو بن العاص وابن أبي معيط وحبيب بن مسلمة وابن أبي سرح ليسوا بأصحاب دين ولا قرآن، إني أعرف بهم منكم، صحبتهم أطفالًا وصحبتهم رجالًا فكانوا شر أطفال وشرّ رجال، إنها كلمة حق يراد بها باطل»، فقام مالك الأشتر وقال: «إن معاوية لا خلف له من رجاله ولك بحمد الله الخلف، ولو كان له مثل رجالك فما له مثل صبرك ولا بصرك، فاقرع الحديد بالحديد واستعن بالله الحميد». وقد أيّد باقي الصحابة وقادة الجيش ما قاله الأشتر، وفي هذا الظرف بالذات كان المنافقون يترصدون الأوضاع بدقة ويسعون لإثارة الفتنة بين صفوف جيش الإمام وعلى رأسهم الأشعث بن قيس، فقد قال للإمام: «يا أمير المؤمنين، إنا لك اليوم على ما كنا عليه أمس، وليس آخر أمرنا كأوله، وما من القوم أحد أحنى على أهل العراق ولا أوتر لأهل الشام مني، فأجب القوم إلى كتاب الله فإنك أحق به منهم، وقد أحب الناس البقاء وكرهوا القتال».

لاقت مبادرة الأشعث تأييدًا واسعًا بين صفوف جيش الإمام من

الذين أغرتهم وعود معاوية بالمال، حتى مال أكثر الذين في قلوبهم مرض نحو الصلح وأخذوا يطالبون بالتحكيم، وعلا الجدال والنزاع بين القلة من طلاب الحق وبين الكثرة من مرضى القلوب. وفي هذه الأثناء قال الأشعث للإمام: «إن شئت أتيت معاوية فسألته ما يريد ونظرت ما الذي يسأل»، فقال الإمام عليه السلام: «ائته إن شئت». وبدون تردد ذهب الأشعث بن قيس إلى معاوية واتفق معه على تعيين حكم من طرفه وآخر من طرف الإمام، وأن يتحاكما إلى كتاب الله، وعاد إلى الإمام عليه السلام وشرح له ما دار بينه وبين معاوية، فأيّد كثير من الحاضرين هذه الفكرة واخذوا يطالبون بتحقيقها، فقال لهم الإمام علي عليه السلام: «ويحكم إنهم ما رفعوها لأنكم تعلمونها ولا يعلمون بها، وما رفعوها لكم إلا خديعة ودهاء ومكيدة، ويحكم إنما قاتلتهم ليدينوا بحكم الكتاب، فامضوا على حقكم وقصدكم وخذوا في القتال عدوكم، فإن معاوية وابن العاص ليسوا بأصحاب دين ولا قرآن وأنا أعرف بهم منكم». حينها هدد القوم الإمام أن يُصنع به ما صنع بعثمان، وحلفوا عليه ليرسل إلى الأشتر أو يسلموه الى العدو، فأقبل مالك الأشتر، فسبّوه وسبّهم وصاح بهم عليّ عليه السلام فكفوا، فقال الأشتر: «إن كان أمير المؤمنين قد قبل ورضي فقد رضيت». وهكذا نجح بعض الخواص من طلاب الدنيا أن يفرضوا على الإمام عليه السلام القبول بالتحكيم، وتم وقف القتال بين الطرفين، وتجرع الإمام وبعض السائرين على نهجه السمّ نتيجة لذلك، واستلم معاوية خلافة المسلمين وتسلط على رقابهم.

كل ذلك كان بسبب مواقف بعض الخواص من متزلزلي الإرادة، ولو كانت مواقفهم كما يجب لقاموا بتسجيل موقف تاريخي له الأثر الكبير في صناعة مصير الأمة الإسلامية.

يقول السيد الخامنئي دام ظله في هذا المجل: «قرارات الخواص في الوقت المناسب، تحديد الخواص للمواقف في الوقت المناسب، عزوف الخواص عن الدنيا في اللحظة المناسبة، كل ذلك يحفظ لنا التاريخ وينقذ لنا القيم ويحفظها، يجب اتخاذ الموقف اللازم في اللحظة الحاسمة، وإذا مرّت تلك اللحظة المصيرية بدون استثمار تكون الفرصة قد مرت والخسارة لا تعوّض»[١].

مخالفة الخواص للحَكَم الذي اختاره الإمام عليه السلام

اتفق الطرفان على مبدأ التحكيم، واتفق أهل الشام على أن يفاوض عنهم عمرو بن العاص، أمّا أهل العراق فقد اختلفوا أشد الاختلاف، ومال أكثرهم نحو أبي موسى الأشعري، وكان من بين هذه الأكثرية فرقة سميت بالخوارج وعلى رأسهم الأشعث بن قيس، وأصرّوا على تمثيل أبي موسى بالرغم من أن خطره على الإسلام لا يقل عن خطر عمرو بن العاص وأمثاله من المنافقين. وهكذا واجه الإمام عليه السلام شكلًا آخر من أشكال الفهم المنحرف وأصابه الملل من كثرة ما رآه من تشتت صفوف جيشه، فوقف على مكان مرتفع ونادى: «إني لا أرضى بأبي موسى ولا أرى أن أوليّه»، فرد الأشعث على الإمام وقال: «أنا لا أرضى إلا به»، فقال عليه السلام: «فإنه ليس برضا، وقد فارقني وخذل الناس عنّي وهرب مني حتى أمّنته بعد أشهر، ولكن هذا ابن عباس أولّيه ذلك»، فقال الأشعث وبعض رؤساء القبائل والخواص: «لا والله لا يحكم فينا مضريان حتى تقوم الساعة».

---

(١) محاضرة ألقاها السيد الخامنئي دام ظله في مجموعة من الفرقة ٢٧ (محمد رسول الله)، في طهران عام ١٣٧٥ هـ.ش.

وبهذه الطريقة كان يفكر الأشعث بن قيس والكثير من أمثاله على الرغم من مرور خمسين عامًا على ظهور الإسلام بتلك الطريقة التي تعتمد على التفكير الجاهلي والروح القبلية بديلًا عن التقوى والأخوّة الإسلامية، واقترح الإمام عليه السلام على جماعته انتخاب عبد الله بن عباس كي يكون حكمًا من جانبه مقابل عمرو بن العاص، لكن الغدرة والفجرة قاموا مرة أخرى بسد الطريق بوجه الإمام رغم ما كان يتمتع به عبد الله بن عباس من علم وتقوى ومنزلة وصحبة للرسول صلى الله عليه وآله وسلم، وكان من ولاة البصرة من قبل الإمام عليه السلام، بعد ذلك قال الإمام لجماعته: «فإني أجعل الأشتر»، فنادى المخالفون: «وهل سعّر الأرض علينا إلّا الأشتر؟ وهل نحن إلّا في حكم الأشتر؟ يضرب بعضنا بعضًا بالسيف حتى ما يكون ما أردت وما أراد؟»، فقال الإمام عليه السلام: «أقد أبيتم إلّا أبا موسى؟»، فقالوا: «نعم». حينها أجبر بعض الخواص من الباطل الإمام على قبول تحكيم أبي موسى الأشعري مثلما اجبروه من قبل على إيقاف الحرب والخضوع للتحكيم، وتركهم في لجاجتهم وقال لهم: «اصنعوا ما شئتم»، وجلس في انتظار نتائج التحكيم.

لم تُسفر المفاوضات بين الطرفين عن نتائج تذكر سوى الحماقة التي ارتكبها أبو موسى الأشعري لخلعه للإمام، بعد ذلك عاد الإمام بحيشه نحو العراق بعد أن تحمل آلاف من الشهداء والجرحى، وفي طريق عودتهم إلى العراق أخذ كل واحد منهم يلوم صاحبه ويطعن بنتائج التحكيم، فأخذ الإمام يهدئهم ثم تعجل بالمسير نحو العراق مخافة أن تتأزم الأمور ويحدث مالا تحمد عقباه. وفي إحدى المواقع في الطريق تحدث إليهم الإمام عن الملابسات التي رافقت مسألة التحكيم، وفجأة سأله أحدهم: «انتهينا عن الحكومة ثم أمرتنا بها فلم ندري أي الأمرين أرشد»، فنظر الإمام نظرة حيران ممزق إلى الأشعث

وصفق بيديه وقال: «هذا جزاء من ترك العقدة»، فردّ عليه الأشعث قائلًا: «يا أمير المؤمنين، هذه عليك لا لك»، فقال له الإمام وهو غضبان: «وما يُدرك ما عليّ مما لي؟ عليك لعنة الله ولعنة اللاعنين. حائك ابن حائك، منافق ابن كافر، والله لقد أسرك الكفر مرة والإسلام أخرى، فما فداك من واحدة منهما مالك ولا حسبك، وأنّ أمرًا دلّ على قومه السيف، وساق إليهم الحتف لحري أن يمقته الأقرب ولا يأمنه الأبعد»[١].

بعنا ديننا بدنياكم

إن حرب صفين التي دارت بين جيش الإمام وجيش معاوية كانت تضم مجاميع مختلفة من قبائل الشام والعراق والحجاز وإيران ومصر، وكل قبيلة من تلك القبائل كانت تحت إمرة رئيسها، وكثير من القبائل وبسبب الاختلافات العقائدية انقسمت على نفسها، فوقع نصف منها في جيش الإمام عليه السلام والنصف الآخر في جيش معاوية، وغني عن البيان أن عامة الناس هم ليسوا من أهل التحليل والتحقيق، أما النخبة

(١) تشير خطبة الإمام علي إلى أحداث وقعت بعد وفاة الرسول أيام خلافة أبي بكر، عندما أمر زياد بن لبيد الأنصار لحرب (بني وليعة) فقتل منهم جمعًا كثيرًا، ولحق فلّهم بالأشعث بن قيس، فاستنصروه فقال: «لا أنصركم حتى تملكوني عليكم»، فملكوه وتوجوه كما يتوّج الملك من قحطان، فخرج إلى زياد في جمع كثير فلقوا الأشعث فهزموه، ولجأ الأشعث والباقون من جماعته إلى حصن معروف فحاصرهم المسلمون حصارًا شديدًا حتى ضاعفوا، فسأل الأشعث جيش المسلمين الأمان على نفسه وعشرة من أصحابه فامضوا شرطة، فدخلوا وأخذوا أسلحتهم وقالوا للأشعث أعزل العشرة، فعزلهم فتركوهم وقتلوا الباقين (وكانوا ثمانمائة) وحملوا الأشعث إلى أبي بكر موثقًا في الحديد هو والعشرة فعفا عنه وعنهم، والعجب من الأشعث أنه لا يزال يمني نفسه بهذه الأحلام المريضة.

الذين أطلق عليهم (خواص القوم)، كانوا هم المسوؤلون عن إدارة تلك القبائل وتسيرها حيث يشاؤون. إن الجيش الذي شكله معاوية وعمرو بن العاص من أهل الشام كان قائمًا على أساس المكر والخداع وفيه كثير من الأفراد المغرر بهم أم رؤساء القبائل، فكانوا من الخواص الذين لهم سوابق في تاريخ الإسلام، وكذلك لديهم القدرة الكافية على تحليل الأحداث وعلى أتم العلم والمعرفة بالفروق الموجودة ما بين الإمام عليه السلام ومعاوية، لكننا نجدهم مع الأسف الشديد يتجاهلون الحقيقة بسبب تعلقهم بالدنيا وزخارفها، ومع ذلك نجدهم في بعض اللحظات المصيرية يعترفون بأخطائهم وتقصيرهم عن نصرة الحق، وفي هذا المجال يقول المسعودي في مروج الذهب: «ولما رأى معاوية القتل في أهل الشام وكَلَب أهل العراق عليهم استدعى النعمان بن جبلة التنوخي، وكان صاحب راية قومه في تنوخ وبهراء، وقال له: «لقد هممت أن أولي قومك من هو خير منك مقدمًا وأنصح منك دينًا»، فقال له النعمان: «إنا لو كنا ندعو قومنا الى جيش مجوع لكان في كسع الرجال بعض الأتاة، فكيف ونحن ندعوهم إلى سيوف قاطعة ورُدينيه شاجرة وقوم ذوي بصائر نافذة؟ والله لقد نصحتك على نفسي، وآثرت ملكك على ديني، وتركت لهواك الرشد وأنا أعرفه، وحدتُ عن الحق وأنا أبصر، وما وفقت لرشد حين أقاتل على ملك ابن عم رسول الله وأول مؤمن به ومهاجر معه، ولو أعطيناه ما أعطيناك لكان أرأف بالرعية، وأجزل في العطية، ولكن قد بذلنا لك الأمر ولا بد من إتمامه كان غيًا أو رشدًا، وحاشا أن يكون رشدًا، وسنقاتل على تين الغوطة وزيتونها إذ حرمنا أثمار الجنة وأنهارها». وخرج إلى قومه وصمد إلى الحرب.

أعطنا الفرصة كي نعد العدة

مر عام على حرب صفين وذكريات مهزلة التحكيم لا تزال قائمة في ذهن الإمام، فاستعد ثانيةً للقضاء على الفتنة التي أخذ يشعلها معاوية في أطراف الدولة من جهة الشام، وأخذ يعيد تنظيم قواته في معسكر (النخيلة)، وفي خلال ذلك بدأ الخوارج تحركاتهم وتعدوا نطاق التنديد بالتحكيم الذي أمضوه وانتقلوا إلى دائرة التخريب وأعلنوا حربًا شعواء على كل من لا يشاطرهم آراءهم، وريدًا رويدًا أخذوا يشكلون خطراً كبيرًا لا يقل عن خطر العدو المتربص في الشام، وكان رأي الإمام عليه السلام في بداية الأمر تأجيل مشكلة الخوارج إلى ما بعد تصفية الحساب مع معاوية، لكن الأنباء المثيرة التي وصلت للإمام حول القلاقل التي أخذ يقوم بها الخوارج غيّرت مسار الأحداث، وحاول الإمام عليه السلام أن يتحاشى الاصطدام بهم، وأرسل إليهم يدعوهم للالتحاق بجيشه لغرض محاربة العدو المشترك، وبعد أن وصلت الأمور بين الخوارج والإمام إلى طريق مسدود وجّه لهم الإنذار النهائي ولكن دون جدوى، فدارت بينهما معركة في منطقة (النهروان) دامت يومًا واحدًا وأسفرت عن القضاء على هذه الفئة المنحرفة الضالة، بعد ذلك عاد الإمام إلى معسكره في (النخيلة) لإعداد العدة لمواصلة هدفه الأصلي ومواصلة المسير لقمع الفتنة التي أشعلها معاوية وعمرو بن العاص في بلاد الشام، ومرة أخرى أخذ الإمام يدعو جماعته إلى التهيؤ والاستعداد لمواصلة السير نحو الشام حيث جثم القاسطون على أرض الإسلام لكنهم هذه المرة لم يستجيبوا لأن حب الدنيا دخل إلى قلوبهم ورضوا بها عوضًا عن الآخرة، ومن هنا تغير مسار الأحداث وبدأت تأوهات الإمام، فبدأ يعيش الوحدة والغربة في زمن جائر، فقد بدأ عصر التيه والضياع لأمة لم تعرف قدر إمامها وراعيها فتركته وحيدًا في الساحة.

بئسًا لجيش فيه المنافق الأشعث بن قيس وأمثاله، وكأن لسان حال الإمام عليه السلام يقول: أين عمار؟ أين خزيمة ذو الشهادتين؟ أين أويس القرني؟ أين هاشم المرقال؟ أين أمثالهم ممن طووا معه الطريق إلى صفين؟ ونالوا شرف الشهادة. فكرر عليهم الإمام قوله: «ألا وإنّي قد دعوتكم إلى قتال هؤلاء فتواكلتم وتخاذلتم، لوددتُ أني لم أركم ولم أعرفكم معرفة الله جرّت ندمًا وأفسدتم عليّ رأي بالعصيان»، فقام إليه الأشعث وقال له: «يا أمير المؤمنين قد كلّت سيوفنا ونفذت نبالنا ونصلت أسنة رماحنا، فدعنا نستعد بأحسن عدّتنا».

أخذ بعض الخواص يعملون على إثارة الشائعات بين صفوف الجيش عن طريق النفاق، فراحوا يثبطون العزائم بأساليب خداعة وماكرة، وذلك عن طريق إظهار النصيحة للمقاتلين وإخفاء المكر، وشيئًا فشيئاً اضطربت الأوضاع وأصبح الجو مشحونًا بالشبهة والفتنة، فأخذ أفراد جيش الإمام يتسللون تاركين معسكرهم عائدين إلى بيتوهم. وهكذا فرغت الساحة من المقاتلين ولم يبقى مع الإمام إلا القلة القليلة. لذا انتهت الأمور إلى هذه النتيجة بسبب المواقف المتخاذلة التي اتخذها بعض الخواص من حول الإمام، تلك المواقف التي مهدت الطريق إلى معاوية وأمثاله من السفهاء للوصول إلى سدة الحكم.

شهادة حرّفت التاريخ

كان شريح ابن الحارث من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، وقد استلم منصب القضاء في زمن الخليفة الثاني، وظل في هذا المنصب حتى استلم الإمام عليه السلام الخلافة، وقد كان الإمام راغبًا في عزله عن

منصبه، ولكن بسبب إصرار البعض عليه أبقاه في منصبه. وقد قام شريح القاضي في زمن الإمام بشراء دار، وقصة تلك الدار مذكورة في كتاب نهج البلاغة الرسالة الثالثة[١]، وظلّ في إدارة القضاء إلى أن جاء المختار بن أبي عبيدة الثقفي حيث قام بنفيه إلى خارج مدينة الكوفة وذلك في قرية من قرى اليهود، وبقي هناك إلى أن استدعاه الحجاج بن يوسف الثقفي وولاه القضاء لكنه طلب من الحجاج إعفاءه من هذا المنصب.

ومن حقنا أن نتساءل، لماذا كان شريح منبوذًا في زمن المختار ثم أصبح فجأة شخصًا مقبولًا في زمن الحجاج؟ الجواب: أن شريح مات وعمره ١٢٠ سنة وقد قضى ٧٥ منها في منصب القضاء وكان قد شهد زورًا وبهتانًا على الصحابي الجليل هانئ بن عروة، تلك الشهادة التي أدت إلى سجن وتعذيب هذا الصحابي وإستشهاده، ودفعت الموت والهلاك عن الطاغية عبيد الله بن زياد وأصبحت سببًا من الأسباب المباشرة لوقوع حادثة عاشوراء المفجعة عام ٦١ للهجرة.

مرّ عشرون عامًا على ابتعاد أهل الكوفة وعدم إنقيادهم لأهل البيت، وخلال هذه الفترة الزمنية انتبه كثير منهم من نومته ممن انطلت عليهم الأكاذيب، فعرفوا الحق وأهله وندموا على ما اقترفوه من

---

(١) بعد أن وبّخ الإمام شـريحًا قال له: «إما إنك لو كنت أتيتني عند شرائك ما اشتريت لكتبت لك كتابًا على هذه النسـخة فلم ترغب في شراء هذه الدار بدرهم فما فوق، وتجمع هذه الدار حدود أربعة: الحـد الأول ينتهي إلى دواعي الآفـات، والحد الثاني ينتهي إلى دواعـي المصيبات والحد الثالث ينتهي إلـى الهوى المردي، والحد الرابع ينتهي إلى الشـيطان المغوي وفيه يشـرع باب هذه الدار اشـترى هذا المغتر بالأمل من هذا المزعج بالأجل هذه الـدار بالخروج من عز القناعة والدخول في ذل الطلب والصراعة».

تقصير بحق أهل البيت عليهم السلام، ولهذا نجد سيل رسائل التعزية ينهال على المدينة بمناسبة استشهاد الإمام الحسن المجتبى عليه السلام معبرة عن الحب والتقدير لأهل البيت عليهم السلام، وبعد وفاة معاوية واستلام يزيد لمقاليد الأمور، بايع أهل الكوفة الإمام الحسين عليه السلام وكتبوا رسائل عديدة إلى المدينة يدعونه بها للمجيء إلى العراق لإستلام الخلافة، وعلى إثر ذلك قام الإمام بإرسال سفيره إلى العراق مسلم بن عقيل وعندما وصل إلى الكوفة هب الآلاف لاستقباله وبايعوه بإعتباره نائبًا عن الإمام، وفي ذلك الوقت كان النعمان بن بشير واليًا على الكوفة، وهو من الذين يعرفون بأحقية الإمام الحسين عليه السلام بالخلافة، لكنه حاول أن يتماشى مع الوضع الجديد وجلس في قصره ولم يلتقي بمسلم بن عقيل، فلما وصلت الأخبار إلى يزيد قام بعزله عن ولاية الكوفة وولّى عبيد الله ابن زياد مكانه بالإضافة إلى البصرة، وأصدر أوامره بالتصدي للتحركات الجديدة التي تحصل في الكوفة. عندما وصل عبيد الله الى ضواحي الكوفة قادمًا من البصرة ظن الناس أن القادم هو الإمام الحسين عليه السلام الذي كانوا يتوقعون قدومه، فهبوا لاستقباله، فدخلها وعليه عمامة سوداء متلثمًا بها متوجهًا نحو قصر الإمارة، فلما اقترب من باب القصر طلب من الحرّاس مناداة النعمان ابن بشير فلما دخل القصر وتحصن به ونادى النعمان قائلًا: «لقد طال نومك»، وأزال اللثام عن فيه فعرفه ففتح له الباب وتنادى الناس ابن مرجانة، فحملوا عليه بالحجارة ففاتهم ودخل القصر وأغلق الأبواب.

في هذه الأثناء كان مسلم ابن عقيل في بيت الصحابي هانئ ابن عروة، الذي كان من أشد الموالين لأهل البيت عليهم السلام ورئيسًا لقبيلة بني مراد وهي القبائل الكبيرة في العراق وتمتلك أربعة آلاف فارس وثمانية آلاف مقاتل كلها تحت إمرته، وأوّل عمل قام به عبيد

الله ابن زياد بعد استلامه زمام الأمور وضعه الرصد على مسلم حتى علم بموضعه فوجه محمد ابن الأشعث بن قيس إلى هانئ ابن عروة فجاءه وسأله عن مسلم فأنكره، وقام هانئ بجمع بعض مقاتليه من حملة السيوف وذهب بهم إلى قصر ابن زياد وقبل أن يدخل القصر قال لجماعته: «إذا إرتفع صوتي أو أراد قتلي فاهجموا على القصر وأجهزوا على ابن مرجانة واقتلوه ومن معه»، ثم دخل إلى القصر برفقة ابن الأشعث وقد كان حضر في مجلس ابن زياد بعض رؤساء القبائل وقاضي الكوفة شريح، فسأل ابن زياد هانئ: «أين مسلم؟» فقال هانئ: «ليس عندي»، فرّد عليه ابن زياد بكلام خشن، ولما كان هانئ يعلم بالموقع المتزلزل لان زياد بين الناس وأن الناس مع مسلم أجابه بهدوء: «أن لزياد أبيك عندي بلاءً حسنًا، وأنا أحب مكافاته به فهل لك في خير؟» فقال ابن زياد: «وما هو؟» فقال هانئ: «تشخص إلى الشام أنت وأهل بيتك سالمين بأموالكم، فإنه قد جاء حق مَن هو أحق من حقك وحق صاحبك»، فصاح ابن زياد: «ادنوه مني! فضرب وجهه بقضيب كان في يده حتى كسر أنفه وشق حاجبه ونثر لحم وجنته، وكسر القضيب على وجهه ورأسه، وضرب هانئ بيده إلى قائم سيف شرطي من تلك الشرط فجاذبه الرجل ومنعه السيف، فصاح أصحاب هانئ من خارج القصر: قتل صاحبنا، فخافهم ابن زياد وأمر بحبسه في بيت إلى جانب مجلسه، وأخرج إليهم شريحًا القاضي، فشهد عندهم أنه حيّ لم يقتل فانصرفوا، وأخذ شريح يحاور نفسه حول الشهادة المزورة وهو يقول لنفسه: «كيف شهدت زورًا وعمري ٧٠ عامًا؟ كيف شهدت زورًا وأنا منذ إستلامي لمنصب القضاء كنت موضع ثقة واعتماد بعض الخلفاء والناس يعلمون بأني من صحابة الرسول ﷺ، فعندما يرون الجروح في دمه ورأس هانئ ألا يقولون إن شريحًا شهد

زورًا؟ لا لن أفعل». وبقي بين أمرين بين الخوف من انتقام ابن زياد وبين الخوف من تلك الشهادة الكاذبة وعواقبها حتى ذهب في نهاية المطاف إلى قبيلة بني مراد فقال شريح: «لا بأس عليه، إنما حبسه الأمير ليسأله»، فتفرقوا فعاد أصحاب هانئ إلى بيوتهم استناداً الى شهادة شريح المزورة، تلك الشهادة التي غيّرت مسار التاريخ لصالح ابن زياد وأدت إلى قتل هانئ بن عروة فذهب شهيدًا، ومهّدت لوقوع فجائع يوم عاشوراء.

غربة مسلم درس آخر للخواص

عندما سمع مسلم بمصير رفيقه هانئ ابن عروة نادى في الكوفة بشعار (يا منصور أمت)، وهذا الشعار المقدس كان يردده الرسول الأعظم ﷺ في غزواته ضد المشركين والكفار، واستمر أهل البيت عليهم السلام على ترداده في حروبهم من بعده. جمع مسلم ألف مقاتل، وتقدم بهم نحو قصر ابن زياد فأمر الأخير رؤساء القبائل والخواص الذين كانوا في القصر الصعود إلى سطح القصر وأمر كل واحد منهم أن ينادي جماعته من الذين جاؤوا لمحاصرة القصر مع مسلم بالابتعاد عن مسلم وتخويفهم بجيش الشام القادم، ونتيجة لذلك تفرق الناس عن مسلم.

وفي الحقيقة يمكن القول بأن أولئك الخواص لو لم يقوموا بتفريق الجيش عن مسلم لاستطاع أن يسجل موقفًا مصيريًا يغّير به مجرى التاريخ، والغريب من هؤلاء الخواص أنهم كانوا بالامس القريب قد كتبوا آلاف الرسائل إلى الحجاز تبايع الإمام الحسين عليه السلام وتدعوه إلى القدوم إلى الكوفة، وكتبوا كذلك بأنهم على أتم الاستعداد

للتضحية والفداء في سبيل أهل البيت عليهم السلام. أما بعد قدوم سفير الإمام مسلم بن عقيل وبسبب حب الدنيا والخوف من الموت نراهم ينكثون البيعة ويلتجأون الى بني أمية، ولم يكتفوا بذلك بل أخذوا يطالبون الناس بالابتعاد عن مسلم وكأنهم يوم كتبوا العهود والمواثيق ما كانوا يعرفون ابن زياد ولا جيش الشام. وشيئًا فشيئًا أخذ الذين كانوا مع مسلم ينصرفون عنه حتى تركوه وحيدًا وكانوا معه بالآلاف فأصبح ولا أحد معه غير نفسه، وبعد أن كانت له آمال كبار وأمان حسان تركوه كما يترك المسافر رفيقه الظامئ الجريح في الصحراء المحرقة لا ظل فيها ولا ماء لينجو بنفسه، غير مبال بما يصنع بصاحبه من بعده، وغشيته غاشية من القلق والانتظار، وبكى حزنًا على الأخلاق التي ضاعت والمروءة التي ودّعت هؤلاء الناس الذين تجردوا من كل الفضائل والقيم.

إن الأحاديث الكاذبة التي أدلى بها رؤساء القبائل أزالت الأمن والاستقرار من قلوب أنصارهم ومؤيديهم وفي لحظة من لحظات عذاب الضمير فكروا بالإمام وبمسلم ابن عقيل عليهما السلام، وكيف عاهدوهما على بذل المال والنفس في سبيل الدين، وفجأة ارتفع من أعلى قصر الإمارة صوت شيخ تعلّق قلبه بحب الدنيا، فقطع عليهم سلسلة أفكارهم وقال: «يا أهل الكوفة، لا تشقوا عصا المسلمين، ولا تفرقوا جمع المؤمنين، كفانا من تقاتل الأخوة، إرحموا نساء الكوفة وأطفالها، أيتها الساكتات، لماذا لا تأخذن بأيدي أبنائكن من لهيب هذه النار التي ستحرق الجميع؟ جيش الشام في الطريق، كيف يمكننا مواجهته بهذا العدد القليل؟ ماذا يظن مسلم؟ هل أن جيش الخليفة لعب وهزل؟».

في الصفوف الأخيرة سادت حالة من البلبلة، وكأن جماعة منهم قد ارتسمت معالم الخزي والعار على جباههم: «نحن ذاهبون... نحن ذاهبون أيضًا... أنا قادم أيضًا! إذا بايع أعيان الكوفة الأمير عبيد الله ابن زياد، فما عسانا أن نفعل؟ لا فائدة من القتال، تعالوا نذهب»

وقف مسلم يؤدي الصلاة بمفرده وكان يدعو: «أشهد أن لا إله إلّا الله وأشهد أن محمدًا عبدك ورسولك، لك الحمد، أنت مالك يوم الدين، إياك نعبد وإياك نستعين، اهدنا الصراط المستقيم»، وكأنه جالس في جنة الرضوان، بينما أهل الكوفة يتخبطون في ظلمات الجاهلية والنفاق، ودعا الله سبحانه في سجوده وقال: «إلهي أنت الشاهد على أن الحسين في الطريق، وقد فعلت ما بوسعي، ولكن أهل الكوفة لا يعرفون الله ولا ابن رسوله والعهد والميثاق»، ثم قال في نفسه: «إي نفس لا تخافي الموت ما دمت تقومين بواجبك». ولما انتهى من صلاته لم يجد أحداً ينصره، فأخذ يتجول وحيدًا فيما بين سكك الكوفة حيث لا ملجأ له غريبًا مخذولًا، فانتهى إلى باب إمرأة وسلم عليها وطلب منها الماء فسقته وجلس فقالت له: «من أنت؟» قال: «غريب ليس لي في هذا المصر منزل ولا عشيرة أنا مسلم ابن عقيل ابن عم الحسين بن علي عليه السلام»، وكانت تلك المرأة اسمها (طوعة) وهي من أقرباء الأشعث المعروف بنفاقه وغدره أيام حكومة أمير المؤمنين، بعد ذلك قامت بإدخال مسلم بسرعة إلى بيتها، فوصلت الأخبار إلى أسماع محمد ابن الأشعث وذلك عن طريق الجواسيس فقام بدوره بإخبار ابن زياد فقال له عبيد الله ابن زياد: «فليذهب محمد ابن الأشعث وعبد الله ابن عباس السلمي بسبعين رجلًا ويلقون القبض على مسلم ويأتون به إلى دار الإمارة». فلما وصلوا إلى الدار التي فيها مسلم خرج إليهم بسيفه حتى أخرجهم من الدار

ثم عادوا ثانية فأثخنوه بالجراح وحوصر ولم يستسلم، ولما رأوا ذلك منه أشرفوا على سطح الدار وجعلوا يرمونه بالحجارة ويلهبون النار في القصب ويلقونها عليه، فلما رأى ذلك راح يقاتلهم، فقال له محمد ابن الأشعث لك الأمان فلا تقتل نفسك فخرج عليهم وهو يقول:

أقسم لا أقتل إلّا حرًا

وإن رأيت الموت شيئًا نكرًا

كل إمرىء يومًا يلاقي شرّا

أخاف أن أكذب أو أغرّا

فقال له ابن الأشعث: «إنك لا تكذب ولا تخدع، القوم بنو عمك وليسوا بقاتليك ولا ضارّيك»، فأقبل إليه ابن الأشعث والناس يؤمونه وحملوه على بغلة وانتزعوا منه سيفه فعرف بالخديعة، ثم وصلوا به إلى القصر وهو مخضب بدمائه، وعندما كان على باب القصر رآه رؤساء قبائل الكوفة فقال لهم مسلم: «ها أنتم الذين أضفتم الناس بفعلكم يا طلاب الدنيا، لا إيمان لكم، نكثتم البيعة وجئتم تستجدون ابن مرجانة، كم الفرق بين البارحة واليوم، لكم انقلبتم سريعًا»، ثم أدخل إلى قصر ابن زياد بحضور أولئك الخواص الذين نكثوا البيعة وغدروا بهانئ ابن عروة من قبل، فأمر ابن زياد بإلقائه من أعلى قصر الإمارة فرموه وقضى نحبه شهيدًا مظلومًا وغريبًا من اجل هداية الناس إلى طريق الحق.

ديناميات الخواص

إن الخواص هم المثل الأعلى للعوام، وعلى الدوام تكون حركة العوام تبعًا لتحرك الخواص الذين يحددون بحركتهم مصير العوام، ومن هنا تبدأ المهمة الصعبة التي يتحملها الخواص لأن الأخطاء التي يقع بها هؤلاء في اللحظات المصيرية لا يمكن أن تُغفر.

فالخواص الذين عرفوا الحق وميّزوا الباطل لديهم القدرة على تحليل الوقائع واتخاذ القرارات المناسبة وكل ما يصدر عنهم له الأثر البالغ في حركة المجتمع، فهم يتحكمون بحركة الجماهير وإرادتها وطموحاتها. وفي هذه المناسبة لا بد من الإشارة إلى أن كثيرًا من الخواص الذين سلكوا طريق الحق وتركوا طريق الباطل نجدهم يتلكأون في مسيرهم، لماذا؟ الجواب هو أن مسؤولية حمل الأمانة في طريق الحق دائمًا تكون أصعب من انتخاب الطريق نفسه، وفي تاريخنا الكثير من الشخصيات التي سلكت طريق الحق لكنها في نقطة من نقاط الطريق الصعبة لم تستطع مواصلة السير في طريق ذات الشوكة فأنزلقت في طريق الباطل مختارةً طريق السكوت والذل فحبطت أعمالها. أمّا الخواص الذين سلكوا طريق الحق واستمروا عليه إلى آخر المطاف فلا بد لهم من صفتين مهمتين وهما البصيرة التي تعني الوعي واليقظة والصبر الذي يعني الصمود والمقاومة، إن هاتين الصفتين ضروريتان للسير والثبات على الصراط المستقيم، ومن صحابة النبي ﷺ الذين تجسدت فيهم هاتان الصفتان هو الصحابي الجليل عمار بن ياسر رضوان الله عليه، فقد كان رسول الله، يوصي من اراد أن يعرف جبهة الحق فلينظر إلى عمار في اي جهة يقف. ولما استشهد رضوان الله عليه في معركة صفين حدثت بعض الاضطراب

بين صفوف جيش الشام، والسؤال هنا لماذا؟ لأن رسول الله قال له يا عمار تقتلك الفئة الباغية ومعنى ذلك أن معاوية وجماعته هم الفئة الباغية ولم يستطع معاوية وعمرو ابن العاص إيقاف هذا الاختلاف بين صفوف الجيش إلّا بعد أن لجأوا إلى طريق المكر والخداع.

إن ثبات عمار على طريق الحق كان بفضل البصيرة والصبر اللتان كان يمتلكها على العكس من طلحة والزبير اللذين كان لهما الفضل الكبير في انتصارات الإيمان على الكفر في صدر الإسلام، لكنهما في لحظة من اللحظات المصيرية في التاريخ فشلوا في الصمود أمام مغريات الدنيا فانزلقوا في طريق الباطل فحبطت أعمالهم وخسروا دينهم ودنياهم وذلك هو الخسران المبين.

إن الخواص الذين سلكوا طريق الحق لا بد لهم من معرفة الشياطين واتباعهم في الدرجة الاولى ثم التعرف على كيفية التحكم بمسير العوام. ولنرى ما فعله طلحة والزبير وعائشة عندما طالبوا بدم عثمان وكيفية تحريضهم للعوام، بحيث أنّهم تمكنوا من تعبئة ثلاثين ألف إنسان من العوام وتجهيزهم للوقوف أمام جيش الإمام علي عليه السلام والنجاح في إشعال نار فتنة كبرى خدمت معاوية وشياطينه، وقد كان معاوية مستبشرًا بهذه الفتنة لانه كان يفكر بإثارة أمثالها. وقد حذّر الإمام الخميني من حبّ العظمة والتسلط بين العلماء والمسؤولين الكبار في الدولة، واعتبره وباءً كبيرًا حذّر منه بلفظ الجلالة (الله) ثلاث مرات في مجلس الخبراء، وأشار إلى النتائج الخطيرة المترتبة على هذا المرض الخطير من الغرور والتكبر وإتهام الآخرين وإيجاد الفرقة والإختلاف الذي يضر بمصحلة الإسلام والحكومة الإسلامية.

وبعد نجاح الثورة الإسلامية في إيران بقيادة الإمام الخميني قدّس

الله سره، وفي بداية حكم الجمهورية الإسلامية، أشاد الإمام ببعض الشخصيات بسبب بعض المواقف الإيجابية من الثورة والدولة، لكن هذه الشخصيات وبسبب إنحرافها عن خط الثورة الإسلامية مستقبلاً حكم عليها الإمام بالإنحراف وقام بطردها من مواقعها في الدولة.

إن التهويل الإعلامي والتحجيم الذي يلجأ إليه الأعداء له الأثر الكبير في إذعان ضعاف الإيمان، وهؤلاء نجدهم يخسرون الحرب في الجولة الأولى لأنهم مهزومون نفسيًا. وعلى عكسهم أقوياء الإيمان الذين يأتون إلى ساحة المعركة مجهزين بسلاح البصيرة والصبر بالإضافة إلى سلاح السيف والرمح، لذلك ينتصرون على عدوهم لأنهم نصروا الله فنصرهم، ما اعظم آية الله المدّرس ذلك البطل الشامخ عندما وجد ممثلي مجلس الأمة مبهوتين ساكتين لا يعرفون ماذا يفعلون أمام تهديدات الروس بغزو إيران وفتح طهران، فقام في المجلس وقال: «إذا كان لا بد من أن ننتهي فلماذا ننهي أنفسنا بأنفسنا؟»، فأعطى رأيًا مخالفًا وأحدث ضجة داخل قاعة المجلس ورد على تهديدات الروس: وبالفعل لم يستطيعوا عمل أي شيء تجاه إيران.

إن الذين يتأثرون بإشارة أو إبتسامة أو لقاء صغير مع العدو ويستسلمون لأيّ شكل من أشكال الضغط الإقتصادي أو السياسي أو الإعلامي نجدهم يساومون بعزة دينهم وأمتهم بأسرع وقت: إن هؤلاء وأمثالهم يواصلون السير في الدرب إذا رأوا الدرب مملوء بالزهور والرياحين وإن وجدوا في مسيرهم بعض الأشواك والعقبات أعرضوا عن دربهم وقائدهم ودينهم. ولهذا نقول إن الصمود والمقاومة في طريق الحق أعظم من الحق نفسه، وهذا الانعطاف الخطير في هذه المسيرة هو الذي يحدد مسار الخواص، فخواص أهل الحق يمرون

بسلام من هذا الانعطاف ويحصلون من الله على الأجر والثواب الجزيل والنعيم المقيم، وأمّا الخواص الذين انزلقوا في الانعطاف ووقعوا في أحضان الباطل سيكون مصيرهم النار والعذاب الأليم الخالد، فجزاء المجموعة الأولى النعيم والسعادة لأنها أدّت بالمجتمع إلى السعادة، وجزاء المجموعة الثانية الشقاء لأنها أدّت بالمجتمع إلى الشقاء. ولكي يتعرف عامة الناس على أهل الحق عليهم أن يعرفوا الحق فإذا عرفوه ومصاديقه فعند ذلك سيعرفون أهله كما قال أمير المؤمنين عليه السلام: «اعرفوا الحق تعرفوا أهله»، وهذه العملية لا تتم إلا عندما يتجرد الإنسان من الخضوع للهوى أو الشهوة او الجاه، وألا يبيع دنياه وآخرته من أجل التعصب الطائفي أو العنصري. إن محور الحق هو إمام الهدى العادل المتقي الشجاع الذي لا يساوم الاعداء على حساب دينه، وكل من دار في هذا المحور فهو عظيم ومن لم يدر فليس له قيمة تذكر حتى وإن كانت له سابقة في الإسلام.

(علي مع الحق والحق مع علي) والسلام.

الفصل الثالث

خطاب الإمام الخامنئي دام ظله في صلاة الجمعة التي أُقيمت في طهران

بتاريخ ١٣٧٧/٢/١٨هـ ش
١٩٩٨/٥/٨م - ١٣٧٧/٢/١٨

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمدلله رب العالمين، أحمده وأستعينه وأستغفره وأتوكل عليه وأصلي وأسلّم على حبيبه ونجيبيه وخيرته في خلقه وحافظ سره ومبلغ رسالاته، بشير رحمته ونذير نقمته سيدّنا ونبيّنا أبي القاسم المصطفى محمد وعلى آله الأطيبين الأطهرين المنتجبين المظلومين المعصومين، سيما أبي عبد الله الحسين عليه السلام وسيّما بقية الله في الأرضين الحجة بن الحسن عجّل الله فرجه.

أوصيكم عباد الله بتقوى الله، وأدعوكم للتقوى أولًا وآخراً وأحثّكم على التزود بزاد التقوى. وحتى البحوث التي نقدمها إنما نبغي من ورائها ترسيخ التقوى بعون الله في أنفسنا وتركيز دواعيها لدى الناس ولدى مستمعي صلاة الجمعة إن شاء الله. خطبتي الأولى في هذا اليوم لبحث واقعة عاشوراء، وهذا الموضوع أفاضت فيه الكثير من الكلمات والخطب وألقينا فيه بحوثًا ودراسات، إلّا أن جوانب وآفاق هذه الحادثة العظيمة الخالدة مهما بُحثت تبقى تشع منها أبعاد جديدة وتشرق منها مزيد من الأنوار فتسطع على حياتنا.

محاور البحث في واقعة عاشوراء

هنالك فيما يتعلق بمباحث عاشوراء، ثلاثة محاور أساسية:

الأول: دراسة علل ودوافع ثورة الإمام الحسين عليه السلام والأسباب التي أدت به إلى الثورة أي تحليل الدوافع الدينية والعلمية والسياسية لهذه الثورة، وسبق لنا وأن تحدثنا فيما مضى عن هذا الموضوع بالتفصيل، إضافة على ما للفضلاء والأكابر من دراسات قيّمة فيه، ولهذا فلا أتحدث اليوم عن هذا الجانب.

الثاني: هو بحث الدروس المستقاة من عاشوراء، وهو طبعاً بحث حيّ وخالد على مرّ الزمن، ولا يختص بزمن معّين دون سواه، فدرس عاشوراء هو درس التضحية والشجاعة والمواساة، ودرس القيام لله والإيثار والمحبة وأحد دروس عاشوراء في هذه الثورة الكبرى التي فجرتموها أنتم أبناء الشعب الإيراني إمتثالًا لنداء حسين العصر وحفيد أبي عبد الله عليه السلام، وهذا بحد ذاته واحد من دروس عاشوراء، ولا أريد حاليًا الدخول في أيّ حديث عن هذا الموضوع.

الثالث: هو العبر المستقاة من عاشوراء.

سبق لنا إثارة هذا الموضوع قبل عدة سنوات وأشرنا إلى أن لعاشوراء فضلًا عن الدروس المستفادة منه عِبر أيضًا، والبحث عن عاشوراء يختص بالزمن الذي تكون فيه الحاكمية للإسلام ويمكن القول على أدنى الاحتمالات أن مثل هذا البحث يختص الجانب الأساسي منه بمثل هذا الزمن الذي يوجب علينا وعلى بلدنا أخذ العبرة.

ورأينا طرح هذه القضية وفقًا للصيغة التالية، وهي كيفية إنحراف المجتمع الإسلامي الذي التف حول الرسول وأحبه وآمن به وامتلأ بالدين حبًّا وشغفًا، ونشأ وتنامى في ضوء الأحكام التي سنتحدث لاحقًا عن شيء منها، وفيه من أدرك عصر الرسول صلى الله عليه وآله وسلم كيف وصل به الحال بعد خمسين سنة أن يجتمع ويقتل سبط الرسول أبشع قتلة؟ وهل هناك إرتداد ونكوص وانحراف أشد من هذا؟ ألقت زينب الكبرى عليها السلام في سوق الكوفة خطبة عصماء بليغة تمحورت حول هذا، قالت فيها: «ألا يا أهل الكوفة يا أهل الختل والغدر، أتبكون»[١]، وذلك لأنهم حينما شاهدوا رأس الحسين على الرمح وبنت عليّ مسبيّة، ولمسوا عمق المأساة ضجّوا بالبكاء، «فلا رقأت الدمعة ولا هدأت الرنة»[٢]، ثم قالت: «إنما مثلكم كمثل التي نقضت غزلها من بعد قوّة أنكاثًا تتخذون إيمانكم دخلًا بينكم»[٣]. وهذا هو النكوص والإرتداد والتراجع، فأنتم في الحقيقة كالمرأة التي غزلت الصوف ومن بعد ما أتمته نقضت الغزل وعادت إلى ما كانت عليه وأنتم في

(١) بحار الأنوار، الجزء ٤٥، صفحة ١٠٩.

(٢) المصدر نفسه.

(٣) المصدر نفسه.

حقيقة الأمر نقضتم غزلكم وأعدتموه صوفًا، وهذا هو التراجع، وهذه عبرة.

كل مجتمع إسلامي معرّض لمثل هذا الخطر، لقد كانت أكبر مفخرة لإمامنا الخميني قدّس الله سره أنه حفّز الأمة على العمل بأحاديث الرسول ﷺ. وهل يمكن مقارنة غير الأنبياء وغير المعصومين بشخصية عظيمة كشخصية الرسول ﷺ الذي بنى ذلك المجتمع؟ ولكن انتهى الحال بذلك المجتمع الى اقتراف تلك الجريمة، فهل كل مجتمع إسلامي معرّض للانسياق لمثل هذه الخاتمة؟ من الطبيعي أنه إذا استعبر لا ينتهي إلى مثلها، ولكنه إذا لم يستعبر فمن الممكن أن يتسافل الى هذا الحد فهذه عبر عاشوراء.

أما نحن فقد وفقنا في هذا العصر بحمد الله وفضله لاقتفاء السبيل من جديد وإحياء إسم الإسلام في العالم، ورفع راية الإسلام والقرآن عالية، وكانت هذه المنقبة من نصيب الشعب الإيراني الذي مرّت على ثورته عشرون سنة تقريبًا، وهو ما انفك مرابطًا وصامدًا على هذا النهج، إلّا أننا إذا انتابتنا الغفلة ولم نحترس أو نحاذر ونثبت على المسار كما ينبغي فمن الممكن أن ننتهي إلى نفس ذلك المصير، وهنا يتضح معنى العبرة من عاشوراء.

أُريد حاليًا التوسع بالحديث في الموضوع الذي طرحته قبل سنوات ولاحظت والشكر لله، أن الفضلاء أفاضوا في دراسته وبحثه والكتابة فيه وإلقاء الكلمات حوله، ومن الطبيعي أن الإسترسال في شرح هذا الموضوع لا يستوعبه الوقت المخصص لخطبة صلاة الجمعة، فهو بحث مطول. وسأتناوله تفصيليًا وبكل خصائصه في غير اجتماع صلاة الجمعة إذا رزقني الله فسأعمل على إخراجه في

كتاب في قالب خطابي ليكون بين أيديكم. يجب أولًا وقبل كل شيء إدراك مدى فداحة تلك الواقعة حتى نتحرك ونتتبع أسبابها، لا يقصر نظر أحد على أن واقعة عاشوراء كانت في النهاية مذبحة قتل فيها مجموعة، كلا! بل إنها وكما نقرأ في زيارة عاشوراء: «لقد عظمت الرزية وجلّت وعظمت المصيبة».

ثلاث مراحل من حياة الحسين عليه السلام

ولأجل أن يتضح مدى عظم تلك الفاجعة، أستعرض بصورة إجمالية ثلاثة مراحل قصيرة من حياة أبي عبد الله الحسين عليه السلام، لنرى شخصية الحسين في هذه المراحل الثلاث. هل من الممكن أن يحتمل أحد أنه ينتهي بها المآل يوم عاشوراء إلى أن تحاصره حشود من أمّة جدّه وتقتله أشنع قتلة هو وأصحابه وأهل بيته وتسبي عياله؟ تتلخص المراحل الثلاث في:

أولًا: مرحلة الطفولة وتبدأ منذ نعومة أظافره إلى تاريخ وفاة الرسول صلى الله عليه وآله.

ثانيًا: مرحلة شبابه، أي خمس وعشرون سنة من وفاة جدّه إلى خلافة أمير المؤمنين عليه السلام.

ثالثًا: المرحلة التي استمرت عشرين سنة بعد استشهاد أمير المؤمنين إلى واقعة كربلاء.

ففي المرحلة الأولى، أي في عهد رسول الله كان الحسين طفلًا مدللًا ومحبوبًا عند رسول الله صلى الله عليه وآله، فقد كان لرسول الله بنت، وكان المسلمون يعلمون جميعًا آنذاك أنه قال: «إني لأغضب لغضب فاطمة

وأرضى لرضاها»[١]. فانظروا عظيم منزلة هذه البنت بحيث أن رسول الله يبجلها بهذه الكلمة وأمثالها في محضر المسلمين والملأ العام وليس هذا الأمر العادي. وزوّجها الرسول الكريم، لشخص كان ذروة في المآثر، زوّجها علي بن أبي طالب عليه السلام الذي كان شابًا شجاعًا شريفًا ومن أكثر الناس إيمانًا وأسبقهم إلى الإسلام، وأكثرهم مشاركة في كل ميادينه، علي من قام الإسلام بسيفه، هذا الصهر العزيز المحبوب الذي لم تكن محبته منطلقة من وازع القرابة وما شاكلها من الوشائج وإنما كانت إنطلاقًا من عظمة شخصيته، ولهذه الأسباب زوّجه ابنته، فكان من نسلهم الحسين وهذا الكلام يصدق كله أيضًا على الإمام الحسين عليه السلام، إلّا أن كلامي من هنا يدور حول حول الإمام الحسين عليه السلام أعزّ عزيز عند الرسول، الذي كان زعيم العالم الإسلامي وحاكم المسلمين ومحبوب كل القلوب، يضمه بين ذراعيه ويصحبه إلى المسجد والمسلمون كانوا يعلمون أن هذا الطفل هو محبوب قلب الرسول الذي تذوب القلوب جميعًا في محبته، فحينما كان الرسول يلقي خطبة من فوق المنبر علقت رجل هذا الطفل بعائق فسقط على الأرض فنزل الرسول صلى الله عليه وآله وسلم، من فوق المنبر واحتضنه ولاطفه. لاحظوا، هكذا كانت محبة الحسين عليه السلام عند الرسول.

قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، عن الحسن والحسين وهما آنذاك في السابعة والسادسة من عمريهما: «الحسن والحسين سيدا شباب أهل الجنة»[٢]. قال فيهما هذا القول وهما لازالا طفلين، أيّ أنهما حتى وإن كانا في تلك السن إلّا أنهما يفهمان ويدركان ويعملان كمن هو في سن

(١) بحار الأنوار، الجزء ٤٣، صفحة ٤٤.

(٢) المصدر السابق، الجزء ١٠، صفحة ٣٥٣.

الشباب، ويفوح الأدب والشرف من جبينهما. ولو قال قائل حينذاك أن هذا الطفل سيقتل على يد أمة هذا الرسول بلا جُرم أو جريرة، ما كان يصدّقه أحد مثلما صرّح رسول الله نفسه بتلك الحقيقة المرّة وبكى لها، وتعجب في وقتها الجميع مستنكرين إمكانية حدوث عمل كهذا.

المرحلة الثانية هي الفترة التي استمرت خمسًا وعشرين سنة من وفاة الرسول إلى خلافة أمير المؤمنين عليه السلام، إذ كان عليه السلام شابًّا متوثبًا وعالمًا وشجاعًا، شارك في الحروب وخاض شدائد الأمور، كان معروفًا عند الجميع بالعظمة. وعندما يأتي ذكر الكرام تشخص إليه الأبصار وتحوم حوله الأذهان، واسمه يسطع بين جميع مسلمي مكة والمدينة وحيثما امتد الإسلام بكل فضيلة ومكرمة. والكل ينظر إليه والى أخيه باحترام وتكريم، وحتى خلفاء ذلك العصر كانوا يبدون لهما التعظيم والإجلال وكان مثالًا لشباب ذلك العهد. وهكذا لو أن شخصًا قال آنذاك أن هذا الشاب سيقتل على يد هذه الأمة لما صدّقه أحد.

المرحلة الثالثة، هي تلك المرحلة التي حلّت من بعد شهادة أمير المؤمنين عليه السلام، وكان دور غربة أهل البيت عليهم السلام، فكان الإمامان الحسن والحسين عليهما السلام يقيمان خلال تلك المدة في مدينة الرسول. بعد مقتل أمير المؤمنين بعشرين سنة، انحصرت الإمامة في الحسين على جميع المسلمين وإن لم تكن الخلافة في يده، وبدى مفتيًا كبيرًا، وزاد احترامه عند الجميع وأضحى عُروة يتمسك بها كل من يريد التمسك بأهل البيت عليهم السلام، فكان ذا شخصية محبوبة ورجلًا شريفًا نجيبًا أصيلًا عالمًا، حتى أنه بعث في ذلك الوقت بكتاب إلى معاوية لو كان غيره كتبه لأيّ حاكم لكان جزاؤه القتل، إلاّ أن معاوية حينما وصله

الكتاب تلقاه بكل تكريم وقرأه متغاضيًا عما جاء فيه، ثم لو أن أحدًا كان يقول في ذلك الوقت أن هذا الرجل الشريف الكريم العزيز النجيب الذي يجسّد الإسلام والقرآن في نظر كل ناظر، سيقتل عمّا قريب على يد أمة الإسلام والقرآن قتلة شنيعة، لم يكن أحد ليتصور صحة ذلك، إلّا أن هذه الواقعة العجيبة البعيدة عن التصور قد حصلت فعلًا.

ولكن من الذي فعل ذلك؟ فعله أولئك الذين كانوا يتردوون عليه ويوالونه ويعربون له عن محبتهم وإخلاصهم، فما معنى هذا؟ معناه أن المجتمع الإسلامي أفرغ طوال الخمسين سنة من قيمه المعنوية وجرّد من حقيقة الإسلام، فكان ظاهره إسلاميًا وباطنه خاويا. وهنا هو مكمن الخطر، فالصلوات تقام وصلاة الجماعة موجودة، والأمة توصف بالأمة المسلمة، وحتى أن البعض منها يوالي أهل البيت. أؤكد لكم أن العالم الإسلامي كله كان ولا زال يعتقد بأهل البيت عليهم السلام، ولا أحد يشك في هذا، إن حبَّ أهل البيت ظاهرة مشتركة بين جميع المسلمين في الماضي والحاضر، وأينما تذهب اليوم في أرجاء العالم الإسلامي تجد المسلمين يحبون أهل البيت عليهم السلام، فالمسجد المسمى باسم الحسين والمسجد الآخر المسّمى باسم السيدة زينب في القاهرة تجدهما حاشدين على الدوام بحموع الزوار حيث يرتادهما المسلمون ويزورون القبر ويقبلونه ويتوسلون إلى الله.

جاؤني في الفترة الأخيرة أي قبل سنة أو سنتين بكتاب جديد، الكتب القديمة مشحونة بهذا المعنى إنما ذكرته لكونه جديدًا عن أهل البيت عليهم السلام، وحققه أحد الكتاب الحاليين في الحجاز. يثبت هذا الكتاب أن أهل البيت عليهم السلام هم عليّ وفاطمة والحسن والحسين عليهم السلام، وهذا المعتقد جزء من أرواحنا نحن الشيعة إلّا أن هذا الأخ المسلم الذي

لا ينتمي للشيعة، كتب هذا الكتاب ونشره، والكتاب موجود ولدّي نسخة منه، ولا بد أن آلاف النسخ منه طبعت ووزعت، ومعنى هذا أن أهل البيت يحظون بالاحترام والقبول لدى جميع المسلمين وكانوا في ذلك العصر يلقون غاية التكريم والمحبة، ولكن في الوقت نفسه حينما يصبح المجتمع خاويًا تقع مثل تلك الحادثة، ولكن أين العبرة من هذا؟ تكمن العبرة فيما ينبغي علمه لكيلا ينزلق المجتمع إلى مثل ذلك المآل، وهذا ما يوجب علينا فهم الظروف التي ساقت المجتمع إلى تلك النهاية، وهذا هو البحث المطول الذي أريد أن أقدم لكم موجزه.

ركائز بنية النظام النبوي

أشير أولًا وكمقدمة للموضوع إلى أن رسول الله أرسى أسس نظام كانت بُناه الأساسية تقوم على عدة ركائز، تعتبر أربعة منها الثقل في ذلك البناء وهي:

الأول: المعرفة المتقنة الخالية من الغموض في شؤون الدين، ومعرفة الأحكام والمجتمع والتكليف، ومعرفة الله ورسوله ومعرفة الطبيعة، وهذه هي المعرفة التي أنهت إلى تراكم العلوم وبلغت بالمجتمع الإسلامي في القرن الرابع للهجرة ذروة المدنية والحضارة العلمية، فالرسول الكريم ﷺ لم يترك أي إبهام وغموض. ولدينا في هذا الصدد آيات مدهشة من القرآن الكريم لا مجال هنا لذكرها، وحيثما كان هناك موضوع غموض أو إلتباس كانت تنزل آية تجليه.

الثاني: العدالة المطلقة التي لا محاباة فيها سواء في حق القضاء، أم في حقل الإستحقاقات العامة، لا ما يتعلق بحقه الشخصي إذ كان ﷺ يعفو عن حقه، أي العدل التام فيما يتعلق بعامة الناس ويجب

تقسيمه بينهم بالعدل، وكذا العدالة في تطبيق حدود الله، وفي توزيع المناصب وتفويض المسؤوليات، وتحمل المسؤولية.

ومن البديهي أن العدالة غير المساواة، لا يلتبس الأمر عليكم فقد يكون في المساواة ظلم أحيانًا، بينما العدالة تعني وضع كل شيء في نصابه وأعطاء كل شخص حقّه. فقد كان العدل حينذاك عدلًا مطلقًا لا تشوبه شائبة ولم يكن في عهد الرسول إستثناء لأيّ شخص يجعله خارج إطار العدالة.

الثالث: العبودية الخالصة لله والخالية من أي شرك، أي العبودية لله في العمل الفردي، العبودية في الصلاة حيث يجب أن يكون فيها قصد التقرب إليه، وكذلك العبودية له في بناء المجتمع وفي النظام الحكومي وفي نظام الحياة، والعلاقات الإجتماعية بين الناس، وهذا موضوع يستلزم شرحًا مستفيضًا.

الرابع: المحبة الغامرة والعاطفة الفياضة، وهذه من السمات الأساسية للمجتمع الإسلامي، حب الله وحبه تعالى للناس ﴿يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ﴾[١]، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ﴾[٢]، ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ﴾[٣]، الحب، حب الزوجة وحب الأولاد، من المستحب تقبيل الأولاد ويستحب محبتهم، ويستحب حب الزوجة ويستحب حب الأخوة المسلمين والتحبب إليهم، والأعظم هو حبُّ الرسول وأهل بيته قال تعالى: ﴿إِلَّا ٱلْمَوَدَّةَ فِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾[٤].

---

(١) سورة المائدة، الآية ٥٤.

(٢) سورة البقرة، الآية ٢٢٢.

(٣) سورة آل عمران، الآية ٣١.

(٤) سورة الشورى، الآية ٢٣.

لقد رسم الرسول هذه الخطوط العريضة وأرسى ركائز المجتمع على أساسها، ووضع معالم الحكومة عشر سنوات على هذا المنوال. ومن الواضح طبعاً أن تربية الناس تأتي على نحو تدريجي ولا تتحقق جملة واحدة، وبذل الرسول قصارى جهده على إمتداد هذه السنوات العشرة لترسيخ تلك الأسس، والعمل على مد تلك الجذور في أعماق الأرض، إلّا أن فترة العشر سنوات تعتبر قصيرة جدًا إذا ما أريد بها تربية الناس على خلاف ما كانوا قد ترعرعوا عليه من سجايا وخصائص، فقد كان المجتمع الجاهلي في كل شؤونه على النقيض تماماً من مضامين هذه الركائز الأربعة، لأنه كان فارغاً من أية معرفة وغارقًا في حيرة الجهل والضلال ولم تكن لديه أيّة عبودية لله، بل كان مجتمع تجبر وطغيان وكان مجتمعًا بعيدًا عن العدالة ومليئًا بألوان الظلم والتمييز.

رسم أمير المؤمنين عليه السلام في الخطبة الثانية من نهج البلاغة صورةً فنيةً رائعةً عما كان سائدًا في العصر الجاهلي من ظلم وتمييز، جاء فيها: «في فتن داستهم بأخفافها ووطأتهم بأظلافها». كان المجتمع آنذاك مجرداً من معاني المحبة، كانوا يئدون بناتهم، وكانت كل قبيلة تثأر لقتيلها من أي رجل تجده من قبيلة (القاتل)، سواء كان مستحقًا للقتل أم غير مستحق، وسواء كان مجرمًا أم بريئًا، وسواء كان عالمًا بتلك القضية أم لا، كان يسودهم الإضطهاد والقسوة والغلظة والفضاضة المطلقة. من نشأ في تلك الحالة يمكن أن يصلح ويهّذب على مدى عشر سنوات إن تحققت شروط ذلك، ويمكن إدخاله في الإسلام، ولكن لا يمكن غرس هذه القيم والمفاهيم في أعماق نفسه إلى الحد الذي يجعل لديه القدرة على إيجاد نفس هذا التأثير على الآخرين.

دخل الناس في الإسلام أفواجًا أفواجًا، ودخل الإسلام أناس لم يعايشوا الرسول ﷺ ولم يدركوا تلك السنوات العشرة مع النبي، وهنا تتجلى مسألة الوصية التي يعتقد بها الشيعة، ويكمن منشأ الوصية والنص الإلهي من اجل ديمومة النهج التربوي، وإلّا فمن الواضح أنّها ليست من سنخ أنواع الوصايا الأخرى المتداولة في هذا العالم، فكل إنسان يوصي قبل وفاته لابنه، إلّا أن القضية هناك تعني لزوم استمرارية نهج الرسول من بعده. لا أريد الدخول في المباحث الكلامية، بل أريد تناول التاريخ بشيء من التحليل ولتتناولوه أنتم أيضًا بمزيد من التحليل، لهذا البحث طبعًا صلة بالجميع ولا يختص بالشيعة وحدهم، فهو للشيعة وللسنة ولجميع الفرق الإسلامية على حد سواء، ونظرًا لما يتصف به من الأهمية يجب أن يحظى إذن باهتمام من قبل الجميع.

المجتمع الإسلامي بعد وفاة الرسول ﷺ

وأمّا عن الوقائع التي جرت من بعد رحيل الرسول، فما الذي دفع بالمجتمع الإسلامي خلال تلك الخمسين سنة للنكوص عن تلك الحالة إلى هذه؟ وهذا هو أصل القضية، ويجب أن يلاحظ متن التاريخ بشأنها. من البديهي أن البناء الذي بناه الرسول ما كان لينهار بهذه السهولة، ولهذا نلاحظ أن من بعد رحيل الرسول، استمرت عامة الأمور باستثناء قضية الوصية على ما كانت عليه، فكانت العدالة في وضع حسن، والذكر في حالة حسنة والعبادة على ما يرام، وإذا نظر المرء إلى الهيكل العام للمجتمع الإسلامي في سنواته الأولى يجد الأمور كما كانت ولم يرجع شيء القهقري. نعم كانت تقع بعض الحوادث بين الفتنة والأخرى إلّا أن ظواهر الامور كانت تعكس بقاء نفس الأسس

والركائز التي وضعها الرسول ﷺ، بيد أن ذلك الوضع لم يدم طويلًا، فكلما كان الوقت يمضي كان المجتمع الإسلامي ينحدر صوب الضعف والخواء.

ثمة نقطة في سورة الحمد أشرتُ إليها عدة مرات في لقاءات مختلفة، فحينما يدعو الإنسان ربّه: ﴿ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ﴾، يوضح بعدها معنى ذلك الصراط المستقيم في قوله: ﴿صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِمۡ﴾، فهو تعالى قد أنعم على كثير من الأقوام والأمم فأنعم على بني إسرائيل ﴿يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتِيَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ﴾[1]، والنعمة الإلهية لا تختص بالأنبياء والصالحين والشهداء ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَۚ وَحَسُنَ أُوْلَٰٓئِكَ رَفِيقٗا﴾[2] هؤلاء أيضًا نالوا النعمة وكذلك بنو إسرائيل نالوا النعمة.

والذين يُنعم عليهم فريقان:

فريق حينما ينال النعمة لا يتعرض لغضب الله، ولا يحقق دواعي الغضب الإلهي ولا يضل سبيل الهداية، وهؤلاء هم الذين ندعوا الله أن يهدينا سبيلهم وعبارة ﴿غَيۡرِ ٱلۡمَغۡضُوبِ عَلَيۡهِمۡ﴾ تمثل في الحقيقة صفة ﴿ٱلَّذِينَ أَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِمۡ﴾ أي صفة ﴿ٱلَّذِينَ﴾ هي ﴿غَيۡرِ ٱلۡمَغۡضُوبِ عَلَيۡهِمۡ﴾.

امّا الفريق الآخر فهم الذين حينما أنعم الله عليهم بدّلوا النعمة وتمرّدوا عليها ولهذا حلّ عليهم غضبه، أو أنهم إئتموا بأولئك فضلّوا السبيل. وتشير رواياتنا إلى أن المراد من ﴿ٱلۡمَغۡضُوبِ عَلَيۡهِمۡ﴾ هم اليهود، وهذا البيان مصداق لتلك الحقيقة، لأن اليهود وحتى زمن

(١) سورة البقرة، الآية ٤٠.

(٢) سورة النساء، الآية ٦٩.

النبي عيسى كانوا يحاربون النبي موسى وأوصياءه عن علم وقصد، أمّا ﴿ٱلضَّآلِّينَ﴾ فهم النصارى، إنهم وصلوا بادئ بدء أو ضل أكثرهم على أدنى الاحتمالات حينما أنعم الله عليهم. أمّا المسلمون فأنزل الله عليهم نعمته إلّا أن النعمة تبدّلت نتيجة لما إقترفوه، ولهذا ورد عن الإمام الصادق عليه السلام، أنه قال: «لما قُتل الحسين اشتدّ غضب الله على أهل الأرض»[1]، وذلك لأنه إمام معصوم. ويفهم من هذا أن المجتمع الذي ينال النعمة الإلهية قد يسير في اتجاه يجلب عليه غضب الله، ولهذا يجب توقي أقصى درجات الدقة والحذر في المسير، وهو أمر عسير طبعًا ويستلزم الإنتباه واليقظة.

بعض النماذج من الخواص

أورد ما يلي بعض الأمثلة، فالخواص والعوام أصبح لكل منهما وضعه الخاص به، فإذا ضل الخواص قد يدخلون في خانة ﴿ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ﴾، أمّا العوام قد يصبحون في فئة ﴿ٱلضَّآلِّينَ﴾. وكتب التاريخ زاخرة طبعًا بالمصاديق والأمثلة، وسأنقل لكم من هنا فصاعدًا مما جاء في تاريخ ابن الأثير، وأجتنب النقل من أي مصدر شيعي، بل ولا أنقل حتى من مصادر التاريخ السنية التي يشكك السنة في رواياتها، مثل ابن قتيبة الدينوري، إذ جاء في كتابه (الإمامة والسياسة) أمور وقضايا تثير الحيرة والعجب، وحينما ينظر المرء إلى مضامين كتاب ابن الأثير الموسوم بـ (الكامل في التاريخ) يشعر بوجود عصبيه أُموية وعثمانية فيه، أحتمل انه انتهج ذلك الأسلوب مداراة لبعض الإعتبارات، فقد

(١) أصول الكافي، الجزء الأول، صفحة ٣٦٨.

نقل هذا المؤرخ عن أحداث مقتل عثمان، أن عثمان قتله أهل مصر والكوفة والبصرة والمدينة وغيرهم، وبعدما نقل نصوص وأخبار تأريخية مختلفة يقول: «وقد تركنا كثيرًا من الأسباب التي جعلها الناس ذريعة إلى قتل عثمان لعلل دعت إلى ذلك»، وعند نقله لقصة أبي ذر وكيف أن معاوية حمله إلى المدينة من الشام بغير وطاء، ونفاه عثمان من المدينة الى الربذة بصورة شنيعة، قال: «وقد حصلت أمور لا يصُح نقلها». وعلى هذا فأمّا أن يكون المؤرخ قد انتهج أسلوبًا من الرقابة الشخصية حسب التعبير المعاصر، وأمّا أن يكون متعصبًا، وهو على كل الأحوال لم يكن شيعيًا ولا يميل إلى التشيع، بل يحتمل أنه كان أموي وعثماني الهوى. وأؤكد ثانيةً على أن كل ما سأورده بعد الآن إنما عن ابن الأثير هذا.

أنقل فيما يلي أمثلة عن الخواص، كيف كان الخواص على امتداد هذه السنوات الخمسين بحيث وصلت الأمور إلى هذا الحد؟ وحينما ادقق النظر في أحداث وظروف ذلك العصر ألاحظ أن هذه الركائز الأربعة: العبودية، والمعرفة والعدالة والمحبة قد تزعزت، وأضرب لكم بعض الأمثلة كما وردت في التأريخ عينًا.

مزرعة النشاستج الكبيرة

كان سعيد ابن العاص من بني أمية ومن أقارب عثمان، وقد تولى بعد الوليد بن عقبة بن أبي معيط، والوليد هو الشخص الذي شاهدتم مقتطفات من حياته في المسلسل التلفزيوني (الإمام علي عليه السلام)، والذي وقع مقتل الساحر في محضره ليصلح ما كان قد أفسده الوليد. قال ذات يوم رجل في مجلسه: «ما أجود طلحة»، ولا بد أن طلحة كان

قد وهب أحداً مالًا أو تكرّم على شخص، فقال سعيد: «أنمّن له مثل النشاستج لحقيق أن يكون جوادًا»، وكانت النشاستج ضيعة كبيرة قرب الكوفة يملكها صحابي الرسول طلحة بن عبد الله الذي كان يعيش حينذاك في المدينة، ثم أردف قائلًا: «والله لو أن لي مثله لأعشاكم الله عيشًا رغـدًا»، قارنوا بين هذا الوضع وبين حالة الزهد في عهد الرسول ﷺ والفترة الأولى من بعد رحيله، ولاحظوا طبيعة الحياة التي كان يعيشها الأكابر والأمراء والصحابة في تلك السنوات وكيف كانوا ينظرون إلى الدنيا. لقد وصلت الأمور إلى هذا الحد من بعد مضي عشر أو خمس عشرة سنة فقط.

أخرج ثقله عن قصره على أربعين بغلا

المثال الآخر هو أبو موسى الأشعري والي البصرة. وهو صاحب الموقف الشهير في قضية التحكيم، فقد صعد المنبر ذات يوم حينما كان واليًا على البصرة وكان الناس يستعدون لإحدى الغزوات، فنادى في الناس وحثّهم على الجهاد وذكر شيئًا في فضل الجهاد ماشيًا، فترك نفر دوابهم وأجمعوا أن يخرجوا رجالةً طمعًا في الثواب، فحملوا على فرسهم (أي طردوها من أمام أعينهم لأنه تحرمهم من الثواب) إلّا أن جماعة من العقلاء فضّلوا التأمل ومشاهدة حقائق الأمور وقالوا لا نعجل في شيء حتى ننظر ما يصنع، فإن أشبه قوله فعله فعلنا كما يفعل.

جاء في نص عبارة ابن الأثير في هذا الصدد: «فلما خرج أخرج ثقله من قصره على أربعين بغلًا»، كانت تلك ممتلكاته الثمينة وكان مضطرًا الى اصطحابها أينما حلّ وارتحل، حتى في ميادين الجهاد،

وسبب ذلك أنه لم تكن ثمة مصارف أو بنوك في ذلك العصر. أضف إلى أن الحكومات لا اعتبار لها، فقد يأتيه الأمر من الخليفة وهو في ساحة الجهاد يعزله من منصبه، وإذا حصل ذلك لا يمكنه الرجوع إلى البصرة وأخذ تلك الأموال، لذلك كان مضطرًا لحملها معه. فحمل ممتلكاته الثمينة على أربعين بغلًا واخذها معه إلى ميدان الجهاد، فلما خرج جاءه قوم وتعلّقوا بعنانه وقالوا احملنا على بعض هذه الفصول وارغب في المشي كما رغّبتنا، فضرب القوم بسوطه فتركوا دابته فمضى، إلّا أنهم طبعًا لم يتحملوا ذلك منه بل ذهبوا إلى المدينة وشكوه إلى عثمان فعزله.

إن أبا موسى الذي كان من صحابة الرسول ومن طبقة الخواص، كان على مثل هذا الحال.

امتنع عن إعادة الاموال التي اقترضها من بيت المال

المثال الثالث هو سعد بن أبي وقاص الذي عُيّن واليًا على الكوفة. اقترض سعد مالًا من بيت المال، ولم يكن بيت المال بيد الوالي، لأنهم كانوا في ذلك العصر ينصبّون الوالي للقيام بأمور الحكومة وإدارة شؤون الناس، وينصّبون شخصًا غيره للشؤون المالية وهو مسؤول أمام الخليفة مباشرة، وحينما عيّن سعد ابن أبي وقاص واليًا على الكوفة كان خازن بيت المال عبد الله ابن مسعود وكان صحابيًا جليلًا. بعدما اقترض سعد من عبد الله ابن مسعود من بيت المال مالًا تقاضاه ابن مسعود بعد مدة، فلم يتيسر له قضاؤه فارتفع بينهما الكلام واشتد النزاع، وكان هاشم بن عتبة بن أبي وقاص حاضرًا، وهو من أصحاب أمير المؤمنين عليه السلام، وكان رجلًا شريفًا فقال: «إنكما لصاحبا رسول

الله والناس ينظرون إليكما لا تتنازعا وحاولا حل القضية بينكما على نحو ما»، فخرج ابن مسعود وكان رجلًا أمينا، ثم استعان بأناس على استخراج المال من دار سعد، وهذا يعني أن المال كان موجودًا، ولمّا علم سعد استعان بأناس آخرين على منع أولئك، ونتجت عن مماطلة ابن أبي وقاص في رد الأموال منازعة شديدة، فإذا كان سعد بن أبي وقاص وهو من أصحاب الشورى الستة قد وصل به الأمر إلى هذا الحد بعد بضع سنوات، بحيث وصف ابن الأثير تلك الحادثة بالقول: «فكان أول ما نزغ به بين أهل الكوفة»، فأول نزاع يقع بين أهل الكوفة بتعبير ابن الأثير، سببه رجل من الخواص تغلّب عليه حب الدنيا إلى هذا الحد.

اشتري جميع هذا الخمس بخمسمائة درهم

المثال الآخر هو أن المسلمين لمّا فتحوا بلاد افريقيا وقسموا الغنائم في الجيش، كان يجب عليهم إرسال خمس تلك الأموال إلى المدينة، وكان مقدارها هائلاً.

نقلًا عن ابن الأثير في موضع آخر، أن هذا المبلغ (الخمس) حينما أرسل إلى المدينة اشتراه مروان ابن الحكم بخمسمائة ألف درهم، وكان هذا المبلغ ضخمًا جدًا، إضافة إلى أن قيمة ذلك الخمس كانت أكبر من ذلك المبلغ بكثير؛ وكان هذا مما أخذ على الخليفة عثمان فيما بعد. وكان عثمان عن ذاك طبعًا ويقول: «إنه رحمي، وأنا أصلُ به رحمي لأنه يعيش في ضنك وأنا أريد مساعدته». خلاصة القول هي أن الخواص كانوا يتهافتون على جمع الأموال.

انظروا إلى تغيّر المعايير والموازين وتبدل أحوال الناس

والقضية الأخرى هي أنه عزل (عثمان) سعد بن أبي وقاص عن الكوفة واستعمل الوليد بن عقبة بن أبي معيط، وكان الأخير من أقارب الخليفة؛ ولمّا دخلها تعجب أهلها من تولية هذا الشخص عليه لأنه كان معروفًا بالحماقة والفساد، وفيه نزلت الآية الشريفة: ﴿إِن جَآءَكُمْ فَاسِقُۢ بِنَبَإٖ فَتَبَيَّنُوٓاْ﴾[1]، أي أن القرآن وصفه بالفسق لأنه جاء بخبر عاد بالضرر على البعض في عهد الرسول. أنظروا إلى المعايير وتبدّل أحوال الناس؛ فهذا الشخص الذي سماه القرآن الذي كان الناس يقرؤون يوميًا فاسقاً، أصبح واليًا. وحتى أن سعد بن أبي وقاص نفسه، وعبد الله بن مسعود تعجبا حين شاهداه قادمًا الى الكوفة واليًا، وقال له عبد الله ابن مسعود لما وقع بصره عليه: «ما أدري أصلحت بعدنا أم فسد الناس؟». وكانت دهشة سعد بن أبي وقاص من بعد آخر، حيث قال له: «أكست بعدنا أم حمقنا بعدك؟»فقال له الوليد: «لا تجر عنَّا أبا اسحاق، كل ذلك لم يكن إنما هو الملك يتغداه قوم ويتعشاه آخرون»، فتألم سعد بن أبي وقاص من هذا الكلام، فهو من صحابة الرسول ﷺ، وقال له: «أراكم جعلتموها ملكًا». كان عمر سأل سلمان ذات مرة: «أملك أنا أم خليفة؟»، وكان سلمان شخصية كبيرة ومحترمة وهو من الصحابة الكبار ولرأيه وزن كبير، فقال له سلمان: «إن أنت جبيت من أرض المسلمين درهمًا او أقل أو أكثر ووضعته في غير حقّه فأنت ملك لا خليفة». لقد بيّن له المعيار، قال ابن الأثير: «فبكى عمر»؛ فقد كانت موعظة عميقة المغزى حقًا. فالقضية قضية

(١) سورة الحجرات، الآية ٦.

خلافة، والولاية والخلافة معناها الحكومة المقرونة بالمحبة والتلاحم مع الجماهير، ويواكبها عطف وحنو على أبناء الشعب، وهي ليست تسلط او تحكم، في حين لا تحمل الملكية مثل هذا المعنى ولا شأن لها بشؤون الناس، فالملك حاكم متسلط يفعل ما يشاء. هكذا كان حال الخواص، والى هذا الحد انتهى بهم المآل خلال تلك السنوات، وهذا ما حصل طبعًا في عهد الخلفاء الراشدين الذين كانوا يولون أهمية للتمسك بالأحكام، بسبب معايشتهم فترة طويلة لعهد الرسول الذي لا زال صداه ﷺ يدوّي في المدينة حتى ذلك الحين، وكان شخص كعلي ابن أبي طالب حاضرا في ذلك المجتمع، ولكن بعد انتقال مركز الخلافة إلى دمشق تجاوزت القضية تلك الحدود كثيرًا. كانت هذه أمثلة بسيطة لما كان عليه أحوال الخواص، ولو نقّب شخص في تاريخ ابن الأثير أو المصادر التأريخية الأخرى المعتبرة لدى الاخوة المسلمين، لعثر على آلف الأمثلة من هذا القبيل.

عندما تضيع المعايير

من الطبيعي حينما تضيع العدالة وحينما تزول عبودية الله أن يصبح المجتمع مجتمعًا خاويًا وتفسد النفوس. كذلك المجتمع حين يصل به التهافت على حطام الدنيا وإكتناز الثروة إلى ذلك الحد، والشخص الذي ينقل فيه المعارف للناس هو كعب الاحبار اليهودي الذي أسلم لاحقًا ولم يدرك عهد الرسول ﷺ، وهو لم يدخل الإسلام في عهد الرسول، ولا في عهد أبي بكر وإنما في عهد عمر، وتوفيّ في عهد عثمان. ما بالك بذلك المجتمع؟ يقول البعض أن تسمية هذا الرجل بكعب الأخبار خطأ، وإنما هو كعب الأحبار، والأحبار جمع حَبر والحبر

هو عالم اليهود وهذا الرجل كان قطب علماء اليهود؛ وثب فدخل في الإسلام، ثم أخذ يتحدث في مسائل الإسلام، وكان ذات يوم جالساً في مجلس عثمان إذ دخل أبو ذر، فقال قولًا أغضب أبا ذر، فقال أبو ذر: «مالك ها هنا؟ أتعلمنا الإسلام واحكامه ونحن سمعناها من رسول الله؟». حينما تفتقد المعايير وتضيع المقاييس وتتقوّض القيم، وتفرغ القضايا من المحتوى، وتقتصر على الظواهر، وحينما يستولي حب الدنيا وجمع المال على أناس قضوا عمرًا مديدًا بالعزة والزهد والإبتعاد عن زخارف الدنيا وقيّض لهم نشر تلك الراية عاليًا، حينها يتصدى لشؤون الثقافة والمعرفة مثل ذلك الشخص الذي اعتنق الإسلام لاحقًا، ويطرح باسم الإسلام ما يراه هو شخصيًا لا ما يقوله الإسلام، ثم يريد البعض تقديم قوله على قول مسلم له سابقة في الإيمان.

إنحراف الخواص في المجتمع يؤدي الى إنحراف العوام

هذا حال الخواص؛ ثم إن العوام يتبعون الخواص ويسيرون وراءهم حيثما ساروا، ولهذا فإن من أكبر الجرائم التي ترتكبها الشخصيات البارزة المتميزة في المجتمع هي انحرافها، لأن انحرافها ينتهي الى انحراف الكثير من الناس الذين إذا رأوا القيم قد خرقت وأن الأعمال تناقض الأقوال وتناقض ما جاء في سنة الرسول، تجدهم يسيرون هم أيضًا في هذا المسار أسوة بالخواص. وأنقل لكم مثلًا عن عامة الناس. كتب والي البصرة إلى الخليفة يذكر له كثر أهل البصرة وعجز خراجهم عن المصارف، وسأله أن يزيد أهل البصرة خراج مدينتين، ولمّا بلغ أهل الكوفة ذلك سألوا واليهم عمار ابن ياسر، الرجل النبيل الذي بقي صامدًا كالطود الشامخ، ولا شكّ في أنه كان هناك أشخاص لم تهزهم الهزاهز

إلّا أن عددهم كان قليلًا، أن يكتب للخليفة يطلب منه أن يزيدهم خراج مدينتين، إلّا أنه رفض تلبية طلبهم فأبغضوه لذلك وشكوه إلى الخليفة، فعزله عن الولاية. ووقع مثل هذا لأبي ذر ولآخرين، ولعّل عبد الله ابن مسعود كان أحدهم. فحينما لا تراعى مثل هذه الجوانب يتجرد المجتمع حينها من القيم، وهنا تكمن واحدة من تلك العبر.

خلو المجتمع من القيم مسؤولية في أعناق الجميع

اعلموا يا أعزائي أن المرء لا يقف على حقيقة مثل هذه التطورات الإجتماعية إلّا بعد مرور وقت طويل. وهذا ما يوجب علينا الإنتباه والحذر والمراقبة، وهو معنى التقوى. فالتقوى معناها أن يتحرّز على نفسه من ليس له سلطان إلّا على نفسه، وأن يتحرّز على نفسه وعلى غيره من له سلطان على غيره أيضاً. أمّا الذين يقفون على رأس السلطة فيجب عليهم التحرّز على أنفسهم وعلى المجتمع كله لكيلا ينزلق نحو التهافت على الدنيا والتعلق بزخارفها، ولا يسقط في هاوية حب الذات. وهذا لا يعني طبعاً الانصراف عن بناء المجتمع، بل يجب بناء المجتمع والاسكثار من الثروة ولكن لا لأنفسهم، فهذا مستقبح. كل من لديه قدرة على زيادة ثروة المجتمع والقيام بإنجازات كبرى يكسب ثوابًا عظيمًا. لقد استطاع البعض خلال هذه السنوات بناء البلد ورفع راية الإعمار عاليًا وإنجاز أعمل كبرى، وهذه مفخرة لهم، ولا يدخل عملهم هذا في إطار حب الدنيا وإنما يصدق حب الدنيا فيما لو كان المرء يطلب النفع لذاته ويعمل لنفسه أو يفكر في جمع الثروة لنفسه من بيت مال المسلمين أو من غيره؛ وهذا هو التصرف القبيح. يجب إذًا التحرز من الوقوع في مثل هذه المنزلقات، وإذا انعدم الحذر ينحدر

المجتمع تدريجيًا نحو التخلي عن القيم، ويبلغ مرحلة لا تبقى لهها فيها سوى القشرة الخارجية، وقد يأتيه على حين غرّة ويفاجئه ابتلاء شديد، كالابتلاء الذي تعرض له ذلك المجتمع حين اندلعت ثورة أبي عبد الله، فلا يخرج منه ظافرًا. عرضت على عمر بن سعد ولاية الري وكانت الري في ذلك الوقت شاسعة وغنية، ولم يكن منصب الإمارة [على عهد بني أمية]، كمنصب المحافظ في الوقت الحاضر، فالمحافظون اليوم موظفون حكوميون يتقاضون مرتبات ويبذلوه جهودًا شاقة، ولم يكن الأمير حينذاك على هذا النحو. الشخص الذي ينصّب واليًا كان مطلق اليد في التصرف بجميع الثروات الموجودة في تلك المدينة، يتصرف فيها كيف يشاء بعد أن يرسل مقدارًا منها إلى عاصمة الخلافة، ولهذا كان لمنصب الوالي أهمية عظمى. ثم شرط تولية الري بمحاربة الحسين عليه السلام، من الطبيعي أن الإنسان النبيل وصاحب القيم لا يتردد لحظة في رفض مثل هذا العرض، ما قيمة الري وغير الري، لو وضعت الدنيا بين يديه فلا يعبث بوجه الحسين عليه السلام، لا يكفهّر بوجه الحسين، فما بالك بالنهوض لمحاربة عزيز الزهراء عليها السلام وقتله هو وأطفاله. هكذا يقف الإنسان الذي يحمل قيماً. ولكن حينما يكون المجتمع خاويًا ومجردًا من القيم، وحينما تضعف هذه المبادئ الأساسية بين أفراد المجتمع، ترتعد الفرائص عند ذاك، وأكثر ما يستطيع المرء عمله في مثل هذا الموقف هو أنه يستمهلهم ليلة واحدة للتفكير في الأمر. وحتى لو أنه فكّر سنة كاملة لوصل إلى نفس النتيجة ولاتخّذ نفس القرار، إذ لا قيمة لمثل هذا النمط من التفكير، إلّا أن الرجل فكّر في الأمر ليلة وأعلن في اليوم التالي عن موافقته على ذلك العرض، إلّا أن الله تعالى لم يمكنّه من بلوغ تلك الغاية. وكانت نتيجة ذلك أن وقعت فاجعة كربلاء.

الحسين أبقى الإسلام حيًا في النفوس

أشير هنا بكلمة في تحليل واقعة عاشوراء؛ شخص كالحسين عليه السلام، والحسين تجسيد لكل القيم الإلهية والإنسانية، ينهض بالثورة حتى يقف بوجه استشراء الإنحطاط الذي اخذ يتفشى في أوصال المجتمع وأشك أن يأتي على كل شيء فيه. بلغ الإنحطاط أن لو شاء الناس العيش حياة إسلامية كريمة فإنهم يجدون أيديهم خالية من كل شيء، وفي ظرف كهذا يثبت الإمام الحسين ويقف بكل وجوده أمام ذلك الخواء والفساد المتصاعد، ويضحّي من اجل القيم الإلهية بنفسه وبأحبائه وبابنيه عليّ الأصغر وعليّ الأكبر، وبأخيه العباس، ثم يصل إلى النتيجة المطلوبة.

أحيى الحسين جدّه رسول الله وهو معنى قول النبي: «وأنا من حسين». هذا هو الوجه الآخر للقضية، فواقعة كربلاء الزاخرة بالحماسة، وهذه الملحمة الخالدة لا يمكن إدراك كنهها إلّا بمنطق العشق وبمنظار الحب، فهي واقعة لا يمكن النظر إليها إلّا بعين العشق ليفهم ما الذي صنعه الحسين بن علي من بطولة ومجد خلال يوم وليلة، أي منذ عصر يوم التاسع من محرم وحتى عصر العاشر منه، بحيث خلّده في هذه الدنيا وسيخلّده إلى الأبد، ولهذا أخفقت جميع الجهود التي بذلت لمحو حادثة الطف من الأذهان وطيّها في أدراج النسيان.

صورة من واقعة الطف

أقرأ عليكم مقتطفات من كتاب المقتل، المعروفة باللهوف لإبن طاووس. نمر على بعض تلك المشاهد العظيمة لذكر مصيبة الحسين عليه السلام وكتاب المقتل هذا، كتاب معبر جدًا، ومؤلفه السيد علي ابن طاووس عالم فقيه وعارف كبير، وصدوق موثق، وموضع احترام لدى

الجميع، وأستاذ فقهاء كبار، وكان أديبًا وشاعرًا وذا شخصية بارزة، كتب اول مقتل معتبر وموجز. وقبل كتاب اللهوف، كتب الكثير في مقتل الحسين عليه السلام وحتى أستاذه ابن نما، له كتاب في المقتل، والشيخ الطوسي أيضًا له كتاب في المقتل وغيرهما، إلّا أنه حينما كتب اللهوف غطّى على جميع الكتب الاخرى في المقتل لأنه كتاب قيم إختيرت عباراته بدقة وإيجاز. من جملة المشاهد التي يصوّرها في كتابه هذا هو بروز القاسم بن الحسن إلى الميدان، وكان فتىً لم يبلغ الحلم. ليلة عاشوراء أعلم الحسين أصحابه بأن المعركة ستقع وأنهم سيقتلون جميعًا، فأحلّهم وأذن لهم بالانصراف، فأبوا إلّا أن يكونوا إلى جنبه. وفي تلك الليلة سأل هذا الفتى عمّه الإمام الحسين، هل سيقتل هو أيضًا في ساحة المعركة؟ فأراد الإمام الحسين اختباره، على حد تعبيرنا فقال له: «كيف ترى الموت؟»، قال: «أحلى من العسل»، لاحظوا أن هذا مؤشر على طبيعة القيم التي كان يحملها أهل بيت الرسول ومن تربى في حجور أهل البيت عليهم السلام، فقد ترعرع هذا الفتى منذ نعومة أظافره في حجر الإمام الحسين عليه السلام، فكان عمره حين شهادة أبيه ثلاث أو أربع سنوات فتكفل الإمام الحسين تربيته. وفي يوم عاشوراء وقف هذا الفتى إلى جانب عمّه؛ وجاء في هذا المقتل ذكر هذه الواقعة على النحو التالي: قال الراوي: «وخرج غلام كأن وجهه شقة القمر وجعل يقاتل». وقد دوّن الرواة أحداث ووقائع عاشوراء بتفاصيلها، فذكروا اسم الضارب والمضروب، ومن ضرب اولًا، واسم أول من رمى، ومن سلب، ومن سرق. فالشخص الذي سرق قطيفة أبي عبد الله ذكروا اسمه، وكان يطلق عليه فيما بعد لقب (سارق القطيفة). ومن الواضح أن أهل البيت ومحبيهم لم يتركوا هذه الحادثة تضيع في مجاهل التاريخ. ولنعد لمقتل القاسم، إذ تكمل الرواية: «فضربه ابن فضيل الأزدي على رأسه ففلقه، فوقع الغلام لوجهه وصاح:

«يا عمّاه»، فجلى الحسين عليه السلام كما يجلي الصقر، وشدّ شدة ليث أغضب، فضرب ابن فضيل بالسيف فاتقاها بساعده فأطنّها من لدن المرفق، فصاح صيحة سمعها أهل العسكر، فحمل اهل الكوفة لينقذوه فوطأته الخيل حتى هلك»، ودارت معركة عند مصرع القاسم هزمهم الحسين بعد أن قاتلهم. قال الراوي: «وانجلت الغبرة فرأيت الحسين قائمًا على رأس الغلام وهو يفحص برجليه، والحسين يقول: بعدًا لقوم قتلوك». يا له من مشهد مؤثر يعكس رقة الحسين وحبّه لهذا الفتى من جهة، وصلابته إذ أذن له في القتال والتضحية من جهة أخرى. كما ويدل ايضًا على ما لهذا الفتى من عظمة روحية، وما يتصف به الأعداء من قسوة تجعلهم يتصرفون مع هذا الفتى بمثل هذا السلوك. ويصوّر كتاب اللهوف مشهدًا آخر من مشاهد تلك الواقعة وهو بروز عليّ الأكبر للقتال، وكان مشهدًا مثيرًا حقًا من جميع أبعاده وجوانبه. فهو مثير من جهة الإمام الحسين، ومثير من جهة هذا الشاب، عليّ الأكبر، ومثير من جهة النساء خاصة عمّته زينب الكبرى. وذكروا أن عليًا كان بين الثامنة عشر من عمره على أقل التقدير، او ما بينها وبين الخامسة والعشرين أو في الخامسة والعشرين على أعلى التقدير. قال الراوي: «خرج علي بن الحسين، وكان أصبحُ الناس وجهًا وأحسنهم خلقًا، فاستأذن أباه في القتال فأذن له». فلما جاءه القاسم ابن الحسن واستأذنه لم يأذن له في بداية الأمر، وبعد أن ألّح الغلام أذن له، أما بالنسبة لعلي ابن الحسين، فبما أنه ابنه، فما أن استأذن حتى أذن له، [ثم نظر إليه نظرة آيس منه وأرخى عليه السلام عينيه وبكى].

هذه هي إحدى الخصائص العاطفية التي يتميز بها المسلمون، وهي البكاء عند المواقف والأحداث المثيرة للعواطف، فأنتم تلاحظون أنه عليه السلام بكى في مواقف متعددة، وليس بكاؤه عن جزع، ولكنه لشدة

العاطفة، والإسلام ينمّي هذه العاطفة لدى الفرد المسلم، ثم قال: «اللهم اشهد فقد برز إليهم غلام أشبه الناس خلقًا وخُلقًا ومنطقًا برسولك».

أريد أن أبين لكم هنا مسألة، وهي أن فترة الطفولة التي عاشها الحسين إلى جنب جده، كان النبي يحبه كثيرًا، وكان هو بدوره أيضًا شديد الحب لرسول الله، وكان تقريبًا في السادسة أو السابعة من عمره عند وفاة الرسول صلى الله عليه وآله وسلم، وبقيت صورته عالقة في ذهنه وحبُّ الرسول متجذر في أعماق قلبه. ثم رزقه الله فيما بعد ولدًا هو عليّ الأكبر.

مضت الأيام وشبّ هذا الفتى وإذا به يشبه في خلقه رسول الله تمام الشبه، فترسخ حبه في قلب الحسين كحبه للنبي، وكان هذا الفتى يشبه النبي في شكله وشمائله وفي صوته وكلامه وفي أخلاقه، ويحمل نفس ذلك الكرم وشرف المحتد ثم قال عليه السلام: «وكنّا إذا اشتقنا إلى نبيك نظرنا إليه»، ثم صاح الحسين: «يا ابن سعد! قطع الله رحمك كما قطعت رحمي»، فتقدم عليّ الأكبر نحو القوم فقاتل قتالًا شديدًا وقتل جمعًا كثيرًا، ثم رجع إلى أبيه وقال: «يا أبة العطش قد قتلني وثقل الحديد قد أجهدني، فهل إلى شربة ماء من سبيل؟»، فقال له الحسين: «قاتل قليلًا فما أسرع أن تلقى جدك محمدًا فيسقيك بكأسه الأوفى شربة لا تظمأ بعدها»، فرجع إلى موقف النزال وقاتل أعظم القتال، وبعد أن ضُرب نادى: «يا أبتاه عليك السلام، هذا جدي يقرؤك السلام ويقول لك عجّل القدوم إلينا».

هذه مشاهد مروّعة من تلك الواقعة الخالدة. وجرت في مثل هذا اليوم أي الحادي عشر من المحرّم، والذي يعتبر يوم زينب الكبرى سلام الله عليها، مصائب مفجعة، فهي قد اخذت على عاتقها منذ لحظة استشهاد الحسين عليه السلام ثقل الأمانة، وقطعت ذلك الشوط

بكل شجاعة واقتدار، وكما هو يليق ببنت أمير المؤمنين، وهم الذين استطاعوا تخليد الإسلام وصيانة معالم الدين. ولم تكن واقعة الطفوف هذه استنقاذًا لحياة شعب أو حياة أمة فحسب، وإنما كانت استنقاذًا لتاريخ بأكمله؛ فالإمام الحسين وأخته زينب وأصحابه وأهل بيته، أنقذوا التاريخ بموقفهم البطولي ذاك.

السلام عليك يا أبا عبد الله الحسين، وعلى الأرواح التي حلّت بفنائك، عليك منّي سلام الله أبدًا ما بقيت وبقي الليل والنهار، ولا جعله الله آخر العهد مني لزيارتكم، السلام على الحسين وعلى عليّ ابن الحسين وعلى أولاد الحسين وعلى اصحاب الحسين.

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ۝٢ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝٣ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ﴾اللهم نقسم عليك بمحمد وآل محمد أن تثبت اقدامنا على دينك ونهج كتابك. اللهم اجعل مجتمعنا مجتمعًا إسلاميًا. اللهم ولا تفرق بيننا وبين الإسلام. اللهم انصر الإسلام والمسلمين في كل أرجاء المعمورة. اللهم انشر بيننا قيم الإسلام وأواصر الأخوّة والمحبة والعاطفة والعبودية لك، والعدل الشامل. اللهم أبعد عن رحمتك كل من يسعى من الأعداء لعزل مجتمعنا عن الإسلام. اللهم اجعل القلب المقدّس لولي العصر أرواحنا فداه مسرورًا بنا، واجعلنا من أنصاره وأعوانه. اللهم استجب دعاءنا لشعبنا، وتلطف برحمتك على شهدائنا الأعزاء وعلى إمام الشهداء رضوان الله عليه وعلى جميع المعوّقين.

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته

الفصل الرابع
أمثلة من خواص الحق

«أعزائي، إن المرء لا يقف على حقيقة مثل هذه التطورات الإجتماعية إلّا بعد مرور وقت طويل، وهذا ما يوجب علينا الحذر والمراقبة وهذا هو معنى التقوى، فالتقوى معناها أن يتحرّز على نفسه من ليس له سلطان إلّا على نفسه، وأن يتحرّز على نفسه وعلى غيره من له سلطان على غيره أيضًا، أما الذين يقفون على رأس السلطة فيجب عليهم التحرّز على أنفسهم وعلى المجتمع كله لكيلا ينزلق نحو التهافت على الدنيا والتعلّق بزخارفها، ولا يسقط في هاوية حب الذات».

السيد القائد الخامنئي دام ظله

قيس بن سعيد الأنصاري

سنتعرف في السطور القليلة القادمة على شخصية فذّة يمكن اتخاذها قدوة في الإيمان والإستقامة والصبر والبصيرة، لكي نتابع بحثنا حول موضوع الخواص وأثر مواقفهم المصيرية في تحديد مسار التاريخ. هذه الشخصية هي من صحابة رسول الله ﷺ وأمير المؤمنين والإمام الحسن عليهما السلام، وتعتبر من الشخصيات السياسية في التاريخ العربي، وكان صمودها في الكثير من الحوادث التي جرت آنذاك أن تكون منه نموذجًا من خواص اهل الحق. هذه الشخصية هي (قيس بن سعد الأنصاري)، كان ابوه سعد بن عبادة رئيسًا لقبيلة الخزرج وهو أحد الذين دعوا رسول الله إلى القدوم للمدينة، وبذل أمواله في سبيل نصرة النبي والذين هاجروا معه، وأصبح هو وابنه قيس فيما بعد من صحابة الرسول البارزين وقد أثنى عليهما في مناسبات متعددة. وبعد أن ارتحل النبي إلى الرفيق الأعلى واستلم أبي بكر للخلافة، امتنع سعد ابن عبادة عن مبايعته وهاجر إلى بلاد الشام، وفي إحدى الليالي وهو في طريقه إلى الشام قتل سرًّا من قبل مجهولين وأشيع فيما بعد بأن سعدًا قتله الجن. واستمر تعلّق هذه العائلة بأهل البيت عليهم السلام بعد حادثة القتل المدبّرة. وكانت المواقف المصيرية لابنه قيس خلال الحوداث التي جرت في زمن خلافة الإمام علي وابنه الحسن عليهما السلام الأثر الكبير في تحديد مسار الأحداث، وكان أحد الذين اشتركوا مع

جيش الإمام علي الذي خرج من المدينة المنورة صوب البصرة للقضاء على الفتنة التي أحدثها الناكثون هناك. وبعد انتهاء حرب الجمل عاد قيس إلى الكوفة مع الجيش، وعند وصوله إلى الكوفة عينّه الإمام حاكمًا على ولاية مصر، وطلب منه أن يأخذ معه مجموعة مسلحة تقوم بحمايته في الطريق إلى مصر، ولأن مصر كانت تعيش في تلك الأيام فتنة أشعلها أنصار عثمان، وقبل أن يشّد الرحال رأى بأن الإمام يستعد للذهاب إلى صفين لحرب جيش معاوية في الشام، فأبدى عدم إستعداده على اخذ تلك المجموعة المسلحة معه ولهذا قال للإمام: «قد فهمت ما ذكرت، فأمّا الجند فإني أدعه لك فإذا احتجت إليهم كانوا قريبًا منك، وإن أردت بعثهم إلى وجه من وجوهك كانوا لك عّدة، لكي أسير إلى مصر بنفسي وأهل بيتي»[١].

فذهب مع عائلته إلى مصر بلا جيش وبدون حراسة، ووصل بأقرب فرصة متجشمًا صعاب السفر وأخطاره. إن هذه التضحيات بحد ذاتها إن دلّت على شيء فإنما تدل على صدق إيمان هذا الرجل وثباته على المبدأ وعدم تعلقه بمغريات الدنيا من مال أو جاه أو طمع. وقد دخل مصر وليس معه إلّا سبعة أشخاص وكتاب الإمام عليه السلام الذي جلبه معه يدعوا به الناس إلى بيعته، وبعد بضعة أيام من وصوله ذهب إلى المسجد الجامع (مسجد الفسطاط) وصعد المنبر وقال: «الحمد لله الذي جاء بالحق وأمات الباطل وكبت الظالمين، أيها الناس أن قد بايعنا خير من نعلم بعد محمد نبينا، فقوموا فبايعوا على كتاب الله وسنة رسوله، فإن نحن لم نعمل لكم بذلك فلا بيعة لنا عليكم»[٢].

---

(١) عبد الفتاح عبد المقصود، المجموعة الكاملة الإمام علي بن أبي طالب، منشورات مكتبة العرفان، بيروت.

(٢) المصدر نفسه.

وقد أشار قيس بن سعد في خطبته هذه إلى أمر مهم وهو أن عليًّا أفضل الناس بعد رسول الله، وهذه الإشارة بحد ذاتها تدل على أنه من أنصاره والحاكمين بحكمه. إن كلام قيس قد سحر الحاضرين وكذلك وقاره وسكينته، أما ذكاؤه اللامحدود جعله بمصاف السياسيين في عصره، إلّا أن وصوله إلى مصر كان مصدر قلق لمعاوية ولرفيقه في التآمر عمر ابن العاص. وأخيرًا لجأ معاوية إلى الحيلة والخداع لغرض إستمالة قيس فكتب إليه: «من معاوية بن أبي سفيان إلى قيس بن سعد، سلام عليك. أمّا بعد... فإن استطعت أن تكون ممن يطلب بدم عثمان فافعل، تابعنا على أمرنا ولك سلطان العراقين (الكوفة والبصرة) إن أنا ظفرت ما بقيت، ولمن أحببت من أهل بيتك سلطان الحجاز ما دام لي سلطان، وسلني غير هذا ما تحب فإنك لا تسألني عن شيئ إلا أوتيته، والسلام»[١].

وخلاصة الرسالة التي بعثها معاوية إلى قيس تدور حول أمرين،

الأول: حثّه على المطالبة بدم عثمان.

والثاني: لوّح له بالمال والجاه، وأنه سيعطيه ملك العراقين الذي كان يشمل آنذاك العراق ونصف إيران، وفي حال عدم الاكتفاء يعطيه ملك الحجاز إن أراد. كل ذلك وضعه معاوية تحت تصرف قيس لغرض شراء ذمتّه وإبعاده عن علي عليه السلام.

لم يرّد قيس على رسالة معاوية بسرعة، وإنما ترك معاوية في قلق واضطراب مدة من الزمن موجهًا انظاره باتجاه مصر في انتظار الجواب. وفي يوم من الأيام وصلت رسالة قيس المغلقة إلى يد معاوية وجاء فيها: «العجب من اغترارك بي والطمع فيّ، أتسومني الخروج من

(١) مصدر سابق.

طاعة أولى الناس بالإمرة وأقولهم للحق وأهداهم سبيلًا وأقربهم من رسول الله وسيلة، وتأمرني بالدخول في طاعتك؟ طاعة أبعد الناس عن هذا الأمر وأقولهم للزور وأضلّهم سبيلا من الله ورسوله وسيلة، طاغوت من طواغيت إبليس؟»[١].

لقد أعربت هذه الرسالة عن الفشل الذريع لمعاوية في إبعاد قيس عن إمامه، فعاد معاوية إلى التفكير بحيلة أخرى وقد استعان بعمر ابن العاص، وتوصّلا إلى حيلة جديدة وهي الإساءة إلى سمعة قيس والتشكيك به عند عليّ عليه السلام، إلّا أن الإمام لم يكن يشك في إيمانه ووفائه، فقد امتحنه في مواقف كثيرة فوجده ثابتًا لا تهزه الهزائز ولا تغويه المطامع وقد ظلّ قيس متمسكًا بمواقفه حتى ذهب عليه السلام شهيدًا مظلومًا.

وبعد شهادة أمير المؤمنين بقي على موقفه ولازم الإمام الحسن وأخذ يشد الناس نحو قيادته، ولمّا أعلن الإمام الحسن عليه السلام عن عزمه للخروج إلى حرب معاوية ودعا الناس الى الاستعداد، وجد قيس بن سعد وأنصاره أن الغالبية من الناس قد سكتت وتخاذلت، فأخذوا يلومونهم على تخاذلهم وبعثوا فيهم روح النشاط إلى حرب عدوّهم ثم أظهروا للإمام الطاعة والانقياد لأمره؛ فشكر الإمام مواقفهم المشرفة وأعدّ جيشًا في معسكر النخيلة واختار لقيادته عبيد الله ابن عباس، ورشّح قيس بن سعد لقيادة الجيش من بعده، وقبل أن يلتقي الجيشان حاول معاوية شراء ضمائر بعض قادة جيش الإمام عن طريق الأموال الضخمة التي بذلها لهم، ولمّا رأى معاوية أن عملية الرشوة قد نجحت والتحق الكثير من معسكر الإمام إلى معسكره حاول إستمالة عبيد الله ابن عباس، فأرسل إليه رسالة أغراه بها وعرض عليه مبلغ مليون درهم، فلّما وصلت رسالة معاوية الى عبيد الله

---

(١) المصدر السابق

ظلّ ساهرًا ليله يفكر بالمغريات الضخمة التي عرضها عليه معاوية، وأخيرًا سولت له نفسه الأثيمة بالغدر ونكث العهد، فاستجاب لمعاوية وانحرف عن الطريق المستقيم وخان الله ورسوله والتحق بمعسكر الظلم والجور ليلًا ومعه ثمانية آلاف من جيشه البالغ إثنى عشر ألفًا، فاضطربت البقية الباقية من الجيش بالنزاع والخلاف. ولمّا رأى قيس بن سعد الفتنة قد ضربت أطنابها على جيش الإمام قام فصلى بهم صلاة الصبح وبعد الفراغ منها قام خطيبًا وقال لهم: «إن هذا (عبيد الله بن عباس) وأباه واخاه لم يأتوا بيوم خيرًا قط، إن أباه عم رسول الله خرج يقاتله ببدر، فأسره أبو اليسر كعب بن عمر الأنصاري فأتى به رسول الله فأخذ فداءه فقسمه بين المسلمين، وإنّ أخاه ولّاه علي عليه السلام على البصرة فسرق ماله ومال المسلمين فاشترى به الجواري، وزعم أن ذلك له حلال، وأنّ هذا ولّاه علي على اليمن فهرب من بسر بن أرطأة، وترك وِلده حتى قتلوه، وصنع الآن هذا الذي صنع»[١]. فانبرى الجيش بجميع كتائبه معلنًا التأييد لخطاب قيس وهم يهتفون: «الحمد لله الذي أخرجه من بيننا، فانهض بنا إلى عدونا»[٢].

وبقي قيس بن سعد مع أربعة آلاف مقاتل في مواجهة جيش الشام البالغ ستين ألفًا، وبعد أن وجد معاوية أن عملية شراء الضمائر الرخيصة لقادة جيش الإمام وزعمائه من أمثال عبيد الله بن عباس قد نجحت، حاول هذه المرة شراء ذمة قيس بن سعد فكتب له وعرض عليه مبلغ مليون درهم، هو نفس المبلغ الذي اشترى به ذمة عبيد الله بن عباس، فرّد عليه وقال: «لا والله لا تلقاني أبدًا إلّا بيني وبينك الرمح». وظلّ قيس مرابطًا مع جيشه، وأرسل تقريرًا عن الأوضاع إلى الإمام الحسن الذي كان يتخّذ من منطقة (ساباط) قرب المدائن معسكرًا له. ولمّا

(١) باقر شريف القرشي، حياة الإمام الحسن بن علي، الجزء الثاني، الصفحة ٩٦.

(٢) المصدر السابق، الصفحة ٩٧.

يأس معاوية من استمالة قيس عن طريق شراء ذمّته كتب إليه رسالة جوابية تضمنت كثير من السب والشتم جاء فيها: «أمّا بعد، فإنّك يهودي ابن يهودي، تشقي نفسك وتقتلها فيما ليس لك، فإن ظهر أحب الفريقين إليك نبذك وعذلك، وإن ظهر أبغضهما إليك نكل بك وقتلك»[١]. فكتب إليه قيس بن سعد: «أما بعد، فإنما أنت وثن ابن وثن، دخلت في الإسلام كرهًا، وأقمت فيه فرقًا، وخرجت منه طوعًا، ولم يجعل الله لك فيه نصيب، لم يقدّم إسلامك، ولم يحدث نفاقك، ولم تزل حربًا لله ولرسوله وحزبًا من أحزاب المشركين وعدوًا لله ونبيّه».

بهذه اللهجة خاطب قيس معاوية بالرغم مما كان يعانيه من مصاعب في جيشه المتزلزل الذي فرّ قائده والتحق بجيش العدو، ولكنه ظلّ محافظًا على روحيته وصلابته، حتى بعد أن تمّ الصلح بين الإمام الحسن ومعاوية كان قيس من العقبات التي يفكر بها معاوية، حيث لم تتم بيعته لمعاوية بشكل سهل وبقي فيما بعد واقفًا بمفرده يواجه اكاذيب بني أمية يشّهر بهم وبعدم صلاحيتهم لتوّلي أمور المسلمين.

إنّ مطالعة بسيطة لخصائص شخصية قيس بن سعد نجد أن هناك خصلتين مهمتين لصمود هذه الشخصية أمام الصعاب، وهاتين الخصليتين هما (الصبر والبصيرة)، وقد اعتبرها الإمام علي عليه السلام من شروط الاستقامة والثبات على الطريق المستقيم، وأشار إليهما السيد القائد الخامنئي دام ظله في خطاباته واعتبرهما من شروط الصمود على الصراط المستقيم. وخلاصة القول، أن أي إنسان يريد الاستقامة والبقاء في الصراط المستقيم يحتاج إلى ثلاثة عناصر مهمة لتغذية مسيرته وهي الصبر والبصيرة والتقوى.

---

(١) بحار الانوار: ج ٤٤، ص ٥٢.

مالك الأشتر النخعي

لا يزال صوته يصدح في أعماق التاريخ بالرغم من مرور أربعة عشر قرنا، كان فارسًا شجاعًا ذا بصيرة، حامل راية الإسلام في جيش علي، ألا وهو مالك الأشتر رضي الله عنه من بدي مذحج، إذا أردت التعرف عليه فاسمع ما قاله أمير المؤمنين فيه: «لا ينام أيّام الخوف، ولا ينكُلُ عن الأعداء ساعات الروع، أشّد على الكفار من حريق النار، وهو مالك ابن الحارث أخو مذحج»[١].

كان هذا الوصف من قبل الإمام عليه السلام لمالك الأشتر أيام كانت مصر تعيش الفتنة، وقد كتب الإمام رسالة لأهل مصر جاء فيها وصف هذا البطل. وقد وصفه أمير المؤمنين في مكان آخر: «مالك بن الحارث الأشتر، فإنّه ممن لا يخاف وهنه ولا سقطته ولا بُطؤه عمّا الإسراع إليه أحزم ولا إسراعه إلى ما البطء عنه أمثل»[٢].

وقد وصفه عليه السلام في مكان ثالث وقال: «فإنه سيف من سيوف الله، لا كليل الظُبة ولا نابي الضريبة، فإن أمرَكم أن تنفروا فانفروا، وإن أمرَكم أن تقيموا فأقيموا، فإنه لا يُقدم ولا يحجم ولا يؤخر ولا يقدّم إلّا عن أمري، وقد آثرتكم به على نفسي لنصيحته لكم وشدة شكيمته على عدوكم»[٣].

وإذا أردت المزيد من التعرف على منزلته فراجع الكتاب الذي كتبه أمير المؤمنين عليه السلام له عندما ولاه، وهو من الكتب الطويلة تحت رقم (٥٣) من نهج البلاغة. كان مالك الأشتر من الذين خالفوا الأعمال التي

---

(١) نهج البلاغة، الكتاب ٣٨.

(٢) نهج البلاغة، الكتاب ١٣.

(٣) نهج البلاغة، الكتاب ٣٨.

قام بها عثمان أيام خلافته، ومن أبرز هذه الأعمال استغلاله بيت مال المسلمين بالبذخ على عشيرته ومقربيه، وقيامه بتنصيب الولاة غير الصالحين للإدارة، الذين ليس لهم سابقة في الإسلام، وإهانته للصحابة المؤمنين وإصداره الأوامر بإبعادهم عن المدينة المنورة. وقصة اعتراض أبي ذر على سياسته معروفة، حيث قام بإبعاده عن مركز الخلافة (المدينة المنورة) إلى الشام ليكون تحت ضغط معاوية، وبعد أن فشل معاوية بشراء دينه بالأموال أعاده إلى المدينة المنورة، ولما ضاق به عثمان من كثرة اعتراضه على السياسة الظالمة أبعده إلى صحراء (الربذة) المقفرة، وفي اللحظات الأخيرة من حياة هذا الصحابي الجليل المظلوم تحيّرت زوجته وأصابها الذهول من هول الموقف، واخذت تفكر في تغسيله ودفنه، فقال لها أبو ذر رضوان الله عليه، قال لي رسول الله ﷺ: «يا أبا ذر، تعيش وحدك وتدفن وحدك وتحشر وحدك، وسعد فيك أناس من أهل العراق يتولون غسلك ومواراتك في قبرك»[١].

«ويسّر الله له وفدًا من أهل العراق كانوا في طريقهم لحج بيت الله الحرام، فلوّحت لهم زوجة أبي ذر فمالوا إليها، وأصيبوا بالذهول والدهشة حينما علموا أن الميت هو ذلك الصحابي الجليل الذي كان رسول الله ﷺ يُجلّه ويفضله على الكثير من أصحابه، فغسلوه ودفنوه وحملوا زوجته وابنته الى المدينة وكان من ضمن هؤلاء مالك الأشتر وحجر بن عدي»[٢]، اللذان أشاد بهما رسول الله واعتبرهما من ثابتي الإيمان. نعم إن مالكًا قد عرف الحق وأهله وعرف الباطل واعترض على أهله، وحمل سيفه في سبيل نصرة الحق إلى آخر لحظة من عمره

(١) ابن ابي الحديد، شرح نهج البلاغة، الجزء الثاني، الصفحة ٤٠٤.

(٢) المصدر السابق، الجزء ١٥، الصفحة ١٠٠.

الشريف. وفي أيام خلافة عليّ عليه السلام كانت منزلة الأشتر بالنسبة للإمام كمنزلة الأخير إلى رسول الله، وعندما أرسل معاوية رسالة إلى الإمام علي هدده فيها بامتلاكه جيشا جرارا لا بداية له ولا نهاية، أجابه الإمام برسالة قال فيها: «لدي رجل (ويقصد مالك الأشتر) سيحصد ذلك الجيش ويلتقطهم كما يلتقط الديك حبات القمح»، ولما قرأ معاوية هذه الرسالة قال لمن حوله: «حقًّا كما قال علي، إنه مالك الأشتر».

وفي الوقت الذي كان فيه أبو موسى الأشعري واليًا على الكوفة كتب له أمير المؤمنين عليه السلام وقد بلغه عنه تثبيطه الناس عن الخروج لقتال أصحاب الجمل، إذ كان يقول لأهل الكوفة أن عليًا إمام هدى وبيعته صحيحة، إلّا أنه لا يجوز القتال معه لأهل القبلة، وطبيعي أن هذا القول بعضه حق وبعضه باطل، وبهذا الكلام شجّع أهل الكوفة على التخاذل والجلوس في البيوت، وظلّ مالك الأشتر يتابع الرسائل التي تصل من الكوفة والتي كانت تحمل أخبار التمرد ووقاحة أبي موسى، فازداد غضبًا وطلب من الإمام علي أن يجعله على ولاية الكوفة لإصلاح أوضاعها المتدهورة، فوافق الإمام على ذلك وأرسله إلى الكوفة. ومنذ وصوله أخذ يفكر بمالهمة التي جاء من أجلها فتفقد نواحي المدينة والتقى بأهلها موضحًّا لهم الأهداف التي أرسله الإمام من أجل تحقيقها وفي فضح الحقائق التي كان قد زوّرها عليهم مجموعة من الناس. كان مالك قد دخل قصر أبي موسى (دار الإمارة) وانتزعه من الحراس، فوصلت الأخبار لأبي موسى وهو في المسجد فاضطرب لسماعه هذه الأخبار، فأسرع مهرولاً إلى القصر فوجد هناك مالكاً وجماعته فأخذته الحيرة والدهشة، فنظر إليه الناس نظرة استنكار واحتقار فصرخ به مالك قائلًا: «اخرج من هنا، أخرج الله روحك، والله أنت من المنافقين». وفي تلك اللحظات طلب أبو موسى الأمان من

مالك الأشتر مضطرًا فأعطاه ذلك ومنع الناس من التعرض له. بهذه التدابير استطاع مالك من تغيير أوضاع الكوفة لصالح الإمام علي، وانخرط الكثير من أهلها معه وأعلنوا عن استعدادهم للذهاب إلى معسكر الإمام في «ذي قار» لغرض تعبئتهم لحرب أصحاب الجمل.

لقد كان مالك الأشتر أحد الذين لم تستطع الفتن آنذاك أن تحيد بهم إلى الباطل، ومن هذه الفتن حرب الجمل، تلك الحرب التي أشعلتها عائشة بدفع من طلحة والزبير رافعين شعار المطالبة بدم عثمان، وقد قاموا بإعداد جيش كبير من المغرر بهم استعدادًا للوقوف بوجه الإمام عليه السلام في البصرة ناكثين بذلك العهود التي قطعوها. وفي الأيام التي سبقت حرب الجمل، وعندما كانت عائشة تعد العدة لإشعال نار الفتنة سمع مالك الأشتر بتلك الأخبار بكتابة رسالة إلى عائشة في مكة المكرمة جاء فيها: «أما بعد، فإنك ظعينة رسول الله صلّى الله عليه وآله، وقد أمرك أن تقرّي في بيتك فإن فعلت فهو خير لك، وإن أبيت إلّا أن تأخذي منسأتك وتُلقي جلبابك وتُبدي للناس شعيراتك قاتلتُك حتى أردك إلى بيتك والموضع الذي يرضاه لك ربك». لم تستجب عائشة لنصيحة مالك وأعرضت عنها مثلما أعرضت عن نصائح الباقين.

ولمالك في ميدان الحرب بطولات كثيرة وكان في حرب الجمل أحد الأقطاب الذين اعتمد عليها الإمام في إخماد نار الفتنة وقطع دابرها وفوّت الفرصة على المنتفعين منها. بعد انتهاء حرب الجمل بانتصار جيش الإمام واندحار جيش أصحاب الجمل، التقت عائشة في البصرة بعمار بن ياسر وكان معه مالك الأشتر، فسألت عمار عن رفيقه فقال لها هذا مالك الأشتر، وبعد أن عرفته سألته عن العلّة التي من أجلها لم يقتل عبد الله ابن الزبير رغم تمكنه من ذلك، فكان جوابه بيانٌ

لمدى اعتقاده بعلي عليه السلام وعمق إيمانه بأن الإمام مع الحق والحق معه فقال لها: «لولا كوني شيخًا كبيرًا وطاويًا لقتلته وأرحت المسلمين منه»[١]. قالت عائشة: «أوما سمعت قول النبي أن المسلم لا يقتل إلّا من كفر بعد إيمان او زنا بعد إحصان أو قتل النفس التي حرّم الله قتلها؟». فقال لها مالك: «يا أم المؤمنين على أحد الثلاثة قاتلناه»[٢].

والسؤال المطروح هنا: لماذا اعتبر أصحاب الجمل من البُغاة؟ الجواب: لأنهم أعلنوا بيعتهم للإمام عليّ وسرعان ما نكثوا هذه البيعة ووقفوا بوجه الإمام وأعدوا الجيش من المغرر بهم وهجموا ليلًا على مدينة البصرة وبشكل وحشي اخذوا يسفكون دماء الأبرياء والعزّل بغير جرم ولا ذنب. إن البصيرة والوعي اللتان تحلّى بهما مالك الأشتر في ميدان الحرب بدت واضحة في شعره. وفي (يوم الهرير) أصعب وأشد أيام معركة صفين حيث كانت القتلى بالآلاف وكاد الإمام أن ينتصر على جيش معاوية، نجد الأشتر راكبًا فرسه خلف الإمام وهو يحمل على الأعداء ويقول: «الحمد لله الذي جعل فينا ابن عمّ نبيه، أقدمهم هجرة وأوّلهم إسلامًا، سيفًا من سيوف الله صبّه الله على أعدائه، فانظروا إذا حمي الوطيس وثار القتام وتكسّر المرّان وجالت الخيل بالأبطال فلا أسمع إلّا غمغمة أو همهمة فاتبعوني وكونوا في أثري»[٣]، وعندما رفع أهل الشام المصاحف على الرماح يدعون أهل العراق

---

(١) كان عبد الله ابن الزبير من الذين شهدوا معركة الجمل في البصرة، ولما جاء لمبارزة مالك الأشتر ضربه مالك ضربة قوية سقط على أثرها على الأرض، فنزل مالك من فرسه وجلس على صدره ليقتله فصاح عبد الله بصوت عال اقتلوني ومالك، فأسرع إليهما المقاتلون فنهض مالك بسرعة وركب فرسه واستمر القتال تاركاً عبد الله بن الزبير.

(٢) بحار الأنوار، الجزء ٣٢، الصفحة ١٩١.

(٣) نصر بن مزاحم، وقعة صفين، الصفحة ٤٧٤.

إلى حكم القرآن قال علي عليه السلام لأهل العراق: «إنها كلمة حق يراد بها باطل إنما أقاتلهم ليدينوا بحكم القرآن»، فقالوا له: «يا علي أحّب القوم إلى كتاب الله» وقد كان الاشتر قد أشرف على عسكر معاوية ليدخله، فقالوا للإمام: «لترسلن إلى الأشتر فليأتينّك أو لنقتلك بأسيافنا ولنسلمنّك الى عدوك»، فأقبل الأشتر حتى انتهى إليهم فصاح قائلًا: «يا أهل الذُّل والوهن، أحين علوتم القوم فظنوا أنكم لهم قاهرون، ورفعوا المصاحف يدعونكم إلى ما فيها؟ وقد والله تركوا ما أمر الله به فيها وسنة من أُنزلت عليه فلا تجيبوهم، أمهلوني فواقًا فإني قد أحسست بالفتح»، فقالوا: «دعنا منك يا أشتر، قاتلناهم في الله وندع قتالهم في الله، إنا لسنا نطيعك فأجبتنا»، فقال: «خُدعتم والله فانتخدعتم، يا أصحاب الجباه السود كنا نظن أن صلاتكم وهادة في الدنيا وشوق إلى لقاء الله، فلا أرى فراركم إلّا إلى الدنيا من الموت، فابعدوا كما بعدّ القوم الظالمون»[١].

نعم لقد مزج مالك الإيمان والبصيرة والشجاعة وجعل منهم درعاً يصد بهم الضلالة طيلة حياته، وبالاحتماء بهذا الدرع كان يميّز الصديق عن العدو والمكر والخدع الخبيثة، فعندما غرز رمحه في صدر فتى قريش المنحرف المغرور محمد بن طلحة يوم الجمل كان ينشد قائلًا: «أصبته برمح فوقع على يديه وفمه، طعنته لأنه لم يكن من أصحاب علي، ومن لا ينقاد للحق يندم»[٢]. نعم برأي مالك كل من لا يتبع عليّ فهو ضالّ ويجب أن يمرّغ أنفه بالتراب، كان مالكٌ سيفًا من سيوف الله يحطم علي به غرور الضالين.

---

(١) المصدر السابق، الصفحة ٤٩١.

(٢) بحار الأنوار، الجزء ٣٢، الصفحة ٨٩.

«يا مالك، أنت من الذين استعين بهم على إقامة الدين والقضاء على عجرفة المنحرفين وقطع الطرق الخطرة»[١].

لقد حافظ مالك على إيمانه ولم يتنازل قيد شعرة رغم الظروف الصعبة التي مرّ بها، وأكياس الذهب والعروض السخيّة التي كانت تنهال من معاوية عليه وعلى أصحاب الإمام عليه السلام وأنصار الحق، والتي سرقت الإيمان من قلوب الكثير واستهوتهم، أمّا هو فقد خبر الدنيا بما فيها من مكر بشكل جيد ونبذها، وعرف الحق بكل ما يحوي من عظمة وبهاء وتمسك به. كان لصمود مالك وصلابته في مواجهة الباطل في اللحظات التاريخية للأمة الإسلامية أثر عظيم، حيث أنه أرعب العدو الماكر معاوية عندما سمع بتوجهه نحو مصر بعدما عُيّن عاملًا عليها، فتملكه الخوف وأحس بتزلزل قوائم عرشه الفرعوني، فأوعز إلى جاسوسه (جايستار) بأنه إن تمكن من التخلص من مالك فسيعفيه من دفع الخراج طوال حياته. هذا من جهة، ومن جهة أخرى اجتمع بالناس في الشام وقال لهم: «هلمّوا جميعًا ندعو ألّا يصل مالك الى مصر، لأن بوصوله إلى مصر سيقضي علينا جميعًا». فما كان من (جايستار) إلّا أن استقبل مالك وهو في طريقه إلى مصر وقدّم له عسلًا مسمومًا، وباع إيمانه مقابل إعفائه من دفع الخراج طول حياته.

وكان استشهاد مالك قد أبهج معاوية وأهل الشام، في حين أغرق الإمام وأصحابه في بحر عميق من الحزن. وكانت المهمة التي توجه من أجلها مالك إلى مصر هي إطفاء نار الفتنة التي اندلعت هناك بعد حرب صفين ومسألة التحكيم. وبعد أن عمّت الفرحة بلاد الشام

(١) المصدر السابق، الصفحة ١٠٣.

جمع معاوية الناس وخطب فيهم قائلًا: «كانت لعلي يمينان، قطعت احداهما يوم صفين (ويقصد به عمار بن ياسر) وقُطعت الأخرى اليوم «وكان تأريخ شهادة مالك الأشتر في سنة ٣٨ هجرية، وقد نعاه الإمام بأسى كبير قائلًا: «رحم الله مالك، كان لي كما كنت أنا لرسول الله». مالك الأشتر ذلك الذي سعى في معرفة الحق والباطل، ولم يهدأ لحظة واحدة في جهاده، هكذا يصفه إمامه ومولاه بعدإستشهاده: «لله درّ مالك، وما مالك؟ لو كان من جبل لكان فِندًا[١]، ولو كان من حجر لكان صلدًا، أما والله ليهدّن موتُك عالمًا وليفرحنّ عالمًا، على مثل مالكٍ فلتبك البواكي، وهل مرجوٌ كمالك؟ وهل موجود كمالك؟».

لقد بكاه الإمام عليه السلام كثيراً، وعندما سأله أصحابه عن ذلك قال: «والله، لقد أعزّ استشهاده أهل المغرب (الشام) وأذل ّ أهل المشرق (العراق)»[٢]. وها نحن أمام هذا السؤال الذي طرحه الإمام عليه السلام ، هل هناك أحد مثل مالك؟ وهل يمكن لنا حقًا أن نكون مثل مالك؟ أو أن نسلك الطريق الذي سلكه؟ وهل يمكن الصمود والثبات في ميادين الحق ضد الباطل حتى النهاية مثل مالك، الذي لم تغمض عينه ولو لحظة في الدفاع عن الحق أو أن نكون مثله في مقارعة الأعداء والظالمين؟ هل يمكن أن نكون كما كان مالك في اتباعه الإمام والقائد؟ هل يمكننا أن نحيا ونموت كما عاش مالك ومات، وأن نحظى برضى إمامنا كما فعل مالك؟

نعم يمكننا ذلك، بشرط أن نمتلك الصفات الثلاثة التي كان مالك الأشتر يمتلكها، وهي: الإيمان والبصيرة والثبات حتى النهاية. ففي

---

(١) جبل عظيم.

(٢) تاريخ الطبري، الجزء ٥، الصفحة ٩٥.

ظل الإيمان والتقوى نستطيع التمييز بين الضلال والهداية والبصيرة والوعي، يمكن أن نبتعد عن طريق الضلال، وبالصبر والشجاعة يمكننا الصمود والمقاومة أمام أنواع الإختبارات والابتلاءات التي نتعرض لها بسبب التزامنا لجهة الحق. نعم في ظل تلك الصفات لا يمكن للدنيا بما فيها ابتلاع الصفوة المنتخبة من أمثال مالك الأشتر، الذين ظلّوا كواكب مضيئة خالدة لبني البشر.

محمد ابن أبي بكر

وُلد محمد بن أبي بكر في عام حجة الوداع في البيداء، أمه أسماء بنت عميس زوجة جعفر بن أبي طالب من مكة المكرمة، وقد رزقت بثلاثة أولاد هم: محمد، عبد الله، عون، وقد رجعت من الحبشة إلى المدينة برفقة زوجها جعفر سنة ٧ للهجرة. وبعد استشهاد زوجها جعفر في معركة مؤتة، تزوجت أبا بكر ورزقت منه محمد بن أبي بكر. بعد وفاة أبي بكر تزوجها عليّ عليه السلام وكانت حصيلة هذا الزواج يحيى بن علي.

لقد ترعرع محمد بن أبي بكر في حضن هكذا أم، ونهل من النبع الصافي للإمام أمير المؤمنين فعشق الولاية بحيث أنه ثبت على موقفه في نصرة علي في جميع الإختبارات والابتلاءات الصعبة التي مرّت بها الثلة المؤمنة بعد رحلة الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم. لقد جرت عليه صعاب ومشاق نفسية لكونه إبنًا لأبي بكر وأخًا لعائشة ومن أب واحد ومن أشّد تلك الصعاب كانت وقعة الجمل. لكنه ضرب كل تلك الاحاسيس والعواطف عرض الحائط بفضل بصيرته النافذة بالحق والولاية، فوقف بوجه أخته عائشة بصلابة عندما حملت لواء العداء للإمام عليه السلام في حرب الجمل، واختار حميّه الدفاع عن الحق في عصر كان فيه روابط

القرابة والعشيرة فوق كل شيء، ولم يخضع للتقاليد الجاهلية وانبرى لمحاربة كل من وقف في طريق الحق وهذه الصفات لا تجتمع إلّا لمن أضاء الله قلبه بنور الإيمان. فقد ذهب إلى عائشة موفدًا من قبل الإمام عليه السلام ليثنيها عن الاستمرار بالعصيان لكنه لم ينجح في ذلك، وبعد انتهاء المعركة بإنتصار الإمام وجيشه على الناكثين، تحدث مع أخته عائشة بلين ورفق عندما وجدها منكسرة وقال لها: «ألم تسمعي رسول الله وهو يقول: علي مع الحق والحق مع علي؟». ثم أرجعها إلى المدينة المنورة معززة مكرمة بأمر الإمام. وقد قام هذا الصحابي بإرسال رسالة تاريخية إلى معاوية، وهذا نصها: «بسم الله الرحمن الرحيم، من محمد بن أبي بكر إلى الغاوي معاوية بن صخر، سلام على أهل طاعة الله ممن هو سلم لأهل ولاية الله. وقد رأيتك تساميه (يقصد عليّ) وأنت أنت (يقصد مساوئ معاوية بالإسلام) وهو هو (الإمام علي) السابق المبرز في كل خير، أول الناس إسلامًا، وأصدق الناس نية وأطيب الناس ذرية وأفضل الناس زوجة وخير الناس ابن عم. وأنت اللعين ابن اللعين، لم تزل أنت وأبوك تبغيان لدين الله الغوائل، وتجتهدان على إطفاء نور الله، وتجتمعان على ذلك الجموع، وتبذلان فيه المال، وتحالفان في ذلك القبائل، على هذا مات أبوك، وعلى ذلك خلفت، والشاهد عليك بذلك من يأوي ويلجأ إليك، من بقية الأحزاب ورؤوس النفاق والشقاق لرسول الله، والشاهد لعلي مع فضله وسابقته القديمة أنصاره الذين ذكرهم الله تعالى في القرآن، ففضلّهم وأثنى عليهم من المهاجرين والأنصار، فهم معه كتائب وعصائب، يجالدون حوله بأسيافهم، ويهرقون دماءهم دونه، يرون الفضل في اتّباعه، والشقاق والعصيان في خلافه، فكيف يا لك الويل، تعدل نفسك بعلي؟».

لقد احتوت هذه الرسالة فصول من الرؤية العميقة والبصيرة الواعية وهي بمثابة دروس للخواص لعصرنا الحاضر. إن محمد بن أبي بكر هذا الفتى الغر كما يصفه الإمام عليه السلام قد تمكن من سبر أغوار الحقيقة بشكل أتاح له استحضار الماضي وتمييز خيره من شره، وكذلك تمييز اتباع الباطل من أمثال أبي سفيان وابنه. نعم لقد كان محمد بن ابي بكر على رأس المعترضين على عامل عثمان على مصر، عبد الله بن سعد بن أبي سرح. ووصلت شكاوى الناس حدًّا أجبرت عثمان على كتابة رسالة إليه (عبد الله) يهدده فيها بوجوب تغيير أسلوبه في معاملة الناس، لكنه على العكس قام بضرب أحد المشتكين ضربًا مبرحًا حتى الموت. وقام على إثر ذلك ٧٠٠ من المصريين يصحبهم محمد بن أبي بكر بالسفر إلى المدينة المنورة ليشكو إلى عثمان ما قام به عامله (عبد الله بن سعد بن أبي سرح).

فقام طلحة خطيبًا بالمتظاهرين وتهجم على عثمان، فأرسلت عائشة إلى عثمان تحثّه على الإستجابة لمطالب المتظاهرين والنظر في شكاواهم. أمّا دور أمير المؤمنين عليه السلام في هذه الإضطرابات، فقد ذهب إلى عثمان وتحدث معه باسم المتظاهرين وخاطبه قائلًا: «إن الناس يطالبونك برجل مقابل رجل سفك دمًا، فاعزله واقض بين الناس بالعدل». فاضطر عثمان تحت هذه الظروف أن ينصّب محمد بن أبي بكر، وانتهت البلبلة بفضل مبادرة الإمام ورجع المتظاهرون إلى مصر. وبعد ثلاث أيام من مغادرتهم المدينة المنورة لحق بهم عبد أسود ممتطيًا ناقة قد انطلق بها مسرعًا نحو مصر، فلحق به أصحاب محمد بن أبي بكر فجاؤوا به إلى ابن أبي بكر بعدما عرفوا أنه غلام عثمان متوجها نحو مصر ويحمل رسالة من عثمان، وهو ينكر أمرها فأخذوا منه الرسالة وفتحوها وقد كتب فيها: «إذا وصل إليك محمد

ابن أبي بكر وباقي الثائرين فاقتلهم ومزّق رسالتهم وإبقى في منصبك حتى تصلك أوامري لاحقا». رجع محمد واصحابه إلى المدينة غاضبين وكان ذلك بداية المحاصرة لبيت عثمان، وبالرغم من أن الأخير قد ألقى باللائمة على مروان ابن الحكم في أمر الرسالة باعتبار أساء الإستفادة من ختمه وقام بتزوير تلك الرسالة، إلا أن الأوضاع ازدادت سوءًا وانتهت بمقتل عثمان على ايدي الجماهير الغاضبة حينما كان أبناء عليّ عليه السلام يتولون حماية بيته.

وبعد استلام الإمام علي لمقاليد الخلافة عيّنه (محمد بن أبي بكر) حاكمًا على مصر بعد معركة الجمل، محملاً إياه خطابه المعروف له ولأهل مصر حيث قرأه على أهل مصر عند وصوله هناك جاء فيه: «بسم الله الرحمن الرحيم، فأخفض لهم جناحك وألن لهم جانبك، وابسط لهم وجهك وآس بينهم في اللمظة والنظرة، حتى لا يطمع العظماء في حيفك لهم، ولا ييأس الضعفاء من عدلك عليهم، فإن الله تعالى يسائلكم معشر عباده عن الصغيرة من أعمالكم والكبيرة، والظاهرة والمستورة، فإن يعذّب فأنتم أظلم، وإن يعف فهو أكرم».

انشغل محمد بن أبي بكر منذ وصوله إلى مصر بإصلاح ما فسد من أمورها، وقد واجه سني حكمه الاولى مشكلة الإجابة على الأسئلة الفقهية والعلمية لمختلف الجماعات في مصر، لذا فقد بعث بهذه الأسئلة إلى الإمام علي حيث أجابه عليها في خطاب طويل. وبعد أن انتهت حرب صفين ووضعت أوزارها بمسألة التحكيم، توترت الأوضاع السياسية في العراق وبرزت الاختلافات بين الناس، وفي خضّم تلك الاجواء تجرأ أتباع معاوية على معارضة سياسة عامل مصر محمد بن

أبي بكر وأخذوا يشعلون نار الفتنة هناك، فقام الإمام علي بإرسال مالك الأشتر إلى مصر لكي يطفأ نار الفتنة بحنكته، لكن مالك استشهد مسمومًا في طريقه إليها بخدعة من معاوية.

لقد صمد محمد بن أبي بكر وأنصاره أمام جيش عمر ابن العاص الذي بلغ تعداده ستة آلاف رجل بكامل عدتهم عندما جاؤوا لفتح مصر. إن معاوية كان على علم بأن الناس من بعد استلام محمد بن ابي بكر لزمام الامور لم يكونوا متحدين وقد زاد من اختلافهم وفرقتهم سوء أوضاعهم، فكتب إليه رسالة يتوعده فيها بالحرب والتمثيل به إن هو لم يستسلم قبل وقوعها وأن يسلمه مصر، فما كان منه إلّا أن بعث رسالة إلى أمير المؤمنين عليه السلام يطلب منه العون وقد قوّت رسالة أمير المؤمنين الجوابية من عزيمة محمد بن أبي بكر وثبتت أقدامه، وجاء فيها:

«أمّا بعد، ذكرت أنك قد رأيت ممن قبلك فشلًا فلا تفشل وإن فشلوا حصّن قريتك واضمم إليك شيعتك، واذكِ الحرس في عسكرك واندب إلى القوم (كنانة بن بشر) المعروف بالنصيحة والتجربة والبأس، فاصبر لعدوك وامض على بصيرتك، وقاتلهم على نيتك».

وباستلامه جواب الإمام بادر إلى إرسال رسالة إلى معاوية مذكرا إياه بما يأتي: «أمّا بعد، فقد أتاني كتابك وتأمرني بالتنحي عنك كأنك لي ناصح، وتخوفني بالحرب كأنك عليّ شفيق، وأنا أرجو أن تكون الدائرة عليكم، وأن يهلككم الله في الوقعة وأن ينزل بكم الذل وأن تولوا الدبر».

لقد استبسل محمد بن أبي بكر وقائده الوفي كنانة بن بشر والقلة من أصحابه وقاتلوا قتال الابطال في المعركة الغير متكافئة التي دارت بينهم وبين جيش معاوية، وبسبب تباطؤ أهل الكوفة عن نصرتهم اندحروا وتفرق أصحاب ابن أبي بكر من حوله وبقي وحيدًا في ميدان المعركة،

إلى أن آوى إلى خربة حيث أسر وهو مثخن بالجراح. وبعد وقوعه بأسر الأعداء ظل محافظًا على عزمه وإيمانه متيقظًا ومنتبهًا، لم يطأطئ رأسه ولم يهن أبداً، وفي طريقه إلى الفسطاط أخذت الشمس والرمضاء تحرقانه بلهيبهما لكنه لم يحني رأسه ليرى قدميه وبقي شامخًا ثابتًا على ولاية سيده ومولاه متغلبًا على آلامه وضعفه، وبعد مسيرة طويلة دخل المدينة وسط سخرية الأهالي وإهاناتهم، ولما اشتد به العطش وأخذ يحس بأن لسانه لصق بفمه إلتفت الى من حوله وقال لهم بشموخ وإباء: «اسقوني ماءًا»، في هذه الأثناء ضاع صوته بين الضجيج والهمهمة فقال: «قطرة واحدة من الماء»، فرّد عليه ابن حديج (وهو القائد الذي انضم بجيشه لمناصرة عمر بن العاص) بحوشية قائلًا: «لا سقاني الله إن سقيتك قطرة واحدة، أقسم بالله يا ابن أبي بكر سأقتلك عطشانًا حتى يسقيك الله من الحميم والغسلين (ماء يسقى به سكنة جهنم)»، أما محمد بن أبي بكر فقد بقي صامتًا رغم الحالة التي كان عليها وأجابه بحزم: «أيها الحائك يا ابن اليهودية، بل هي ارادتك أنت وهؤلاء، إنما هو الله هو الذي يروي أولياءه ويعطش اعداءه أنت وأمثالك، ومن تحب ومن يحبك كلكم أعداء الله، واللهِ لو كنت امسك بسيفي ما سمحت لكم أن تجعلوني على هذه الحالة». فأجابه ابن حديج: «أتعلم ماذا سأفعل بك؟ سادخلك في جوف بغلٍ ميت وأحرقكك» فقال ابن أبي بكر: «إن كنت تريد أن تفعل بي هذا فقد فعلت ذلك بأولياء الله قبل ذلك، أدعوا الله أن يحرقك انت وخليفتك معاوية ابن أبي سفيان وهذا (أشار إلى عمر بن العاص) بنار كلما خمدت أشعلها الله». فاستشاط ابن حديج غضبًا واستّل سيفه وفصل رأس محمد بن أبي بكر عن جسده، وأدخل جثته في جوف بغل ميت وأشعل فيه النار، وأرسل برأسه إلى معاوية، وكان اول رأس لمسلم يطاف به في أسواق

الشام. وبعد استشهاد محمد بن أبي بكر جاء عبد الرحمن الفزاري إلى الإمام الذي كان بمثابة عين الإمام في الشام، ونقل إليه الخبر وقال: «يا أمير المؤمنين إني لم أرى فرحًا وسرورًا كالذي رأيت عندما اذيع خبر استشهاد محمد بن أبي بكر في الشام، فاجابه الإمام قائلًا: «أمّا أن حزننا على قتله على قدر سرورهم به لا بل يزيد أضعافًا»[١].

واستنادًا الى ما نقله المسعودي: [امّا علم الإمام عليه السلام بسرور معاوية وأتباعه باستشهاد محمد بن أبي بكر قال: «جزعنا عليه على قدر سرورنا، فما جزعت على هالك منذ دخلت هذه الحروب جزعي عليه، كان لي ربيبًا (يقصد أسماء بنت عميس) وكنت أعده ولدًا، وكان بي برًّا، وكان ابن أخي (عبد الله بن جعفر) فعلى مثل هذا نحزن وعند الله نحتسبه»][٢].

لقد تعلم محمد البصيرة والصبر من إمامه وواظب على هاتين الدرتين الثمينتين إلى آخر عمره، واحتضن الشهادة برحابة صدر حتى قال فيه أمير المؤمنين باستشهاده: «أما والله فقد كان ما علمت ينتظر القضاء ويعمل للجزاء ويبغض شكل الفاجر ويحب سمة المؤمن»[٣].

ما أجمل النهاية التي انتهى إليها محمد، الذي نشأ وترعرع في أحضان الولاية وصمد ببسالة للدفاع عن حياضها حتى استشهد على يد أعداء الله، فهنيئًا له رضوان الله عليه ولعنة الله على أعداء الولاية.

لقد تناول الإمام علي عليه السلام في الرسالة التي أرسلها الى ابن عباس عامله على البصرة أهل الكوفة بالذّم لتقاعصهم عن نصرة محمد

---

(١) ابن أبي الحديد، شرح النهج، الجزء ٦، الصفحة ٩١.

(٢) المسعودي، مروج الذهب، الجزء ٢، الصفحة ٤٠٩.

(٣) ابن أبي الحديد، شرح النهج، الجزء ٦، الصفحة ٩٢.

بن أبي بكر قائلًا: «أمّا بعد، فإن مصر قد افتتحت وقد استشهد محمد بن أبي بكر، فعند الله عزّ وجّل نحتسبه، وكنت قد كتبت إلى الناس، وتقدمت إليهم في بدء الأمر، وأمرتهم بإغاثته قبل الوقعة ودعوتهم سرًّا وجهرًا، وعودًا وبدءًا، فمنهم الآتي كارهًا ومنهم متعلل كاذب ومنهم القاعد خاذلًا (أهل الكوفة) أسأل الله أن يجعل لي منهم فرجاً، وأن يريحني منهم عاجلًا، فو الله لولا طمعي عند لقاء عدوي في الشهادة، وتوطين نفسي عند ذلك، لأحببت ألّا أبقى مع هؤلاء يومًا واحدًا»[١].

إن الأمة التي لا تستجب لدعوة إمامها تصبح أسيرة الأهواء والظالمين كما هو الحال مع أهل العراق.

الحر ابن يزيد الرياحي

إن الجهاد في جبهة الحق هو أروع صور عزوف الإنسان عن الدنيا وطلّابها وتوجهه الى الله وأوليائه. فعندما يرى المجاهد أن النصر بعيد كل البعد عنه، وأن مآل أوضاعه نحو الهزيمة، عند ذاك تتوضح له عظمة جهاده. وفي التاريخ أمثلة كثير عن استبسال أصحاب جبهة الحق في مقارعة الباطل وابتعادهم عن كل أحلام الدنيا ونعيمها، مع علمهم التام بهزيمتهم الظاهرية والإستشهاد في سوح الوغى.

وأعظم من ذلك كلّه في تاريخ البشرية، على حسب ما وصلنا، تضحية اهل بيت النبوة عليهم السلام في بداية عام ٦١ للهجرة في صحراء الطف، تلك الثلة من الأخيار التي نهضت من بين المجتمع الإسلامي العريق في ذلك الوقت وتحملت عناء المسير من المدينة المنورة إلى

(١) ابن أبي الحديد، شرح النهج، الجزء ٦، الصفحة ٩٢ و٩٣.

مكة المكرمة ومنها إلى العراق، حيث كان جميعهم نموذجًا لخواص أهل الحق الذين أقدموا على اتخاذ أصعب القرارات في أصعب اللحظات، تلك القرارت وبكل أبعادها لم ولن تتكرر في التاريخ.

سنوضح لكم في السطور الآتية شخصية واحد من خواص أهل الحق ألا وهو (الحر ابن يزيد الرياحي)، فهذا الإنسان العظيم في أدق اللحظات المصيرية في تاريخ المسلمين أحدث تحولًا عجيبًا في مسيرته الفكرية، وقدّم أروع صورة لأسمى قرار في جو عصيب متلاطم. قلّما خضع قرار الحر الرياحي للبحث والتقييم بشكل شامل ومن جميع جوانبه، وإذا تسنّى رسم صورة واضحة لأبعاد التحول الفكري الذي حصل له في اللحظات الأخيرة التي همّ بها لتسجيل صفحة أخرى في التاريخ، فإن ذلك سيكون إنجازًا مهمًّا لكل الخواص المناصرين للحق لا بل للبشرية جمعاء.

ينتمي الحر الرياحي إلى قبيلة (بني رياح) من القبائل المعروفة التي سكنت البصرة، بايع يزيد عن طريق زياد بن أبيه، حاكم البصرة آنذاك، وأدرج اسمه في قائمة المبايعين الرواد من أهل البصرة والتي أرسلت للشام، ومنذ ذلك الحين أصبح موضع اهتمام وعطف البيت الاموي، فارتقى سلّم المناصب حتى أصبح له من المال والجاه الحظ الأوفر. وقد تزوّج بنساء كثيرات وأنجب منهنّ عدة أولاد، وكان من القادة الكبار في عهد عبيد الله ابن زياد الذي أصبح حاكمًا للبصرة بعد أبيه، مما جعل عبيد الله يسند إليه قيادة فوج الفرسان المؤلف من حوالي ألف فارس والذي خرج من الكوفة لمواجهة قافلة الإمام الحسين المتجهة نحو العراق وذلك في أواخر عام ٦٠ هجرية. لقد اسندت إليه قيادة فوج الفرسان وذلك لمهارته في الفروسية وقدراته

البدنية وقوة إرادته ورباطة جأشه. تضح اهمية اختيار الحر بالنسبة إلى حاكم العراقين (البصرة والكوفة) في أنه عندما اختاره لذلك المنصب كان في القائمة أسماء قادة آخرين امثال: شمر ابن ذي الجوشن، خولي بن زيد الأصبحي، كعب ابن طلحة الدارمي، نصر ابن خرثمة التميمي، يزيد ابن ركاب الكلبي، سنان ابن أنس النخعي، عروة ابن قيس وغيرهم في الكوفة، وكان عبيد الله قد وجد في كل هؤلاء بعض العيوب وهو ما أوضحه في حديثه مع عمر ابن سعد.

وما كان من حاكم الكوفة الجديد إلا أن بعث الحر ليعجل بالمواجهة مع الإمام الحسين بصورة لم يتمكن معها من تجهيز قواته بشكل كامل. فقال ابن زياد للحر: «وصلني خبر بأن الحسين في موضع زباله، وأنه في طريقه الى الكوفة، إن التباطؤ ولو لساعة واحدة هو امر خطير». فأسرع الحر بمغادرة الكوفة وفي موضع (ذو خشب) استعد لمواجهة قافلة الإمام الحسين وأوقعها في حصاره. لسنا بصدد البحث في أحداث المجابهة التاريخية لكلا الجيشين، لكننا نريد أن نبحث في الأبعاد التاريخية المهمة لهذا القرار، ونشير إلى أن الحر قد انضم إلى معسكر الإمام في الوقت الذي تأكد فيه هجوم جيش الكوفة على مخيم الإمام الحسين مساء التاسع او صباح العاشر من محرم. إن الخوض في ظروف الحر الرياحي والمعسكرين في تلك الظروف سيعيننا على بيان أهمية هذا القرار.

من الوهلة الأولى ندرك أن في الوقت الذي اتخذ الحر فيه قراره باللحاق بالإمام الحسين إذا أخذنا بعين الاعتبار علمه ببطش حاكم الكوفة (ابن زياد) وأوضاع ساحة القتال الغير متكافئة، حيث تقف مجموعة لا يبلغ عددها المئة في مواجهة آلاف مؤلفة، فهو كقائد عسكري كان

يعلم علم اليقين بأنه لا أمل بالنصر مطلقًا بالنسبة إلى معسكر الحسين وأنهم سيقتلون لا محال، من هنا يكون قراره بالإنفصال عن كل الألقاب والمناصب التي كان يشغلها وهو على رأس معسكر الكوفة باعتباره قائدًا للفرسان، والتوجه للمعسكر الذي هو محكوم بالهزيمة والفناء طبقًا للقواعد العسكرية، إنما هذا هو اهم ما يميز القرار الذي اتخذه. والمسألة الأخرى، هي أن في اتخاذه لهذا القرار الشجاع بعد إطاعة أوامر الحكّام وترك أفراده واللحاق بالعدو عقوبة الموت. من هنا فإنه إن لم يقتل في ساحة المعركة، فمن المؤكد أنه سيقتل من قبل حكومة يزيد بعد أن تضع الحرب أوزارها، فهذه سنة كانت تتبع في تقاليد الحروب عند العرب وباقي الامم، ولا تزال إلى يومنا هذا.

الميزة الثالثة في التحول العقائدي لدى الحر هو انه كان يحظى بالرئاسة والجاه والمقام الإجتماعي الرفيع لدى حكومة الشام والكوفة، وهذه الأمور من أهم الغرائز الطبيعية لدى الإنسان ومع هذا كله أعرض عن حب الرئاسة والمقام الرفيع وعن وعي تام معرضًا نفسه لسيوف المقاتلين الذين كانوا مؤتمرين بإمرته. بالإضافة إلى المنزلة الرفيعة التي كان يحتلها الحر في جيش الكوفة، فإنه كان يعد من أغنياء العراق أيضًا، حيث كان يملك الأراضي الزراعية والبساتين، كذلك كان يعلم جيدًا انه بالتحاقه بجيش ابن الزهراء عليها السلام المحاصر ليس فقط لن يبقى له مال، بل أن جميع أمواله المنقولة وغير المنقولة ستصادر، هذا إذا فرضنا بقاءه حيًا، كما هي عادة الحكّام الامويين. كذلك، فإنه كان على يقين أن بإنضمامه الى جيش الإمام سيحرم من كل حقوقه الإجتماعية وكذلك أسرته، لا بل إن قبيلة بني رياح كلها ستتعرض للملاحقة والسجن، وهو باعتباره أحد رموز حكومة معاوية ويزيد كان يعلم جيدًا سلوك آل سفيان في هذا المضمار.

لم يفّكر الحر بجعل نفسه بطلًا أسطوريًا، لأنه حتى ذلك الوقت لم يكن تدوين الحوادث التاريخية متعارفًا عند العرب عدا رسائل أهل البيت عليهم السلام. وقد شرع العرب بكتابة التاريخ منذ القرن الثاني للهجرة وذلك بواسطة الموالي غير العرب وإن السبب الرئيسي في اختلاف وجهات النظر حول أحداث القرن الأول الهجري هو عدم التدوين للحوادث التاريخية الذي ذكرناها.

لقد اختار الحر طريق الحق من غير أن يتوقع من أحد أن يذكر اسمه ويثني على فعلته، لأن أمير المؤمنين عليه السلام نفسه كان يُسبّ بصورة رسمية من قبل الأمويين، فكيف بشخص ينهض لنصرة ولده المحاصر في صحراء بأرض العراق؟

والنقطة المهمة أيضاً هي أن في ذلك الوقت كانت جماعة من أصحاب رسول الله لا يزالون على قيد الحياة، ومع ذلك فإنهم قد انعزلوا عن الحياة السياسية، كذلك بعض نساء النبي اعتزلن الأحداث رغم علمهن بعدم صلاحية يزيد للخلافة، في حين أنهنّ وقفن بوجه الإمام علي يومًا ما. وكان كذلك معظم أبناء الصحابة في أوج عظمتهم وقد اختاروا الإنضمام الى القاعدين مع موالاتهم القلبية للإمام عليه السلام، وكان بإمكان الحر أيضًا أن يفعل ما فعلوه ويعتزل كلا الفريقين، ويسلم بماله في أرض الله الواسعة، حتى لا تتلطخ يداه بالدماء الزكية لابن رسول الله وأهل بيته، لكنه لم يفعل ذلك، ولم يستطع أن يختار الحياد أمام بقاء أهل بيت الرسالة وحيدين بلا مناصر. في تلك الليلة جمع الإمام الحسين أصحابه وخاطبهم قائلًا: «غدًا كل من يبقى هنا سيقتل، لقد أخذت عهدًا من ابن سعد بالأمان لكل من يريد الفرار هذه الليلة وينجو بنفسه من طوق الحصار المضروب حولنا، انهضوا وخذوا بيد إخواني كذلك واذهبوا». إن مبادرة قائد عسكري في مثل هذه

الأوضاع بالإلتحاق بمعسكر القلّة العطاشى المحاصرين والمحكوم عليهم بالهزيمة هو عمل قلّما نجد له نظير في تاريخ البشرية.

حتى أن (كورت فيرشيلر) المستشرق الألماني يقول في كتابه الإمام الحسين والإيرانيين: «لا أعتقد أن بإمكاننا العثور على حادثة في الغرب مشابهة لحادثة لحاق الحر بن يزيد الرياحي بالحسين»، ويقول في مكان آخر: «هكذا التحاق لا نجد له نظير سوى في الأساطير». وحسبما تنقل الروايات فإن الحر لم يكن يتصور بأن الاوضاع ستؤول إلى صدام بين جيش عبيد الله ابن زياد وأبناء رسول الله، فهو كان يعتقد أن آل أبي سفيان سيقومون بمناورات أمام الحسين لصرفه عن المجيء إلى الكوفة لاستلام زمام الأمور، ولكنهم لن يجرؤا على قتله أبداً. لكنه بعد أن رأى تصميم قادة جيش الكوفة على إشعال نار الحرب والنتائج معلومة تمامًا، أقدم على اتخاذ أخطر قرار في التاريخ خلال بضع ساعات. إن إتخاذ الحر لذلك القرار في تلك الليلة المليئة بالأحداث يستدعي إرادة قوية وصلبة لأنه كان موفدًا من قبل حاكم العراقين لمواجهة الحسين عليه السلام، وإذا به يفعل العكس تمامًا وينضم للمعسكر الآخر. فهل من الممكن فعل هذا؟ نعم، فضميره يؤمن بذلك، لكنها دنياه كانت تقف بالضد من ذلك.

نقل (كورت فيرشيلر) في كتابه الإمام الحسين والإيرانيين عن القاضي سعد الدين أبو القاسم عبد العزيز المعروف بابن البراج، صراع وحوار الحر مع ضميره في تلك الليلة العصيبة بقوله:

يتسائل ضمير الحر بن يزيد الرياحي منه، هل حقًا تريد محاربة الحسين غدًا؟ فيجيب الحر: نعم، فيعود الضمير الذي يصفه ابن البراج (النفس الناطقة)، ليتساءل من الحر، ألا ترى عدة وعديد الحسين

الضئيل؟، هل تستطيع إقناع نفسك بالإنضمام الى هؤلاء الأفراد القلة في محاربة ذلك الجيش العظيم؟ يجيب الحر: بأني قد تلقيت الأوامر بمحاربة الحسين وسأحاربه بغض النظر عن تعداد أتباعه، فإن ذلك لن يؤثر في مأموريتي. فسيطرد ضميره أو نفسه النطاقة: ألا تعلم بأن الحسين هو سبط الرسول؟، فيجيب الحر بن يزيد الرياحي: بلى أعلم ذلك، فتقول النفس الناطقة: إن كنت تعلم بأن الحسين هو سبط الرسول، فكيف تحاربه؟ فيجيب الحر: بأني قد أُمرت بذلك ولا حيلة لي سوى قتاله؟ فتعود النفس الناطقة لتسأل: هل ترى أن الحسين يستحق القتل؟ فيجيب الحر: لا، فتسأل النفس: هل ترى بأنه بريء أم مذنب؟ ليس انا الذي أفعل ذلك بل هو حاكم العراقين، وهذا الأخير أيضًا لا يفعل ذلك بل هو مأمور بذلك، فيزيد ابن معاوية هو الذي يفعل ذلك، وإني لست سوى سيف بيد حاكم العراقين فهل يكون للسيف ذنب عندما يقطع رأس أحد ما أم أن الذنب ذنب من يمسك به؟ فقالت النفس الناطقة: ليس للسيف روح أو إحساس وليس له رأي يسمع له، لكنك تملك روحًا وإحساسًا ومخير فيما تعمل، فلا يلام السيف على قتل أحد لأنه جماد بل أنت الملام لأنك إنسان، وتملك عقلا وإحساسا، فالسيف بيد صاحبه يكون مجبرًا وليس مخيرًا وأنت مخير ولست مجبورا، وهل تستطيع القول بأنك مجبور على قتل الحسين؟ فقال الحر: من زاوية معينة نعم، فتقول النفس الناطقة: أي زاوية تلك؟ سأفقد منصبي إن لم ابادر إلى قتله، وسأحرم من الصلات التي تصلني، فتجيب النفس الناطقة: أنت تكذب، فإن لم تكن ترغب بالمجيء إلى هنا لمحاربة الإمام لم يعزلك أحد من منصبك، ولم يحرمك أحد من صلاتك، ففي اليوم الذي عيّنت لمواجهة الحسين ألم يكن بإمكانك الاعتذار عن ذلك وأن يبحثوا عن غيرك لأداء هذه المهمة؟ فقال الحر: بلى كنت أستطيع ذلك

لكني حينها كنت سأحرم من الجائزة. فتسأل النفس الناطقة: إذًا إذا وكّل أحد ما بقتلك، وقبض جائزة على فعله هذا فهل تعتبره بريئًا؟ وإذا قيل لك بأنه يريد قتلك من أجل الحصول على الجائزة، فهل تعتبره بريئًا ام لا؟ فقال الحر: لا بل أعتبره مذنبًا. فقالت النفس: فإن عملك مطابق لذلك فأنت لم تكن مجبرًا على قتال الحسين، ولكنك جئت إلى هنا من أجل الحصول على الجائزة، فإن حرمت النظر من الجائزة فلن يكون لديك دافع لقتل الحسين، فأنت مسؤول عن التهيؤ لقتله من أجل الجائزة فيسأل الحر: مسؤول أمام من؟ فتجيبه النفس الناطقة مسؤول أمام الله، ألا تؤمن بالمعاد؟ يقول الحر: بلى أؤمن بالمعاد. وتسأل النفس الناطقة هل تؤمن بأن عقاب المذنبين بعد المعاد هو أبدي؟ فيقول الحر: بلى هو كذلك، وتقول النفس: هل تستطيع حمل ذلك العذاب؟ وهنا سكت الحر وبعد لحظات أجاب: على أية حال، فات الأوان ولا أستطيع تغيير قراري. فتقول النفس الناطقة: بل الآن أيضًا تستطيع فعل ذلك فإنك لم تعد قائد وليس عليك مسؤولية قادة رجالك، فعمر ابن سعد عزلك عن منصبك ولم يعد لك عمل تقوم به هنا، فاذهب من هنا. فقال الحر: لا أستطيع الذهاب، لأني لو فعلت ذلك سيعتبروني هاربًا، فهل تعرف ما عقوبة الهرب من القتال؟ أخيرًا، اتخذ الحر ابن يزيد الرياحي قراره النهائي والتحق بمعسكر الحق.

لقد جاء في إحدى الروايات أنه في صباح العاشر من محرم رأى (قرة بن قيس) وهو من خواص جيش الكوفة، أن الحر مشغول البال متغير الحال، فسأله: «ماذا جرى؟»، فأجاب الحر: «أرى نفسي على مفترق طريقين، أحدهما يؤدي إلى الحق والآخر إلى الباطل، الأول ينتهي إلى الجنة والآخر يقود إلى جهنم»، فقال قرة بن قيس: «والآن أيهما ستختار؟»، فقال الحر: «أريد أن اختار طريق الجنة». فقال

ابن قيس: «ولكنك باختيارك هذا ستضع أقاربك في جهنم الدنيا، فتحيلهم إلى الضياع»، فقال الحر: «هل سيبقون أحياء إلى الأبد؟ ألن يموتوا؟». فانطلق الحر نحو طريق الهداية وانضم إلى موكب النور. لا شك أن هناك الكثير من بين قادة جيش الكوفة ممن يعلمون جيدًا الفرق الكبير بين الإمام الحسين وهو سيد شباب أهل الجنة وبين يزيد السكّير، كما هو الحال مع الحر، لكنهم لم يتمكنوا من التخلص من حب الدنيا ومتاعها لأن بريقها سلب عقولهم بالدرجة الأولى، أمّا الله والحقيقة فيأتيان بالدرجة الثانية أو الثالثة. فقد لاحت لهم صورة الموت المرعب في مخيلّتهم، وكانوا على استعداد أن يديروا ظهورهم للحقيقة في مقابل أيام قليلة في الدنيا. ولو حذا قادة جيش الكوفة حذو الحر في اللحظات المصيرية واتبعوا الحق الذي كان ساطعًا وانفصلوا عن الجيش اليزيدي، فهل كانت تقع حادثة كربلاء؟ نعم، إن قرار الخواص في الوقت المناسب يمكن أن يغير مجرى التاريخ في حين أن الحر بن يزيد الرياحي باتخاذه ذلك القرار المتأخر استطاع أن ينجوا بنفسه فقط.

حكيم بن جبلة

منذ اللحظات الأولى لقدوم جيش الناكثين المشؤوم إلى البصرة أراد (حكيم بن جبلة) أن يضيق الخناق على هذه الفئة الضالة، لما كان يغلي في وجوده من غيرة وبصيرة، لكنه في الوقت نفسه كان ملتزمًا برأي ممثل أمامه على مدينة البصرة (عثمان بن حنيف). لقد ذهب بمعيته للقاء الزبير وعائشة وطلب التزام الهدوء ريثما يصل حكم الإمام أمير المؤمنين، وعلى هذا الأساس خيّم على البصرة هدوء مؤقت، لكن العهد الذي يكون أحد أطرافه مروان ابن الحكم، طلحة

ابن عامر والزبير الناكث للعهد هو عهد لا قيمة له بالمرة، وهذا بالفعل ما كان يعتقد به حكيم بن جبلة رئيس قبيلة (بني عبد القيس) اعتقادًا راسخًا، فهل نستطيع بعد أربعة عشر قرنًا أن نصف جانبًا من تضحيات حكيم بن جبلة؟ ذلك الذي عرف من قبل العظام، بأنه بطل من الأبطال وأسطورة المضحين في سبيل أهدافه المقدسة، إننا في هذه العجالة لا يمكننا أن نستوعب جميع تضحيات هذا البطل، لكن من لا يستطيع أن يحتوي ماء البحر فعلى الأقل يغرف منه غرفة يطفئ بها عطشه، وبالخصوص حياة هؤلاء العظام صحابة رسول الله، الذين نعتبرهم قدوة بارزة لنا ولكل من اراد أن يضحي في سبيل المبادئ الإسلامية لينشر مبادئ الحق والحرية.

سنتطرق في السطور القادمة عن صفحات حياته المشرقة وجانب من جوانب صموده في وجه طلحة والزبير وبقية الناكثين الذين جعلوا من البصرة ساحة للعب بمقدرات المسلمين.

يعتبر حكيم بن جبلة أحد عرفاء زمانه ووتداً راسخًا في عصره، وهو أحد أصحاب الرسول ﷺ، وكانت له زعامة قبيلة عبد القيس. كان على علم بحق الإمام علي واهل بيته، وبعد مبايعة إمامه اتجه إلى البصرة مع عاملها المنصّب من قبل أمير المؤمنين، ولم تمضي سوى عدة أشهر على شمس عدالة الإسلام في سماء البصرة حتى وصل الناكثون إلى أبوابها كغربان مشؤومة. يقول عبد الفتاح عبد المقصود في وصف هذه الجماعة في كتابه الواقعة عن لسان أهل البصرة:

«أفهل عاد الماضي المشؤوم مرة أخرى ورجعت الظلمة من جديد؟ أينما يرمون ببصرهم على هذا الجيش الذي جاء ليوقع بهم الهزيمة يرون وجوهًا حقودة كالحة، أشباح بهيئة بشر، فهذا ابن عامر

حاكمهم السابق الذي طردوه، وهذا ابن عقبة الفاسق الفاجر يرجع ثانية، ومروان أيضًا حاضر مع الجمع ابن ذلك المطرود من قبل رسول الله، هو نفسه مروان الطاغية الهتّاك الذي أشعل بحماقته البلاد وأنهى حياة عثمان. هؤلاء وأشباههم عندما يقع بصر المرء عليهم تكاد العبرة والألم تخنقانه. ألم تجد عائشة أنصارًا لدعوتها أفضل من هؤلاء لكي تعتمد عليهم؟ إن قدوم جيش الناكثين إلى البصرة كان بمثابة شوكة في عين حكيم وكل العقلاء من أهل البصرة، لأن الزيف والنفاق لهما الأثر البالغ في تضليل العوام من الناس لأنهم يتأثرون بالألقاب والمناصب والأشخاص، وعندهم هذه الامور مقدمة على الحق والعدالة، فهم ينظرون إلى ماضي طلحة والزبير وعائشة لفقدانهم القدرة على تحليل الأحداث وإدراك المعايير وتقييم الأشخاص. أمّا الخواص من أهل الحق من أمثال حكيم بن جبلة، فقد كانوا على علم بنواياهم الباطلة وعطشهم للرئاسة والزعامة الجاهلية والرعب من عدالة أمير المؤمنين، كل ذلك دفعهم وراء زوجة رسول الله المخدوعة للتوجه إلى البصرة».

وكما تنبأ حكيم وكل ذي بصيرة من أهل البصرة، فإن الأسلوب الوحشي الذي اتبعه مروان وزمرته الإنتهازية أوصلت الأمور إلى مرحلة جعلت دماء الأحرار تغلي في عروقهم، وأدّت بحكيم ذلك الصحابي الشجاع الغيور على دينه إلى عمل أسطوري عظيم، وسيبقى هذا البطل على طول التاريخ قدوة حسنة لكل المجاهيدن والخيّرين.

نعم، لقد هجم جيش الناكثين على الحراس في البصرة وعلى المسجد ولطّخوه بدماء الأحرار ليلًا، وبهذا العمل الجبان يكونوا قد انقضوا العهد الذي أبرموه مع والي المدينة من قبل الإمام علي، ولم يكتفوا بذلك بل ذهبوا إلى بيت الوالي عثمان ابن حنيف يتقدهم

طلحة والزبير وهجموا على الحرس على حين غرّة وسفكوا دماءهم ظلمًا، وأضافوا إلى سجلّهم الأسود أربعين ضحية أخرى في تلك الليلة، وبعد أن بقي ابن حنيف وحيدًا لا ناصر له أسروه، حيث انهال عليه مروان بالسياط ثم أخذ يهلس شعر رأسه ولحيته وحاجبيه حتى رموشه ليثبت وحشية أصحاب الجمل للباحثين عن الحقيقة على مدى التاريخ، وذهبوا به إلى معسكرهم عند أم المؤمنين حيث أمرت بقتله ولم ترضى بسجنه حتى استجدّت أمور ليس هنا مجال لذكرها. ثم أغار أصحاب الجمل بعد ذلك على بيت المال ونهبوا كل ما فيه، ولم يطلع الصباح حتى كانت البصرة بأيديهم ووالي المدينة رهينة عندهم.

لم ينم ابن جبلة قط في تلك الليلة ولم يهدأ له بال، فمجرد سماعه أخبار الغارة حتى انتفض من مكانه كالأسد وثار بشدة لخيانة ذلك الجمع ونقضهم للعهد. لقد استشهدت جماعة من قبيلة عبد القيس في المواجهات التي جرت، فقد كان عددهم لا يتجاوز ثلاثمائة نفر وقفوا امام جيش الناكثين الذي بلغ بضعة آلاف رجل، والذي حدى بهؤلاء القلة للوقوف أمام ذلك الجيش وكأنه الحصى في البراري هو معرفتهم للحق وحميتهم الدينية. إن الهجوم الشجاع الذي قام به حكيم ابن جبلة ومجموعته القليلة ضد تلك الجموع الضالة بقيادة طلحة والزبير وأخبارهم المذكورة في المصادر التأريخية الإسلامية تعتبر بحق من البطولات النادرة، لقد أجاد الكتّاب المسلمون الحاذقون في وصف تلك الملحمة لذاك الرجل العظيم في الدفاع عن إمامه، ومن بين الذين قاموا بوصف تلك الملحمة هو الكاتب (عبد الفتاح عبد المقصود). نورد لكم مما ورد:

«خرج على رأس مجموعة صغيرة حتى وصل إلى مقر الأعداء وهناك

إلتقى بحنود عائشة وعدتّهم المخيفة، وإذا بعبد الله ابن الزبير يُقبل نحوهم، فوقفوا وسط الميدان كنموذج بارز للغرور والعداء والتعدي وقال بغضب موجهًا كلامه لزعيم الثوار: «ماذا تريد يا حكيم؟» فقال بدهاء وهدوء: «نريد نصيبًا من هذا المال». ألم يعلم أن هذا اللص البخيل سيرفض طلبه؟ فلو لم يردعه أبوه (الزبير) لمنع حتى اتباعه من المال. فاجابه ابن الزبير بجواب متوقع في مثل هذه الحالات: «لا نعطيكم شيئًا»، لقد أثلج هذا الجواب صدر جبلة، فلعله كان يريد أن يُمسك بهذه الحجة فأُعطيت له، في هذه الأثناء يغيّر حديثه مع ابن الزبير ويدخل إلى صُلب الموضوع الذي جاء من أجله: «وأطلقوا سراح عثمان بن حنيف حسب المعاهدة التي أبرمتموها، وليحكم في دار الإمارة حتى يأتي الإمام»، فكان جواب العدو ينمّ عن إحساس بالتكبر والإستعلاء واللامبالاة وبلهجة الأمر: «لن نطلق سراح عثمان بن حنيف حتى يخلع عنه بيّعة علي».

إذن لقد اتضحّت النيّات وانكشفت السرائر، إذ كانت مسألة إطلاق سراحه حيلة وخدعة ليس إلّا، لغرض تشتيت صفوف المعارضين وتفريق الناس؟ فإنكم تبادلون إطلاق سراح ابن حنيف مقابل خيانة موالاة علي؟ كان غرضهم من هذه المعارضة نزع زمام الأمور من يد ابن أبي طالب، وإن كانوا قد أخفوا ذلك تحت غطاء الانتقام لدم عثمان، في هذه الأثناء رأى حكيم أنهم يدفعون أهل مدينته من خيانة إلى أخرى بالمال تارةً والتهديد والإرهاب تارةً أخرى، ويحرضونهم على نقض عهودهم وبيعتهم تحت تلك السياط، فصاح بهم غاضبًا: «والله لو توفر لي أتباع سأحاربكم، ولن أكتفي بهذا بل إني سأقتلكم». فنظر إلى من حوله نظرة تحريض، كأنه يريد أن يجعل دماءهم تغلي في عروقهم ويشحذ هممهم ليقولوا: نحن الاتباع الذين تبحث عنهم، فلما

رأى أنهم استثاروا غضبًا ولبّوا نداء حميتهم وغيرتهم، فتوجّه ببصره نحو عبد الله وعيناه تقدحان ناراً وقال متحديًا: «والله، لقد استبيحت دماؤكم بقتلكم إخواننا، ألا تخافون الله؟ بأي عذر استبحتم دماءهم؟ من أجل دم عثمان؟ وهل الذين قتلتموهم كانوا هم قتلة عثمان؟

كان هذا الدليل القاطع قد أخرس لسان المرء والمجادلة، فهل يستطيع ابن الزبير أن يدّعي بأن مذبحة المسجد ودار الإمارة وقتلى (عبد القيس) كلهم كانوا من أجل الإنتقام لدم عثمان؟ كان الزبير وطلحة وعائشة وجميع أتباعهم كانوا يبحثون عن قاتل واحد لكنهم وبسهامهم قتلوا المئات، في حين لم يكن الخليفة من بين كل هؤلاء، فهل هذا برأيهم قصاص عادل؟

فرفع ابن جبلة عيناه إلى السماء ليسأل الله الشهادة: «اللهم انت الحكم العدل، اللهم فاشهد». والتفت إلى المجموعة التي وقفت وراءه وقال «أيّها الناس، أمّا أنا فليس عندي أدنى شك في قتال هؤلاء، فمن كان منكم على شك فليرجع». لقد أشعلت هذه الكلمات نار الحرب، ولم يضع ابن جبلة في حسابه عدم التكافؤ بين الفريقين، فهو لم يراجع عدد وعدّة المعسكرين، واستل سيفه ليخترق الصفوف المحتشدة ويبيدها، لقد استل سيفه وهو في بيت المال وظنّ أن بيده المنجل وأن عليه حصد رؤوس الفتنة، تلك الرؤوس التي جاءت من صحراء مكة إلى سواد البصرة، وأن الدفاع عن حكومته ليس في رضا الله. لم يضع حكيم في حسبانه مطلقًا أنه يواجه آلاف مؤلفة من الجند المجهزين بأفضل الأسلحة والتجهيزات في حين أنه يقود ثلاثمئة محارب فقط، كان سلاحه الحق والإيمان، اشتبكت الحراب، وأصبح كل فرد من أصحاب الجمل يتقدم نحو تلك المجموعة الصغيرة ليُغرس

رمحه فيها، وتقدم طلحة نحوهم وكذلك الزبير كما لو أنهم يقاتلون جيشًا معتديًا. نظموا صفوفهم وعيّنوا قادتهم، فهجم أربعة قادة بشكل منظّم على تلك المجموعة القليلة العدد القوية الإرادة. كان طلحة أحد هؤلاء القادة، حيث قاد مجموعته نحو حكيم، فوقف أمامهم بثبات ورباطة جأش وهو ممسك بسيفه، يردد أُرجوزته:

أضـــــربـــــُهـم بـــــــــــالـيـابـس

ضــــــربَ غـــــلامٍ عـــــــــــابــس

مـــــن الــــحــــيـــــاةِ آيـــس

لقد ضحّى بدمه مقابل وفائه وقدم حياته رخيصة فداءً لإيمانه، وكان يعلم منذ البداية بأن هذه المعركة غير متكافئة وكان على علم بنوايا أعدائه، وأن القطب الذي تدور عليه الرحى هو بيرق عائشة بنت الصدّيق، فإذا نكّس هذا البيرق في بداية الحرب سيمتلكهم الرعب ويفقدون رباطة جأشهم ولن يبقَ لهم شيء يدافعون عنه. فقد كانت عائشة رمزًا لوحدتهم، فهي التي تثير فيهم الحميّة وتحرضهم على القتال. والله وحده هو العالم بأن ابن حكيم كان يريد قتل عائشة أم أنه كان يريد أخذها كرهينة حتى يساوم بها على صلح مشرف له ولقومه، ويعيد هيبة وسطوة الخلافة للإمام في البصرة ويستعيد سلطته المغتصبة. وما إن اشتعلت الحرب حتى سارعت جماعة من أصحابه إلى بيت أم المؤمنين القريب إلى بيت المال لكي يقتحموه، هذا العمل بلا شك هو آخر ما تبقى لهم من أمل لإعادة الاستقرار الى المدينة والأمة، لكن هذه المجموعة لم تستطع من اقتحام بيت عائشة بسبب كثرة المدافعين من قبائل قيس والأزد ورباب الذين اصطفوا امام الدار مدافعين عن عائشة، لأنهم كانوا يعتقدون بقدسية هذه

المرأة باعتبارها عايشت الرسول عليه الصلاة والسلام، لقد كان باب منزلها شاهدًا على الاجساد المقطعة بالرماح.

لقد كان للمواقف الشجاعة التي وقفها ابن جبلة أن ترفعه إلى مصاف الأبطال الأسطوريين، لكن تلك المواقف لم تجلب له النصر المطلوب وقد أمطروه بوابل من الحراب وكذلك بالحجارة والتراب لكنه ظلّ صامدًا حتى اقترب إليه رجل من أصحاب الجمل وباغته وضربه بسيف فقطع إحدى رجليه، في هذه اللحظات الصعبة التي يفقد فيها الشخص زمام المبادرة واعتصر وجوده الألم، لم يتأثر حكيم بذلك ولمّا خارت قواه من شدة نزف الدماء نظر إليه الرجل الضارب نظرة شماتة وهو يشرف على السقوط من شدة الألم وعدم وجود الناصر. هل حقًا سيدفن ذلك الإنسان العظيم تحت هذه الاجساد المقطعة؟ رغم كل هذا لم يستسلم حكيم أو انه في هذه اللحظات بالذات التي كان يغط فيها بنوم الموت رأى حلم الشجاعة فأخذ يردد بفخر واعتزار: «أنا لست ممن يموت بذل والفرار عار، إن الموت لا يثقله المجد والإباء». لم تبق إلا لحظات من عمر حكيم، حتى وصل إليه أحد فرسانه وصاح به: «حكيم! ماذا حدث يا حكيم؟»، «لقد قضي عليّ». وحتى في اللحظات الحرجة، لم يسمح له كبريائه وفخره أن يهن فقال مبتسمًا: «هذا متكئي هذا»، فقام ذلك الفارس بحمل حكيم وذهب به إلى مكان آمن، فتحلّق أصحابه حوله بشكل دائري فارتفعت معنوياته عندما رآهم مجتمعين حوله، ومع أن السيوف لم تتوقف عن الحركة من حولهم فإنهم لم يهتزوا قيد أُنملة ولم يعيروها أي إهتمام، فقال حكيم: «أيها الناس، نحن خالفنا هذين الإثنين وبايعنا عليًا وألزمنا انفسنا طاعته، والآن قد جاؤوا ليطالبونا حسب زعمهم بدم عثمان عن طريق العناد والحرب، يريدون أن يفرقوا بيننا وبين جيراننا، والله يشهد أنهم

لا يريدون الثأر لدم عثمان». ولم يستطع مواصلة حديثه لانقطاع نفسه ولم تعد كلماته تصل إلى الأسماع، وانحبست بقية الكلمات في صدره حيث أطبق الموت عليه.

لا يمكن إنكار هذه الحقيقة، وهي أنه بلا شك كان نموذجًا خارقًا للتضحية والدفاع عن العقيدة، بشكل يصعب معه إيجاد قرين له بين الرجال أو شبيه بين الأبطال، يكفيه فخرًا أنه رجّح الموت بشرف على حياة العار والاستسلام. لقد ذهب إلى بارئه بقرار صلب وقناعة كاملة بالموقف الذي اتخذه، مسرورًا في الدفاع عن الحرية وعدم استعداده لتحمل طغيان الأعداء، والرضوخ لعقيدة لا يؤمن بها. وكان يرى في عائشة وأصحابها جيشًا معتديًا وظالمًا يريد بقوة السلاح وفي عصر سطوع شمس العدالة والنور أن يرجع إلى اهل البصرة إلى عصور الظلام والجاهلية، لذا انتفض ليمحوا آثار المحنة والعذاب بلسانه ثم بدمه. وكانت كلماته المختصرة تلك الكلمات التي بيّنت شخصيته بوضوح وطرحت العقيدة الحقّة التي آمن بها وضحّى بنفسه من اجلها رافضًا كل أنواع الذل والهوان، حتى أصبح علمًا يسير خلفه أتباعه ومحبيّه وشركاؤه في العقيدة، والحق انهم قد دافعوا عنه وحاربوا أعداءه وبذلوا آخر قطرة من دمائهم، وستظل كلماته ترّن في الأسماع، ما دامت هناك آذان صاغية لنداء التقوى والحرية في هذا العالم.

الفصل الخامس

نماذج من خواص الباطل

«حب الدنيا هو أن يطلب الإنسان لنفسه، ويتحرك لنفسه، أن يجمع لنفسه سواء كان من بيت المال أو غيره، وهذا عمل سيء. يجب أن ننتبه جميعًا ألّا يقع مثل هذا الأمر. إذا أصابتنا الغفلة عندها سيفرغ المجتمع ويصل الى مرحلة لا يبقى له سوى هيكل أو جوف وفجأة يأتي الإمتحان العظيم، إمتحان ثورة أبي عبد الله عليه السلام عندها يفشل المجتمع في ذلك الإمتحان.

الإمام الخامنئي دام ظله

عبيد الله ابن عباس

مما لا شك فيه أن من أهم العوامل التي أدّت الى إنحراف البشر عن الطريق الذي اختاروه على طول التاريخ هو حب المال والثروة ومتاع الدنيا الزائلة. فكم من الحروب أشعلت بين بني البشر بسبب الذهب والفضة، وكم من المجتمعات شتتها وكم من الإرادات الحرّة أذلها وقهرها.

في الصفحات القادمة سنرى كيف أن خزانة البصرة المليئة بالجواهر قد أغرّت الصحابي (عبد الله ابن عباس) ابن عم الرسول وأمير المؤمنين، وبعد أن فرّغ تلك الأموال والجواهر في رحله سلك طريق مكة المكرمة وترك مولاه وإمامه في أحرج اللحظات في خضّم الأعاصير التي أحاطت تلك الفترة من التاريخ، وفي الوقت الذي كان معسكر الإمام عليه السلام أحوج ما يكون إلى رجال بارزين مشهورين ثابتي الأقدام لغرض تعبئة الناس لمحاربة الدجل والنفاق من الداخل. حقًا إن حياة هذا الصحابي الجليل الذي يعتبر من كبار رجال صدر الإسلام، هي قصة عجيبة مليئة بالعبر للخواص في تاريخ الأمم والمجتمعات كما وتعتبر سيرته تراثًا من العبر والتجارب لا مثيل له في تحليل عوامل الثبات والصمود للخواص المناصرين للحق. كما أن قصة أخيه الأصغر (عبيد الله) هي من الصفحات الخطيرة المليئة بالألغاز في التاريخ.

عبيد الله، هو الأخ الأصغر لعبد الله ابن عباس بن عبد المطلب بن

هاشم، وهو ابن عم الرسول وفارس من الفرسان الذين ناصروا الإمام علي والإمام الحسن المجتبى عليهما السلام. ولد عبيد الله ابن عباس بعد سنة أو سنتين من هجرة النبي للمدينة المنوّرة، وبقي أبوه العباس في مكة وحارب إلى جانب الأسرى، كان عبيد الله في التاسعة من عمره عند وفاة الرسول، وشهد الظلم الذي لحق بآل بيت النبوة، وقد اتجه كسائر أهل بيته نحو موالاة بيت علي وعيّن واليًا على اليمن من قبل الإمام عليه السلام بعد أن تعرضت اليمن إلى خطر هجوم (بُسر بن أرطاة) على الثغور الغربية للدولة الإسلامية، وكان عبيد الله يسمع بانتصاراته، فقد آثر الفرار من اليمن على مواجهة جيش بسر بن أرطاة، ومن شدّة خوفه وانشغاله بنفسه ترك ولديه الصغيرين في اليمن واتجه نحو الكوفة مرعوبًا ولمّا دخل بُسر المدينة ذبح ولديه بوحشية وبدون رحمة ليحرق بهما قلب عبيد الله. شهد عبيد الله استشهاد أمير المؤمنين في الكوفة وبعدها بايع الإمام الحسن. وعلى أقوى الإحتمالات فإن ابن عباس الذي ذكر التاريخ بأنه طرح على الناس فكرة مبايعة الإمام الحسن كخليفة للمسلمين هو عبيد الله ابن عباس لأنّ عبد الله بن عباس كان آنذاك في مكة ولم يتسنى له ذلك.

في فترة خلافة الإمام الحسن، كان عبيد الله من خُلّص أتباعه وأصحابه، من هنا وبعد مراسلات طويلة ومستمرة رأى الإمام الحسن أن ابن أبي سفيان اللجوج مصمم على إشعال نار الحرب، جهّز جيشًا بقيادة عبيد الله وأرسله لمواجهة معاوية وكان عمره حينذاك ٣٩ سنة، وكان في أحسن حالاته البدنية والروحية، وكذلك كانت جمرة الغضب على جريمة قتل ولديه لم تنطفئ بعد، وهو ابن عم الرسول وأمير المؤمنين وموضع تأييد القريب والبعيد في الجيش، لذا كان تعيينه كقائد لمقدمة الجند أفضل اختيار من وجهة نظر الإمام الحسن. وقام

الإمام عليه السلام بمرافقة الجيش الذي جهّزه إلى منطقة (دير رحمان) فعسكر هناك ثلاثة أيام حيث انشغل بإعداد الجند وتعبئتهم من الجوانب كافة ومن ثم قال لعبيد الله: «يابن العم، أرسل معك إثنا عشر ألفًا من مقاتلي العرب وقراء المدينة الذين يعادل أحدهم صفًا طويلًا من الأعداء، فألِن لهم وارفق بهم وتواضع لهم، وقرّبهم إليك لأنّهم البقية الباقية من أولئك الرجال الذين كانوا موضع ثقة أمير المؤمنين علي والزم نهر الفرات في تقدمكم نحوهم ليكون رجوعكم من نفس المسير.ثم تصل إلى منطقة (مسكن) ومن هناك تنطلق نحو معاوية، وإذا اشتبكت معه فاشغله هناك حتى ألحق بك، وأطلعني على أحوالك وأوضاعك يوميًا وشاور هذين الرجلين (قيس بن سعد وسعيد بن قيس)، وإذا وقفت حيال معاوية فلا تبدأه القتال وإذا بدأك القتال فرّد عليه، وإذا أصابك مكروه فقيس بن سعد أمير وقائد الجند وإذا قُضي عليه فالإمارة لسعيد بن قيس»، ثم أوصاه بأمور أخرى.

انطلق عبيد الله حسب المهمة التي كُلّف بها ووصل منازل (شنيوز) و (شاهي) و (فلوجة) التي تقع بمحاذاة نهر الفرات واستمر في مسيره حتى وصل (مسكن) حسب وصية الإمام. وكذلك وصل معاوية بجيشه البالغ ٦٠ ألف مقاتل إلى المنطقة نفسها، وفي اليوم الثاني من استقراره أرسل معاوية جيشه للمواجهة مع جيش عبيد الله، وهذا الأخير شرع بقتالهم ورد جيش الشام إلى الوراء حتى وصل إلى مقر قيادة الجيش. إلى هنا يكون عبيد الله قد نفّذ ما أوصى به إمام المسلمين ما عدا شيئًا واحدًا وهو عدم إرساله التقارير المفصّلة عن نشاطات جيشه وهذا ما تضمنته رسالة (قيس بن سعد) للإمام عليه السلام في الأيام التالية، وإذا كان كذلك فهو خطأ جسيم بالنسبة للقائد

وعلامة على التهاون وعدم الإنقياد. رجع عبيد الله عند الغروب إلى خيمته بعد أن هزم جيش ابن أبي سفيان المعتدي في النهار، وشكّل مجلسًا حربيًا وشرع بدراسة أوضاع الجيش والجبهة، ثم خلا بعد ذلك بنفسه. أرخى الليل سدوله فأصبح حاجزًا بين المقاتلين وبين نهارهم المضطرب المشحون، ينزعون عن اجسامهم ملابس الحرب الخشنة الملمس، ويلقون بأسيافهم ودروعهم، وينصرفون في داخل معسكرهم إلى ممارسة حياتهم العادية ولكن ليس بالحد الذي اعتادوا عليه في مدنهم، فمن المحتمل أن يتجدد القتال في أي لحظة. لذا تشاور القادة الأدنى مع القادة الأعلى في جوف تلك الليلة وهذه مسألة عادية في كل جيش ولم يشذ عبيد الله في تلك الليلة المصيرية عن هذه القاعدة.

وفجأة دخل حارس خيمة عبيد الله بن العباس، وأبلغه عن وجود رجل يطلب مقابلته وكان يحمل رسالة من ابن أبي سفيان يُريد إبلاغها الى عبيد الله ابن العباس بن عبد المطلب، أن بني عبد شمس وبني هاشم هم أبناء (عبد مناف) المعروفين بقبيلة عبد مناف وكانا يمثلان الذراعين القويتين لقريش، لكن مع هذا وككل القبائل كانا يحملان لبعضهما الحسد والضغينة آنذاك، كان أحدهما مناطًا به سقاية الكعبة والآخر كان بيده مفتاحها.

ولما اصطفى الله عز وجل محمدًا صلّ الله عليه وآله للرسالة، وهو من بني هاشم وشرّفهم بهذا المقام الرفيع، إمتلأت قلوب بني عبد شمس غيظًا أكثر من باقي القبائل الأخرى بهذا التشريف الإلهي، لأنهم فجأة تخلفوا عن منافسيهم الرئيسيين (أبناء عمومتهم) بمسافة طويلة لا يمكن طيّها. لذلك سعوا إلى زرع شتى العراقيل والعقبات في

طريق النبي الهاشمي، وقاد أبو سفيان خط المعارضة للنبي وأصحابه وبقي على ذلك حتى فُتحت مكة على رأس جيش قوامه عشرة آلاف مقاتل. امتطى العباس ابن عبد المطلب فرسًا أبيضًا حاملًا معه أبي سفيان واخترقا صفوف الجيش، وقد أعطاه الأمان حتى وصل إلى خيمة الرسول، ليبعث حياة جديدة لزعيم المشركين في آخر لحظة. وهاهم أبناء هذين الرجلين المشؤومين يواصلان طريق آبائهما كقائدين لجيشين متنازعين بالقرب من قرية (حيوضية) في أرض (مسكن). عبيد الله ممثلًا لجيش الإسلام ومعاوية ممثلًا لجيش المشركين، الوجوه فقط هي التي تبدّلت، فلا تتوقع من معاوية خيرًا ولا من عبيد الله حقًّا، إن العباس بن عبد المطلب في إسلامه ليس كأبي طالب ذلك الرجل الذي تولّى حماية النبي، ولا كأخيه حمزة بن عبد المطلب الذي ضحى بنفسه في سبيل ابن أخيه، وليس ابناه (عبد الله وعبيد الله) كعلّي وجعفر عليهما السلام اللذان استشهدا في سبيل الإسلام، ففي الوقت الذي كان جميع أبناء عبد المطلب يفدون أرواحهم في سبيل نصرة الدين الحنيف والدفاع عن حرمة رسول الله، كان العباس في مكة غارقًا بالمعاملات الربوية ولم يكفه ذلك، بل وصم على جبينه ختم الأسر مثل بقية المشركين في معركة بدر. وآلت الأمور بالتالي إلى أن يرتكب أحفاده مركب الدفاع عن إستعادة حق أهل البيت واللعب بعواطف المسلمين وإيجاد الدولة العباسيّة الغاصبة.

والآن نبحث في قضية المقايضة التي قام بها ابنه عبيد الله على حساب الإسلام في تلك الليلة الظلماء من ليالي سنة ٤٠ هـ، في أرض شمال العراق بمحاذات نهر الفرات تلك المقايضة التي لم تكن متوقعة من رجل هاشمي حتى بعد مرور ١٤٠٠ سنة على تلك الليلة، نعم إن لقاء مبعوث معاوية بعبيد الله تعيد للأذهان لقاء الآباء ليلة فتح مكة،

لقد جاء المبعوث قادمًا من معقل المكر والخداع (معاوية) باقتراح قذر ومشبوه كان بمثابة الطعم لتلك المعاملة، وفيما يلي نص رسالة معاوية إلى عبيد الله: «لقد عرض الحسن ابن علي الصلح وسيتنازل لي عن الخلافة، فإن أصبحت أحد قوادي وأطعت امري سأبقيك في منصبك، وإلّا ستكون منفذًا لأوامري وطائفًا لي عندما تكون مغلوب على أمرك، واعلم أنك لو أطعتني الآن فسأعطيك ألف ألف درهم، نصفها الآن ونصفها الآخر عند دخولي الكوفة»، ماذا تعتقد؟ هل أن عبيد الله سيساوم على ابن رسول الله بعرض المليون درهم؟ عل سيعرض عن طريق الإسلام ويوم القيامة؟ هل سيعرض جبهة العراق المبتلاة الى مزيد من الاضطراب؟ هل سيترك إمامه في ساباط ويلتحق بعدو الإسلام وقاتل طفليه؟ هل سيوصم جبهة أبناء العباس بالعار؟ وهل سيخبر إمامه بعرض معاوية؟ وهل سيتحقق في صدق دعوى معاوية؟ وهل يتشاور مع مشاوريه قيس بن سعد وسعيد بن قيس حول إدعاء معاوية؟ كلا! لم يفعل أيّا من هذه الأمور، فحُلُم المليون درهم قد سلب عقله، إنه يؤمن بالله، لكن بريق الأموال قد أعمى بصره، كان يحفظ آيات القرآن الكريم وصورة القيامة مطبوعة في ذهنه، لكن زخارف الدنيا وإغرائها أقوى. كان يميز جيدًا بين الحق والباطل، ولكن التحاقه بمعاوية سيُمسك بمتاع الدنيا، الثروة، الخيل، النساء الحسناوات، القصور العديدة كانت في انتظاره. كان يعرف جيدًا من هو الإمام الحسن وكذلك من هو معاوية، لكن حان موعد الامتحان العسير، فالانصراف عن المليون درهم والمقام والجاه في حكومة الشام أمر صعب.

نعم، ما أن تسلّم عبيد الله دراهم ابن أبي سفيان في تلك الليلة حتى ترك خيمة العزّ والشرف، لعلّه كان يشعر بكل خطوة يخطوها

نحو معاوية بتأنيب الضمير في كل خطوة يخطوها وهو ينظر إلى خيمة القيادة، والى الجند الذين كانوا يحيطون به والى ما يتوقعونه من ابن عم النبي، ومن ابن عمه الغريب في ساباط وجميع أبناء بني هاشم. من يدري لعلّه كان يسلي النفس بأن لا أحد مطّلع على فعلته سوى الله سبحانه وتعالى. وبتركه الإسلام يكون قد لبس ثوب الذل والعار، ولا نعلم أنه عندما ذهب إلى معاوية كان قد حمل معه درعه وخوذته وسيفه أم أنه ذهب إليه بلباس النوم فهو الأنسب لحالة الإستسلام.

على أية حال، فقد ذهب والتحق به ثمانية ألف مقاتل، وإستنادًا إلى ما نقله المؤرخ العربي اليعقوبي في تاريخه: «لم يردعه من السقوط في الهاوية دين، أو انتقام، أو تفاخر قبلي، أو قرابته لرسول الله أو قيادته للجيش، أو العهد الذي قطعه على نفسه امام الله يوم بيعة الحسن بن علي عليه السلام، ولا مخافة من ألسن الناس وانتقام التاريخ، فقد تسلل في جنح الظلام هاربًا كالذليل ليسجل اسمه في القائمة السوداء. إن فراره قد قلب أوضاع جيش العراق، وجرّ اليأس وانعدام الأمن الى المدائن وهي محل استقرار الإمام الحسن، وتوالت الأحداث والنكبات بعد هذه المصيبة الكبرى التي يتحمل مسؤوليتها عبيد الله أمام الله عز وجل وحكم التاريخ»[١].

في الفجر، اصطف الجند في مكان الصلاة منتظرين عبيد الله أن يؤمّهم ولكن طال انتظارهم حتى كادت الشمس تشرق ولم يحضر الصلاة، فاضطروا للذهاب إلى خيمته عندها علموا أنه قد التحق بمعاوية. فما كان من قيس بن سعد القائد الثاني للجند إلّا أن أمّ

(١) آل ياسين، صلح الإمام الحسن من أروع المرونة في التاريخ، ترجمة السيد علي الخامنئي دام ظله.

المصلين، وبعد الصلاة خطب في الجند خطبة أوردها هنا لأنهي هذه القصة المريرة:

«يا معشر القوم، لا يضرّكم الفعل القبيح الذي قام به هذا الجبان، فهو وأبوه وأخوه، لم يعملوا عملًا صالحًا في سبيل الإسلام ولو ليوم واحد، فأبوه هو نفسه الذي حضر بدرًا لمحاربة الرسول، وقد أسره أبو اليسر كعب بن عمرو الأنصاري، وجاء به للنبي وقد أُطلق سراحه مقابل فدية ودُفعت عنه، وقُسم مبلغ الفدية في المسلمين. أمّا اخوه هو نفسه الذي عيّنه أمير المؤمنين عاملاً على البصرة، فقام بسرقة مال الله والمسلمين ليشتري به الجواري لنفسه، وحسب أن ذلك حلالًا ومباحاً له، وهذا (أي عبيد الله) نفسه عيّنه أمير المؤمنين عاملًا على اليمن، حيث بمجرد هجوم بُسر بن أرطاة على اليمن بأمر من معاوية فرّ من أمامه وترك طفيله ليذبحا. أمّا اليوم فقد فعل الذي علمتم».

المغيرة بن شعبة

المغيرة بن شعبة ينتمي إلى قبيلة (بني ثقيف) في الطائف بالحجاز، يعتبر أحد صانعي الأحداث في النصف الأول من القرن الأول الهجري، وودّع الدنيا آخر القرن المذكور، إلى دار الجزاء. يعتبر المغيرة من دُهاة العرب، حضر عند الرسول في المدينة وأعلن إسلامه، لكن المؤرخين يعتبرون إسلامه سطحيًا. حياته مليئة بالغرائب والقبائح، وعلى رأي طه حسين كانت حياته مشكلة من المشاكل. في أيّام شبابه كان مع مجموعة من أهل الطائف عددها ١٢ أو ١٣ نفر فسقاهم خمرًا حتى أسكرهم ثم قتلهم جميعًا، ولما لم يتمكن من العودة إلى مسقط رأسه الطائف، شدّ رحاله مع الدواب والبضائع التي كان أولئك المغدورين قد جاؤوا بها من مصر ورحل إلى المدينة وحضر النبي وأعلن إسلامه. فعرض أمواله كلّها على رسول الله لكن النبي رفضها بسبب حصوله عليها عن طريق الخيانة.

شارك المغيرة في حروب الردة ضد المرتدين، وذلك بعد وفاة الرسول وقد كان حاضرًا في جهاد الشام، وقد فقد إحدى عينيه في حرب اليرموك، كان واليًا على البصرة أثناء خلافة عمر، لكنه انغمس في الفسق والفجور فشكاه الناس إلى الخليفة، وشهدوا على ارتكابه الزنا، فطلب الخليفة شاهدًا وأربعة أشخاص من جملتهم (زياد ابن أبيه) حيث تحركوا من البصرة لأداء الشهادة. أثناء أداء الشهادة، أكد ثلاثة من الشهود على رؤيته حين ارتكابه الزنا، لكن زياد ابن أبيه أدلى بشهادته بشكل جعلت الخليفة لم يقتنع، فأقام الحدّ على الشهود يتهمة شهادة الزور في حين نجا المغيرة بنفسه.

إن قصة تغيير أداء الشهادة من قبل زياد مع الأحداث التي وقعت

بين هذين الإثنين بعد ذلك، تشير إلى وجود صفقات سياسية بينهما كما أوضح أخو زياد الذي كان من جملة الشهود، بعد ذلك في خطابه الى زياد «والله إن ما رأيناه قد رأيته أنت أيضًا». على ايه حال، فقد ردّ المغيرة الجميل إلى زياد في إلحاق نسب هذا الأخير بأبي سفيان. وبعد افتضاح أمر المغيرة في البصرة عيّنه الخليفة واليًا على الكوفة، مفسرًا ذلك بأن أهل الكوفة لا يستقيمون مع الولاة الصالحين، كعمار بن ياسر، بل أن فاجرًا مثل المغيرة قد يقوّمهم. وبقي المغيرة واليًا على الكوفة حتى تولى عثمان الخليفة فعزله عنها.

لم يبايع المغيرة أمير المؤمنين عليه السلام يوم تولّيه الخلافة، وقد اعتزل في داره في معركتي الجمل وصفين، وكان حاضرًا في قضية التحكيم ولا شك أنه أبدى خبثًا فيها، وانتظر ليرى إلام تؤول الأمور.

بعد استشهاد الإمام علي أسرع إلى معاوية وحارب إلى جانبه ضد الإمام الحسن بدهاء وخبث. يُذكر أن معاوية كان ينوي تعيين عبد الله ابن عمر بن العاص واليًا على الكوفة، لكنه تراجع عن ذلك وعينّ المغيرة بدلًا منه عندما قال له هذا الأخير بأنه لو عيّن عبد الله عاملًا على الكوفة وأبوه عاملًا على مصر فسيكون الخليفة بين فكّي الأسد.

[أنكح المغيرة نساءًا كثيرات، وعلى قول المعتدلين، قد يصل عددهم على أقل تقدير إلى ٣٠٠ إمرأة وعلى الأكثر ١٠٠٠، وحسب ما روي فأنه كان يعقد على أربعة نساء وفي نفس الوقت يطلق أربعًا، وكانت وسيلته في إرضائهن لقبول الطلاق هي المال][١].

نورد هنا إثنتين من جملة الحوادث التي صنعها المغيرة، لنشرحهما

(١) طه حسين، علي وأبناؤه، ترجمة أحمد آرام، ص ١٩٣.

باختصار، ونذكر حدثًا ثالثًا أيضًا ساهم في صنعه وهي قضية إلحاق نسب زياد بأبي سفيان والتي سنأتي على ذكرها في هذا الكتاب.

الحدث الأول بعد استشهاد الإمام علي ألحق زياد بمعاوية، حيث ندع القراء يحكمون في ذلك، ومن ثم سعيه في مسألة ولاية العهد ليزيد بن معاوية.

كان زياد مشاوراً لعبد الله ابن عباس عامل الإمام علي على البصرة، وقد أدّى عمله بإتقان في الولايات الجنوبية لإيران، وبعد قضية إنفصال عبد الله ابن عباس المريرة عن الإمام عليه السلام، استخلفه في ولاية البصرة، وبعث إليه معاوية برسائل عديدة، وبالتهديد والترغيب دعاه إلى الشام، فكان زياد وحسب إرشادات الإمام علي يرد على معاوية بعنف. كان معاوية يخاف زيادًا لعدة أسباب، أولّها أنه كان زياد يعتبر من دهاة العرب، وبإنضمامه الى معاوية سيُكمل المثلث المقيت (عمرو ابن العاص، المغيرة، زياد)، وثانيًا، أنه كان واليًا على الولايات الجنوبية للدولة الإسلامية لذا فإنه كان يتمتع بنفوذ كبير لدى الموالي، وبالتالي يمكن أن يشكّل خطرًا جديًا. وثالثًا، أن زياد كان يؤدي عمله بأحسن وجه بفضل دهائه وكياسته، وأن وجوده في الولايات الواسعة من جنوب إيران كان يمكن أن تشكل دعمًا قويًا لجبهة أهل البيت في الكوفة من حيث العدّة والرجال. بعد استشهاد الإمام علي سعى معاوية كثيرًا لاستمالة زياد ومعاونيه وجلبهم إلى الشام، لكن هذا الأخير واصل امتناعه ولم يكن يرى مجالًا للمقارنة بين ابن هند وابن الزهراء عليها السلام، الذي استخلفه والده في الكوفة حديثًا، وفيما يلي الرسالة الجوابية التي بعث بها زياد أيّام خلافة الإمام الحسن على إحدى رسائل معاوية الخدّاعة:

«ابن آكلة الأكباد، رمز النفاق وبقية الأحزاب قد بعثت إليّ برسالة تتوعدني فيها، في حين أن بيني وبين أبناء رسول الله (إشارة منه إلى الحسن والحسين وجيش من ٩٠ ألف وفي رواية أخرى ٧٠ ألف) من الرجال رهن الإشارة وحاملين أرواحهم على اكفهم حتى الشهادة. والله، لو جاءني معاوية فسيراني أصلد وأصعب مراسًا»[١].

يستند زياد في رسالته هذه على ثلاثة محاور: المحور الأول عدم أهلية معاوية باعتباره رأس النفاق والفرع المتبقي من مشركي الأحزاب وابن هند آكلة الأكباد، وأبوه (أبو سفيان) كان زعيمًا للمشركين. والثاني يشير إلى قداسة وصلاحية الإمام الحسن كخليفة للمسلمين وعدم إمكانية مقارنة هذين الإثنين. والثالث يشير إلى قوة الإسلام العسكرية بقيادة الإمام الحسن.

كان رأي زياد في القسم الأول والثاني من رسالته رأيًا سديدًا، أمّا القسم الثالث، صلابة الموقف العسكري للإمام الحسن وإستحالة هزيمته والتي كانت من إحدى العوامل في عدم التحاقه بمعاوية فمستبعدة بسبب الحس السياسي الذي يمتلكه زياد واطلاعه على أوضاع العراق المضطربة آنذاك، وقد عزف زياد على هذا الوتر حتى تمّ الصلح بين الإمام الحسن ومعاوية، وهرب هو إلى إيران واختار إحدى القلاع المستحكمة في (ماواي) وذلك خوفًا من ردة فعل معاوية بسبب رسائله اللاذعة إليه. ولكن معاوية بخداعه وحيله لم يأبه لرسائل زياد ابن أبيه إليه، واستمّر في استمالته ودعوته إليه فجرّب كل السُبل كالماكر الذي يسعى إلى النيل من فريسته، كان يعلم جيّدًا أن

(١) اليعقوبي، الجزء الثاني، الصفحة ١٩٤.

امتناع زياد، وبعد الصلح مع الإمام الحسن لن يدوم طويلًا وسينتهي بخدعة ما، واختار لهذه المهمة الأعور الماكر، الذي كانت حياته مبنية على الحيلة والخدعة منذ البداية، أي (المغيرة بن شعبة الثقفي). توجه المغيرة إلى بلاد فارس، حيث تحصّن زياد في قلعته وهو يوعد معاوية بإلحاق زياد إليه حاملًا معه رسالة من معاوية مليئة بالترغيب والترهيب، فكان كالشيطان يأتي زياد عن يمينه وعن شماله ومن أمامه ومن خلفه، فحاصره بوعوده الساحرة الخدّاعة حتى وقع زياد في الفخ، فاصطحبه المغيرة إلى دمشق في الشام، حيث وضع يده بيد معاوية العدو القديم للإسلام.

إن سمسرة المغيرة في إلحاق زياد بمعاوية هي في الواقع ردّ لجميل زياد في شهادته أثناء عمل الزنا الذي قام به المغيرة وإنقاذه من الرجم، وقد كان الإمام علي قبل هذا يحذّر زياد من الالتحاق بمعاوية، وفي رسالة بعثها إليه يصف فيها معاوية على النحو التالي: «وقد عرفتُ أن معاوية كتب إليك يستنزل لبّك ويستفلُّ غربك، فاحذره فإنما هو الشيطان، يأتي المرء من بين يديه ومن خلفه وعن يمينه وعن شماله، ليقتحك غفلته ويستلب غرّته»[١].

لكن زياد لم يكن ذو إيمان راسخ ليصون نفسه من إغراء المغيرة ومعاوية، ويضع نصائح إمام المتقين دائمًا نصب عينيه، لقد راح والتحق بقافلة آل قابيل، وكان المغيرة سمساراً لهذا العقد الغير مبارك. لقد قام المغيرة بالجمع بين زياد ومعاوية، لإرضاء الأخير ومن ثم إبقاءه على ولاية الكوفة، هكذا هو الولع بالسلطة والرئاسة، فقد

(١) نهج البلاغة، الرسالة ٤٤. (حسب ترتيب صبحي صالح).

أدى به الى ارتكاب جرم عظيم، في حين اقترح ولاية العهد ليزيد في وقت كانت قد تزلزلت من جديد أركان حكومته في الكوفة، وهو الجزء الثاني الذي نستعرض وإياكم.

ينقل المؤرخون، أنه بسبب طول مدّة ولاية المغيرة على الكوفة، رأى معاوية أن يعزله ويعيّن سعيد ابن العاص الأُموي مكانه، ولمّا تناهى الخبر إلى المغيرة، إرتأى أن يتظاهر بالتعب في الحُكم وأنه ينوي التنحّي عن السلطة ويريد الذهاب إلى الشام، ليعتقد الناس بأنه قرّر التخلي عن الولاية. ولكن في هذه الأثناء خطرت له حيلة وهو في طريقه إلى الشام، فلما وصل أبواب دمشق، أطلع أصحابه على هذا الامر. كان يعلم علم اليقين ضعف إيمان معاوية، ومقابل الحفاظ على دنياه سيقبل بدفع متاع قليل وهذا المتاع هو إبقاء المغيرة على ولاية الكوفة. لذا، قام المغيرة بتقليب جوانب الأمر، وهو في طريقه من الكوفة إلى دمشق فقال لأصحابه: «إذا لم أستطع الآن أن أحصل على الإمارة لكم فما أستطيع ذلك أبدًا». يوضّح هذا الكلام هدف المغيرة الحقيقي من وراء طرح اقتراحه ذلك، لذا فسيرى القارئ آنفًا بوضوح، أن الإصطلاحات والكلمات التي سترد على لسان المغيرة والمغلّفة بغلاف إصلاحي، هي من أجل تحقيق هذا الهدف أي الإبقاء على ولاية الكوفة في قضيته.

توجه المغيرة بمجرّد وصوله إلى الشام إلى لقاء يزيد مباشرة قبل أن يتوجه إلى معاوية، وذلك لأنه كان يُحتمل أن يواجهه بقرار متخذ مسبقًا من قبل معاوية، وهو أمر عزله عن الولاية لو اختار الذهاب إلى هذا الأخير بدايةً، لذا فقد آثر أن يذهب عند شاب جشع متعطّش للمقام والخلافة، يستطيع باقتراحه هذا أن يسيطر على عقله، فدخل على يزيد

وقال: «حقًا لقد ذهب خيرة أصحاب الرسول وأشراف القوم وعليتهم، وبقي أولادهم حيث أنك أفضلهم منزلة وأرشدهم رأيًا، وأعلمهم بالسُنة والسياسة، فلا أدري لم لا يأخذ أمير المؤمنين لك البيعة»، فقال يزيد: «برأيك هذا ممكن؟»، فأجابهالمغيرة : «بلى». فذهب يزيد إلى أبيه وقص ّعليه ما دار بينه وبين المغيرة، فأرسل معاوية في طلب المغيرة وقال له: «إيه يامغيرة ماذا يقول يزيد؟»، فقال: «يا أمير المؤمنين، لقد رأيت كم من دماء سالت بعد مقتل عثمان، وكم من اختلافات برزت، فيزيد هو أنسب وريث. لذا فأسرع في أخذ البيعة له لأنه إذا أصابك مكروه عندها سيكون ملاذًا للناس وخليفتك عليهم فلا دم أريق ولا فتنة حدثت»، فقال معاوية: «ومن الذي سيعينني على هذا الأمر؟»، فأجاب المغيرة: «أنا أكفيك الكوفة، ويكفيك زياد البصرة، فلن تجد إذا من يعارضك من هذين النصرين»، فقال معاوية: «إرجع الى مقر عملك وشاور من تأتمن في هذا الأمر، خطط للأمر وسنخطط نحن». لذا رجع المغيرة وباشر في تهيأة يزيد شارب الخمر الفاسق لفرضه كولي للعهد على الأمة الإسلامية، وأكثر من هذا فقد وضع الأساس للحكم الوراثي الذي لم يكن معهودًا حتى ذلك العصر، وهو نفسه كان يعلم بفداحة الخطأ الذي ارتكبه في مقابل الحفاظ على منصبه الدنيوي، ولهذا يقول لأصحابه بعد أن التقى بالخليفة بسبب النجاح في خدعته: «أدخلت معاوية في أمر سيكون لأمة محمد سُنّة دائمة، وعقدت لهم عقدة لن تحل في المستقبل القريب».

إذا أمعنا التفكير في الجملة التي قالها المغيرة بعد تثبيت يزيد لولاية العهد، يتأكد لنا أنه كان يدرك عمق الهوة التي أحدثها في المجتمع الإسلامي مع إيمانه بالدين الإسلامي، ولكن لماذا أقدم على ترشيح يزيد وابتداع الحكم الوراثي في الإسلام مع علمه بعاقبة

هذا العمل والإيمان برسالة النبي؟ وهذا الموضوع تناولنا شرحه في الفصول السابقة، والذي إذا تم توضيح أبعاده فسيكون درسًا لكل المناضلين والمجاهدين والخواص.

إن الخلفية التاريخية لهذه القضايا تثبت أن أشخاصًا كالمغيرة كانوا يؤمنون بالدين والمعاد، لكنهم لم يستطيعوا نصرة معسكر الدين عندما كانت مصالحهم المادية ومنزلتهم الإجتماعية تتعرض للخطر في اللحظات الحساسة.

للإمام عليّ عليه السلام كلام صريح في مسألة تفرق الناس وبصورة خاصة النخبة منهم، حيث أنهم بالرغم من إيمانهم بالمعاد والآخرة، فهم لم يصمدوا أمام زخارف الدنيا. ولإثبات أن المغيرة قد أقدم على إرتكاب الاخطاء وتقديم الخدمات لمعاوية، مع إيمانه بالله تعالى، لا بأس في أن نورد القصة التالية:

ذكر المسعودي في كتابه مروج الذهب: [سمعت المدائن يقول: «إن مطرف ابن المغير بن شعبة قال: «ذهبنا أنا وأبي إلى معاوية فتحدث أبي ثم رجع إليّ، وأخذ يتكلم عن معاوية وعقله الراجح وإعجابه بأعماله، رأيته ذات ليلة مهمومًا ولم يتعشى، فتريثت ساعة لأرى أن كان ما يهمه هو من طرفنا، فقلت له: «مالي أراك الليلة مهموما؟ فقال: «ياولدي، لقد جئت الليلة، من عند أشرّ الناس»، قلت: «ما الخبر؟»، فقال: «خلوت بمعاوية وقلت له: يا أمير المؤمنين الآن وقد صفا لك الدهر، فما أحسن أن تفرش بساط العدل والإحسان وقد تقدمت في السن، وإن تحسن إلى أبناء عمومتك من بني هاشم، فلم يعد يهددك من جانبهم أي خطر. فقال لي: لن يكون ذلك، أن أخا تيم حكم وعدل، وفعل ما فعل، وما أن مات ماتت سيرته، ونادرًا ما

يذكره أحد وبعده أخا عديّ حكم عشر سنوات وجدّ واجتهد، فما أن مات، مات ذكره معه وقلّ ما يذكره أحد، وجاء بعده أخي عثمان وحكم فلم يكن أحد مثله في القرارة، فما استطاع عليه فعل فمات وماتت معه سيرته، وانمحى ما فعلوه معه أيضًا، أما أخا هاشم هذا فيذكروه خمس مرات كل يوم بقولهم: «أشهد أن محمدًا رسول الله» فأي عمل سيخلّد ذكره؟ ثكلتك أمك، فأنا والله عندما نواري التراب فقد انتهى كل شيء][1].

نعم، إن المغيرة مع علمه بكفر معاوية وارتداده، واغتصابه حق آل البيت عليهم السلام الطبيعي، فقد ظلّ في خدمة معاوية، لا بل رشّح شابًا فاسقًا وفاجرًا كخليفة للمسلمين، وابتدع بدعة في دين محمد ظلت قائمة لزمن طويل، وحسب قوله، عقد عقدة في الدين الإسلامي لن تحل في المستقبل القريب.

ننهي هذا الفصل ببيت من الشعر قاله الشاعر حسان بن ثابت أحد صحابة رسول الله في المغيرة بن شعبة، ومعناه كالآتي: «لو تجسم الشر والخسة فسيكونان عبد ثقيف الأعور الدميم (المغيرة بن شعبة)».

عمر ابن سعد بن أبي وقاص

لأجل وصف اللحظات التاريخية التي تتدخل في قرار الخواص لتغير مسار التاريخ، نتصفح هنا بعض صفحات تحوي أصعب اللحظات لقائد أبشع حرب في التاريخ.

---

(١) المسعودي، مروج الذهب، الجزء الثاني، الصفحة ٤٥٣ و٤٥٤.

عندما همّ عمر ابن سعد ابن أبي وقاص بأواخر عام ٦٠ للهجرة في الرحيل إلى مقر حكومته في الري، فوجئ بقرار جديد قلب كل حساباته وأحلامه العريضة، وعرّضه لأقوى الضغوط، وقذف به في خضّم اضطراب عاصف. إذا صحت الروايات بأن عمره أثناء واقعة كربلاء كان عمره ٥٥ سنة فيكون قد ولد في سنة ٥ للهجرة في المدينة، ولا شك، أنه يحمل في خاطره ذكريات عن النبي، وذلك بواسطة المنزلة التي كان يحظى بها أبوه لدى الرسول، حيث انطبعت في مخيلته الطفولية الوقادة الوجه النوراني لذلك الإنسان الرباني، كان أبوه من شيوخ الصحابة، وقد قاض بعض معارك المسلمين الفاتحين مع الجيوش الساسانية. لهذا السبب، نقش اسمه بشكل بارز على صدر التاريخ. كما أنه عيّن من قبل الخليفة الثاني أحد الرجال الستة في الشورى، ومن هنا قد تجاوز حدوده، كما انه لزم بيته وأصبح من (القاعدين) أيام خلافة أمير المؤمنين عليه السلام.

الإنسان، مخلوق معقد، ويملك قوى محيرة، حتى أن بعض رغباته وانفعالاته تبقى مخفية عليه. فهل أن سعد بتعيينه أحد رجال الشورى الستة، وأنه أصبح مع الإمام علي عليه السلام في خندق واحد للوصل إلى الخلافة قد أصيب بانفصام بالشخصية، وعلى أساس هذا تغيرّت نظرته للأحداث من حوله بشكل كلي؟

تؤكد وقائع التاريخ أنه ليس هو فقط قد تعرض لهذا التغيير بل أن طلحة والزبير وعبد الرحمن وأبناءهم أيضًا قد أصابهم ذلك التغيير الجذري في مسألة تعيين شورى الستة لتعيين الخليفة، فبدأوا بالمطالبة بحقوق ومزايا إستثنائية لهم جعلتهم يخرجون عن طريق الإخلاص وأفرغتهم من صفاء الإيمان للصحابة والتابعين. لا نبالغ إذا

قلنا إن تاريخ صدر الإسلام قد تأثر بشكل كبير بسبب الأحلام الخيالية لبعض الطامعين في شورى الستة، وعمر ابن سعد الذي نتحدث عنه، أحد هؤلاء الإستغلاليين. كان أحد الشخصيات البارزة في الإسلام، وهو قائد الجيش المنتصر على الإيرانيين، ومن شيوخ الصحابة المرشح للخلافة الإسلامية بعد موت أبيه، حيث قرّب نفسه من حكم معاوية وقد حظي بامتيازات ومناصب إستثنائية.

عيّن عاملًا على رافس (أي الري)، وذلك أواخر العام ٦٠ للهجرة. قال بعضهم أنه عُيّن بهذا المنصب من قبل يزيد بشكل مباشر، وقال البعض الآخر بل أن عبيد الله ابن زياد قد فعل ذلك. المؤيدون للرأي الأول يقولون إن ابن سعد دخل الكوفة لتفقد أملاكه ليرحل منها إلى إيران. في هذه الأيام كان تحرك الإمام الحسين عليه السلام من العراق قد ظهر على مسرح الأحداث، فأصر عبيد الله حاكم الكوفة الجديد على عمر أن يتولى قيادة جند العراق في محاربة الإمام وأجبره على القبول بذلك. يبدو أن القول بأن عمر عيّن عاملًا على الري من قبل عبيد الله ابن زياد قبل حركته إلى إيران، لأنه (عبيد الله) قد أوكل إليه مهمة جديدة وقد اشترط قبول سعد بهذه المهمة الجديدة مقابل منحه ملك الري، نقول إن هذا الرأي هو أقرب للواقع. المهم هو تعيين عمر على ملك الري وبعدها أوكلت إليه مهمة ستجعله يكون قبوله بها هو شرط نفاذ الحكم الأول.

فدعاه عبيد الله إلى قصر الإمارة، وأخبره بموضوع مجيء الإمام الحسين إلى العراق وقال: «لا أرى احدًا غيرك يستطيع مواجهته، تخلص منه أولًا ثم احزم أمرك إلى الري». لم يكن حديث عبيد الله بعيدًا عن الواقع، فقط شخص كعمر باعتباره ابن أحد الصحابة

الكبار والمعروفين بحكمته من الناحية النفسية أن يقف بوجه أحب الشخصيات في العالم الإسلامي، أي أبو عبد الله الحسين عليه السلام. حيث لم يجرأ على هذا الأمر أغلب القادة في الكوفة وذلك لتمكّن هيبة وعظمة وعصمة الإمام في قلوبهم، حيث كان هذا الإحتمال واردًا وهو التحاق هؤلاء القادة بجيش الإمام عليه السلام.

لقد ارتجف عمر ابن سعد من هذا العرض، فالبرغم من توجهه إلى البلاط الأموي للحصول على متاع الدنيا الذي أعمى أبصار الكثير من صفوت الأمة الإسلامية، لكنه كان قارئًا وحافظًا للقرآن وكان يرجوا رضوان الله. من ناحية أخرى، كان كسائر أبناء الصحابة، يعلم جيدًا الفرق الشاسع بين الإمام الحسين ابن فاطمة الزهراء وعليّ عليهما السلام، وبين يزيد ابن معاوية بن أبي سفيان، وهو أمر لم يكن هناك أحد ليتجاهله. وبالرغم من أن زخارف الدنيا، قد ألجمت ألسنة الصفوة لكن الإشتراك في قتال الإمام الحسين أمر كان يخشاه كثيرا أبناء صحابة رسول الله.

عمر بن سعد كان رفيق طفولة الإمام الحسين وقد رأى كيف كان رسول الله يضمه إلى صدره ويكّن له محبة ومودة، من هنا كان يرى في قتال الإمام الحسين عاراً له ولأسرته، فلما رأى عبيد الله تردد سعد قال: «حكومة الري معقودة بتنفيذ هذه المهمة، فكر بالأمر بسرعة وأعلمني بالنتيجة». لقد خلق الشرط الذي وضعه ابن زياد له إضطرابًا كبيرًا في قلبه وبدد كل أحلامه حول الحكومة الجديدة، لم يعد سعد يقوى على الكلام ولا حتى التفكير، فطلب منه مهلة ليفكر في الأمر وخرج من قصر الإمارة وهو مضطرب البال متغير الوجه مثقل بالهموم، وذهب إلى بيته.

إن الإمساك بملك الري الأسطوري والساحر، هذا الإقليم الواقع في حضن جبال البرز الجميلة، في الوقت الذي يحقق طموح التفوق لدى الإنسان ومن ثم التفريط به يعتبر من أصعب القرارات، حتى لأولئك الذين يمتلكون إيمان قوي وإرادة حديدية، لذا لم يكن في بال عمر ابن سعد ليترك هذه الفريسة بعد أن أمسك بها. للحظة قال لنفسه: «ليتني تحركت في اللحظة التي استلمت فيها أمر ولاية الري وأبعدت نفسي عن الكوفة، لكيلا يفكر عبيد الله في إسناد هذه المهمة الجديدة لي، ليت الحسين لم يأتي الى العراق، ليت عبيد الله قد وكّل أمر هذه المهمة لغيري، ليت وليت». لكن كل تلك الأمنيات كانت أحلام ليس أكثر، وقد ضرب عليها ختم البطلان، فقد كان في الكوفة عندما اشترط عليه عبيد الله القبول بقتال الحسين مقابل الإلتحاق بحكومة الري، وفي تلك الأيام، كان الحسين في طريقه الى أبواب الكوفة، وعلى عمر ابن سعد أن يتخذ قراره النهائي. قرار ذو حديّن، حدُّه الأول الإقلاع عن شيء صرف عمره كله في بلاط الأمويين من اجل تحقيقه وها هو أمر تنفيذه بيده، وحدُّه الآخر، محاربة الإسلام الأصيل وحقيقة الدين.

لقد طلب ليلة واحدة لاتخاذ قراره النهائي، وكانت اللحظات تتسارع. لم يواجه في عمره ورطة كهذه، كان أحياناً يرى نفسه في قصر الري والرجال والقوّاد يحيطون به كدرّة في عقد أجمل ملك الدنيا. واحيانًا أخرى كان يذهب خياله به إلى صحراء الطف مصطفًا مع الشمر ابن أبي الجوشن، الخوليّ، سنان ابن أنس وغيرهم، في مواجهة أهل بيت الرسالة. يجد نفسه محتقرًا أزاء الدين، والرسول خجلًا، فيمسح هذه الصورة من خياله بسرعة ليتخلص من مرارتها. كان ضيق الصدر، وعقله لا يقوى على البحث عن الحل، كان منقطعًا عن العالم من حوله، ويغط في أفكاره المضطربة. في هذا الجو الملتهب، قفزت

خاطرة من جعبة ذكرياته رنة في أذنه كانت هذه الخاطرة جملة قد خاطبها إياه الإمام علي بن أبي طالب وهي: «هي لحظة يفرش جنود الرحمن فيها أمامه سفرة الإختبار المتلونة. فألهما فجورها وتقواها لعلّها تسعفه في اللحظة الأخيرة». ولكن بالرغم من ذلك، هل أن ترك حكومة الري بالأمر السهل؟ هل أن عمر بن سعد فقط الذي لم يستطع مقاومة إغراء متاع الدنيا؟ ثمّ هل أن الآية الشريفة ﴿أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ﴾[١] تشمل عمر ابن سعد لوحده؟ الذي يقف على مفترق طريقين، الأول قتال ابن رسول الله والثاني حكومة الري الساحرة، أم أننا جميعًا سنواجه امتحانًا صعبًا لصقل جوهرة إيماننا الحقيقي وعندها نساق للحساب.

الواقع، أن الإنسان في لحظات الاستقرار هو ليس نفسه في لحظات الامتحان والابتلاء، والحكم على كلتا الحالتين للإنسان ليس بالأمر الهيّن. فإذا سلّمنا أن أولئك الذين كانوا يدورون حول رسول الله لمدة ٢٣ سنة كالفراشة، وكانوا يستمدون من نبعه النوراني الفيّاض القوة المعنوية، هم بشر كسائر الناس وأن قوانين التاريخ تنطبق على تلك الحقبة من الزمن أيضًا، عندها سندرك رجوع هؤلاء العظام عن طريق الهداية نحو الضلال وفي هذه الحالة يكون الحكم أسهل، وذلك أن الإنسان مهما يكن عظيمًا ووجوده منصهرًا في قالب الإيمان والدين، فإن احتمال خطأه وانحرافه عن جادة الصواب واردة، وهذه حقيقة تكمن في جوهر كل إنسان. والأنبياء والأئمة والمعصومين فقط هم الذين تمكنوا من شياطين نفوسهم وتسلطوا عليها حتى انعدمت إمكانية انحرافهم. لعل أغلب القول في هذا المضمار، إحدى خطب

(١) سورة العنكبوت، الآية ٢.

امير المؤمنين عليه السلام في نهج البلاغة، والذي يتحدث فيها عن انحراف أصحاب رسول الله صلوات الله عليه الخلّص أيام خلافته فيقول:

«فما راعني إلا الناس كعرف الضبع إليّ، ينثالون عليّ من كل جانب، مجتمعين حولي كربيضة الغنم. فلمّا نهضت بالأمر نكثت طائفة ومرقت أخرى وقسط آخرون، كأنهم لم يسمعوا الله سبحانه يقول ﴿تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ بلى، والله لقد سمعوها ووعوها ولكنهم حليت الدنيا في اعينهم، وراقهم زبرجها»[1].

إذا كان صحابة الرسول لم يستطيعوا مع ما لهم من علم ودراية بالقيامة وبانحراف الطريق الذي سلكوه، أن يغمضوا أعينهم عن زخارف الدنيا، ورقوا بأنفسهم وبكامل إرادتهم في وادي الضلال، فما بالنا نحن الذين تفصلنا عن هؤلاء ١٤ قرنًا؟ كذلك سندرك جيداً تحيّر واضطراب عمر ابن سعد وهو يختار بين الدنيا والآخرة أن إغراء متاع الدنيا البرّاق قد قصم ظهر كثير من العظماء وابن سعد بن أبي وقاص أحدهم. حيث وقف وجهًا لوجه مع الإنسان الكامل في عصره والإمام المنتخب من قبل رسول الله. إن تصارع القوى المتضادة في داخل شخصية عمر ابن سعد أدى به في النهاية إلى ساحل الأمان حيث قرر الإمساك بملك الريّ، أي القبول بقتال الإمام الحسين عليه السلام، لكن على أمل المصالحة معه وليس التصميم على قتال ابن رسول الله. هذا ما كان يختلج في داخل عمر ابن سعد وبهذه النيّة ذهب إلى قصر ابن زياد وقبل مسؤولية قيادة الجيش الذي أوكلت إليه مهمة أخذ البيعة من أبي عبد الله الحسين ليزيد وإذا رفض ينهي أمره.

---

(١) نهج البلاغة، الخطبة الشقشقية، الصفحة ٤٩.

فتوجه إلى كربلاء، وقضى أيامًا في التباحث مع الإمام وكان ينوي في هذه المباحثات أن ينجح في مهمته أي الحصول على ملك الري ويُرضي ابن زياد من ناحية ومن ناحية أخرى لا يلّطخ يديه بدم ابن بنت رسول الله. لكنّه لم يجد في الإمام ليونة، كما تسبب أصحاب ابن زياد وخصوصًا شمر ابن ذي الجوشن في الحيلولة دون الإستجابة على الرسائل التي بعث بها ابن سعد إلى الكوفة طالبًا فيها الإذن بمصالحة الإمام الحسين عليه السلام. قد تكون هذه المرة الأولى التي وجد ابن سعد نفسه فيها مجبرًا على انتخاب أحد الطريقين، قتال الحسين أو حكومة الري، هي في عصر التاسع من المحرم، عندما جاء شمر حاملًا إليه برسالة سدّت طريق المصالحة بوجهه بشكل نهائي وخيّرته بين محاربة الحسين أو التنحي. هنا ضاعت كل الأحلام، وتبددّت كل الشكوك عندما حسم عمر ابن سعد صراع المقام ورئاسة الدنيا من جهة وطريق الحق والحقيقة من جهة أخرى عندما اختار الأول، على عكس اختيار الحر بن يزيد الرياحي، اختيارًا جعل منه أقبح وجه في تاريخ الإسلام إلى جانب شمر ابن ذي الجوشن.

كان عمر أول من وضع السهم في قوسه ورماه بإاتجاه جند اهل البيت عليهم السلام، وأشهد الجمع على فعلته تلك عند ابن زياد. بعد مصيبة كربلاء كان يرنّ في أذنه آخر ما قاله الحسين عليه السلام: «ويحك! أما تتقي الله الذي إليه معادك؟ اتقاتلني وأنا ابن من علمت؟ يا هذا ذر هؤلاء القوم وكن معي فإنه أقرب لك من الله، مالك ذبحك الله على فراشك سريعًا عاجلاً ولا غفر لك يوم حشرك ونشرك، فوالله إني لأرجو ألا تأكل من برّ العراق إلّا يسيرًا»[١].

(١) مقتل الخوارزمي، الجزء الأول، الصفحة ٢٤٥.

نقل الخطيب الخوارزمي أن الحسين ابن علي قد بعث برسالة إلى عمر ابن سعد بواسطة أحد أصحابه وهو (عمر بن قرظة الأنصاري) يطلب فيها لقاءه والتباحث معه، فوافق عمر ابن سعد على هذا الاقتراح فذهب الإمام الحسين في تلك الليلة يرافقه ٢٠ من أصحابه إلى الخيمة التي نصبت وسط الميدان الفاصل بين الفريقين، وأمر ألّا يدخل أحد إلى الخيمة سوى اخيه أبو الفضل وولده علي الأكبر، وعمر بن سعد كذلك تحرك مع جمع من أصحابه يقدّرون بـ ٢٠ نفرًا أيضًا إلى تلك الخيمة، وقد أمر أن يدخل معه ولده حفص وغلامه الخاص فقط. قال الإمام عليه السلام مخاطبا ابن سعد بقوله: «يابن سعد أتقاتلني وأنت تعرف من أنا ومن هو أبي؟ ألا تخاف من الله الذي إليه مرجعك؟ ألا تريد أن تكون معي، وتنفصل عن هؤلاء فهذا العمل أقرب إلى الله وامتثال لأمره؟»، فقال عمر ابن سعد في جوابه للإمام: «أخشى أن يهدموا بيتي في الكوفة»، فأجاب الإمام: «أنا أبني لك بيتًا من مالي الخاص»، فقال عمر: «أخشى أن يُصادروا بساتيني»، فردّ الإمام: «أنا أعطيك أحسن البساتين في الحجاز»، فقال: «زوجتي وولدي في الكوفة وأخشى أن يتعرّضوا للقتل». لما رأى الإمام تعللّه بالحجج الواهية، يئس من رجوعه عن طريق الضلال فقال جملته الأخيرة التالية مختتمًا الجلسة: «مالك ذبحك الله على فراشك لِمَ تصرّ كل هذا الإصرار على إطاعة الشيطان؟ لا غفر الله لك يوم القيامة والله إني لأرجو أن يصيبك من بر العراق إلّا يسيراً (أي قصّر الله في عمرك)». فأجاب عمر ابن سعد باستهزاء: «يكفيني شعير العراق، يا أبا عبد الله الشعير عوض عن البر».

وعند رجوعه من واقعة كربلاء على رأس جيشه إلى الكوفة، أنشد البيت التالي عند دخوله على ابن زياد:

إمـــلأ ركـــابـــي فـــضـــةً أو ذهـــبًـــا
فـــقـــد قـــتـــلـــت الـــســـيـــد الـــمـــهـــذّبـــا

ويقول في بيت آخر ما معناه:

لـــقـــد قـــتـــلـــت الـــــــذي أمّـــــه
خـــيـــر الأمـــهـــات وأبـــــوه خـــيـــر الآبـــاء

واضح من هذه الأبيات الآنفة أن عمر ابن سعد كان عارفاً بمقام ومنزلة أبي عبد الله الحسين وآل بيت الرسالة والإمامة عليهم السلام، لكن ما العمل إن حبّ المقام والذهب والفضة والحضور في قلب السلطة الأموية، أرجح كفّة من تحمّل الصعاب والمشاكل والدفاع عن الحق. لكن ما يجب أن نعتبر منه، أن مثل هذه الاختبارات الإلهية يمكن أن تتكرّر لكل إنسان ولكل مجتمع، ومن خصائص السنن والاختبارات الإلهية، ثباتها وعدم تغيّرها. يقول الله تبارك وتعالى: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِكُم ۖ مَّسَّتْهُمُ ٱلْبَأْسَآءُ وَٱلضَّرَّآءُ وَزُلْزِلُوا۟ حَتَّىٰ يَقُولَ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ مَتَىٰ نَصْرُ ٱللَّهِ ۗ أَلَآ إِنَّ نَصْرَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ﴾[1].

زياد بن أبيه

في هذه السطور من كتاب سيرة خواص اهل الحق وتصرّفهم في أحرج لحظات التاريخ الإسلامي نأتي على بيان طفرات من حياة (زياد بن أبيه).

---

(١) سورة البقرة، الآية ٢٤١.

يعتبر زياد إحدى شخصيات صدر الإسلام المحيّرة، والذي سجّل صفحات من تاريخ المسلمين في القرن الأول باسمه، كان كالمغيرة، يمتلك الذكاء والدهاء والمواهب العديدة، مما جعلته يرتقي من غلام بني ثقيف إلى حاكم العراق. اختلف المؤرخون في سنيّ طفولته، أمه سمية جارية الحرث بن كلدة وهي من أصل إيراني أو هندي، وأبوه كان عبدًا روميًا، وكان زياد حاصل إنسانين محتقرين حسب العرف الإجتماعي آنذاك وقد ختم على جبينه ختم العبودية، وجلب من وطنه (الهند أو إيران أو بلاد الروم) إلى الحجاز. ولد في بداية الهجرة وقد كانت طفولته غامضة، ولا نعرف عن مرحلة مراهقته إلّا أنه كان من ضمن خدم ابنة الحارث، والتي كانت زوجة عقبة بن غزوان في ذلك الوقت ورحل إلى العراق وشارك في الفتوحات الإسلامية لسائر موالي بني ثقيف واستقّر هناك.

ولا يعرف متى أُعتق من عبوديته، فقد ظلّ ذلك سرٌّ من أسرار حياته، ولكن نعلم أن المائة ألف درهم التي استلمها من الخليفة الثاني دفعها لعتق والده (عبيد). إن عبيد هذا مجهول لدرجة كان الناس يسّمونه باسم أمه (زياد بن سميّة) أو (زياد الأمير) أو (زياد بن أبيه).

على أيه حال، فقد ارتقى زياد السلم في العراق بفضل ذكائه ودهائه، ووصل إلى درجة كاتب لعمال البصرة. يحكى أنه في إحدى سني شبابه قدّم دفتر حساب البصرة بجرأة وكفاءة أذهلت الخليفة والحاضرين، بقي زياد بهذا المنصب حتى انطوت صفحة عمر وعثمان، ودخل الإمام علي البصرة إثر معركة الجمل. وبعدها أصبح زياد كاتب ابن عباس عامل الإمام على البصرة ونائبه على بعض بلاد إيران الجنوبية كمحافظات خورستان فارس وكرمان الحالية. وحسب رواية

المسعودي فإنه تسلم حكومة فارس من قبل الإمام، وفي هذه الأثناء كانت تتوالى الرسائل الماكرة من معاوية عليه وهو في البصرة لإغوائه وإخراج الولايات الواقعة تحت سيطرته من حكم الإمام، لكن امتناعه عن ذلك ليس فقط أيام خلافة الإمام علي بل كذلك في بعض شهور خلافة الإمام الحسن، مدعاة للتقدير. لقد أطلعنا قبل ذلك في قصة المغيرة على جوابه لمعاوية أيام خلافة الإمام المجتبى. لقد بُعثت الرسائل ٢٠و٢١ و٤٤ من نهج البلاغة أيام ولايته على البصرة من قبل أمير المؤمنين عليه السلام. ونستشف من الجمل التي وردت في الرسالة ٢٠، أن زياد كانت له مطامح لجمع المال والإسراف على حساب بيت المال حيث هُدد من قبل الإمام بشكل قاطع وصادق: «وأني أُقسم بالله قسمًا صادقاً، لئن بلغني أنك خُنت من فيء المسلمين شيئًا صغيرًا أو كبيرًا، لأشدن عليك شدة تدعُك قليل الوفر ثقيل الظهر ضئيل الأمر، والسلام».

لقد كان الإمام ينصح زياد برفق كما هو عهده مع جميع ولاته، كما هو واضح في الرسالة ٢١ من نهج البلاغة في الجملة التي يقول فيها: «فدع الإسراف مقتصدًا، واذكر في اليوم غدًا، وأمسك من المال بقدر ضرورتك، وقدّم الفضل ليوم حاجتك. أترجو أن يعطيك الله أجر المتواضعين وأنت عنده من المتكبرين؟ وتطمع وأنت متمرغ في النعيم، تمنعه الضعيف والأرملة، أن يوجب لك ثواب المتصدقين؟ وإنما المرء مجزي بما أسلف وقادم على ما قدّم والسلام».

ما مرّ من سيرة ابن زياد حتى الآن يبين خدماته للحكومة الإسلامية خلال ٣٠ سنة. باستشهاد أمير المؤمنين وصلح الإمام الحسن، فُتحت صفحة جديدة في حياة زياد السياسية والإجتماعية مغايرة تماماً

لماضيه. بدى الوجه الآخر لشخصية زياد منذ بداية حكم معاوية إلى أن توفي. يقول طه حسين حول الشخصية المزدوجة لزياد ابن أبيه: «لزياد شخصيتان، عاش بالشخصية الأولى في عصر الخلفاء الراشدين وعاش بالشخصية الثانية بعد مصالحته مع معاوية، وهذان الوجهان لشخصية زياد متناقضتين لأقصى درجة، في ذلك الوقت الذي كان تحت إمرة الخلفاء الراشدين كان يسير في الطريق المستقيم، وعندما غيّر وجهته وأصبح عاملًا لمعاوية أسفر عن وجه طاغية عنيد».

عندما تسلم معاوية الخلافة، هرب زياد إلى إيران إما خوفًا من مكر ودهاء معاوية أو أنه خاف ضياع دينه. واستقرّ في القلعة المعروفة باسمه. من هنا تعرّض هذا الشخص وهو من خواص الامة الإسلامية لامتحان صعب جعله بين كفتين، دينه وشرفه في كفّة، واللحاق بعدو الإسلام اللدود الإبن المنحرف لأبي سفيان في الكفّة الأخرى، أمضى زياد أيامًا مع صراع هاتين الفكرتين المتناقضين في حصاره بالقلعة في جنوب إيران فلحقه الصديق المشؤوم (المغيرة) الذي أنقذه زياد يومًا ما من مصير أسود، وذلك بتردده في الشهادة على زناه، فوقف على باب قلعته وصاح بأنه يحمل رسالة من معاوية وينوي شراء دين زياد ابن أبيه. كان زياد من عدّة جهات في صالح معاوية، اولاً مكانته في الولايات الجنوبية لإيران، حيث كان يستطيع أن يقوّي جبهة أهل البيت وثانيًا، المزايا الشخصية لزياد حيث كان يمكن أن يقوّي شوكة المكر في الشام.

لقد أوكلت إلى المغيرة بن شعبة مهمة الحاق حامية إلى بؤرة الخيانة، وكان يحمل في جعبته رسالة من معاوية مليئة بالمكر والتطميع. في الرسالة يخاطب معاوية زيادًا بابن أبي سفيان وأخيه وهي بدعة في التاريخ جديرة بأن تحكى سميت بعد ذلك بالاستلحاق.

قلنا سابقًا أن زياد ابن عبدٍ رومّي حيث سمّي (عبيد)، وهو قد أعتقه من ماله أيام حكم الخليفة الثاني، في حين تذرّع معاوية بحكاية مزيفة سمعها عن أبيه أبي سفيان يخجل منها كل حرّ، وجعلها دليلًا ليخدع بها زياد. والقصة هي الحادثة المشينة لزنا أبي سفيان بأم زياد في زمان الجاهلية، وأن زياد كان نتيجة هذا الزنا وقد استعمل معاوية هذه الحيلة قبل ذلك، وفضح زيفها الإمام علي في الرسالة ٤٤ من نهج البلاغة التي بعثها لزياد وحذّر هذا الأخير منها، ونورد هنا جزءاً منها: «وقد كان من أبي سفيان في زمن عمر ابن الخطاب فلتةٌ من حديث النفس ونزعة من نزعات الشيطان، لا يثبت بها نسب، ولا يستحق بها إرث، والمتعلّق بها كالواغل المدفع، والنوط المذبذب».

إن هذه الرسالة والاطمئنان الذي حصل عليه من دار الخلافة (الكوفة) منعتا زيادًا من الوقوع في فخ معاوية. لكنه الآن ليس تحت إمرة علي، وعليه أن يتخذ قرارًا حاسمًا، قرارًا يكون طرفيه المضاضين الدين والدنيا، وهكذا هو الحال عندما يتحير الخواص في اللحظات المصيرية في التاريخ بعد سنوات الجهاد والكفاح. لو قاوم زياد في ذلك اليوم طلب معاوية بالإنضمام إليه لتعرض لمحن كبيرة في حياته، وكان سيقتل سرًا أم جهرًا، لكنه من ناحية أخرى كان سيحتفظ بدينه إلى آخر عمره، ولم يكن ليعدل عن مبادئ الإسلام والدخول في عمل مشبوه وبدعة مبتدعة، والتعاون مع الشيطان. لكنه أن قبل ذلك الطلب فسينادى اخ الخليفة من تلك اللحظة، ويتغير نسبه من عبد ثقفي إلى إحدى أشهر القبائل العربية، وسيعفى عن اختلاسه من بيت المال، وسيمسك بيده بالإمارة والولاية في ظل الحكم الأموي، وسترتقي منزلته ومقام أسرته وعرقه في الدولة والمجتمع. لكن في قبوله سيرتكب ثلاثة أخطاء جسيمة، حيث كان على دراية تامة بها، أول هذه الأخطاء أنه

سيبتدع بدعة جديدة في الدين، لأن الولد للفراش وعلى الزاني الحد، وليس أن ينسب الولد الزاني في حين أن له أب ومعروف في المجتمع. الثاني، أنه قد نصح من قبل إمامه وأن مقالة أبي سفيان تلك في الاستلحاق هي مقالة الشيطان وهي كذب محض. والثالث، كان يعلم جيدًا أنه بالتحاقه بمعاوية سيدير ظهره لدينه الذي جاهد للحفاظ عليه طيلة أربعين عامًا، وسيدخل إلى وادي الشيطان. ومن ناحية أخرى، فقط كان المغيرة الماكر يمطره بوابل من الخدع والحيل: «دع عنك الاشياء الصغيرة، وامسك الأمر الرئيسي فلا أحد يرى الحسن ابن علي يدّعي الخلافة وهو بدوره قد تصالح مع معاوية، اغنم لنفسك قبل أن يستتب الأمر». فرد زياد على المغيرة قائلًا: «ما العمل برأيك؟». فقال المغيرة: «برأيي أن تلحق نسبك بمعاوية، وأن توحد أواصرك معه، وألا تصغي لكلام الناس؟». فقال زياد: «يا ابن شعبة، كيف أزرع غصنًا في أرض لا فيها ماءًا يحيها ولا جذر لها يرويها»[١].

يثبت هذا القول إن زياد لم يكن مقتنعًا بهذا النسب المزور وكان يعتبره عارًا. يتذكر زياد جيدًا أن الرسول ﷺ قد قال: «من نسب نفسه إلى غير أبيه عالمًا بذلك، حرمت عليه الجنة».

لكن على الرغم من كل هذه الأدلة، لم يكن ممكنًا لزياد الانصراف عن زخارف الدنيا، وهو الذي كان يوماً في ساحة الإمام علي وأحد ولاته، ينضم لصفوف الأعداء، وسلّم لبدعة ابن أبي سفيان المشينة في الاستلحاق ليكون رمزًا للعارف في التاريخ عبرة لكل الأحرار.

رواية الاستلحاق قد نقلت كما هي عن المصادر الأولى وقد

(١) مروج الذهب، الجزء ٢، الصفحة ١١.

أعلن الصحابة والتابعين كذلك في ذلك الوقت تعارضها مع الشرع الإسلامي، واعترض كذلك أخوه زياد وبنو قومه على هذا العمل الفاضح وأقسموا على أن سمية لم تر أبا سفيان في حياتها قط، ومن جملة المعترضين (يونس بن عبيد) الذي قاطع خطبة صلاة الجمعة لمعاوية وقام بالناس وقال لهم: «يا معاوية! اتق الله، لقد قال رسول الله أن الولد للفراش ويجب رجم الزاني، وإنك تعطي الولد للزاني وترجم الفراش، وزياد هو غلام عمتي وابن غلامها، فأرجع لنا غلامنا». عجز معاوية عن الرد عليه فسلك طريق التهديد فقال له: «ابن يونس! والله إن لم تسكت، جعلت منك عبرة لمن إعتبر».

أصبح عمل زياد ومعاوية في ذلك الزمان، حديث المجالس، والشعراء والمنشدين وأصحاب القلم. بعد أن ختم ابن زياد على جبينه أشنع حادثة في التاريخ وهي قبوله بأنه ابن زنا، عيّن واليًا على البصرة من قبل معاوية وضمّ إليه الكوفة وكان أول من جمع بيده حكم العراقين في أن واحد. في هذا الوقت، ارتكب زياد تحت حكم أفجر إنسان في عصره، أبشع الجرائم التي قلّ نظيرها في التاريخ، حيث كان في يوم مضى أميرًا على هذه الديار تحت حكم وصي رسول الله. قبل كل شيئ كان زياد يقسو على محبي الإمام عليه السلام، وكان يضرب أعناقهم بأدنى شبهة، كان يهجو قدوتهم وإمامهم وقائده الإمام عليّ في خطبه بشكل علني وذلك من أجل كسب رضى معاوية. فقد قال زياد في إحدى خطبه والتي لم يسمع مثلها قبل هذا في عهد الإسلام وهي: «من أغرق شخصًا أغرقته، من يفتح ثقبًا في بيت الآخرين ثقبت في قلبه، من ينبش قبرًا دفنته حيًا في ذلك القبر، من يشك فيما اجتمع عليه الناس ضربت عنقه». وعلى هذا المنوال، كان يقتل الناس بأدنى شك أو شبهة، فما بالك إذا وصل الأمر إلى الفعل؟

هذه نبذة مختصرة عن الحكم الإرهابي الذي أقامه زياد في العراق. وصل الخوف من زياد حدًّا كتب معه إلى معاوية ويقول له: «أحكم العراق بيد واحدة، ويدي الأخرى عاطلة»، فضم معاوية إلى حكمه المدينة، فهبّ أهل المدينة برجالهم ونسائهم إلى المسجد وبقوا فيه ثلاثة أيام شغلوا فيها بالإستغاثة والدعاء عسى أن يدفع الله شرّه.

ومن فجائعه في العراق قيامه بسجن وتزوير إمضاء (حجر بن عدي) وهو من كبار صحابة رسول الله، وإرساله إلى معاوية حتى تسبب في استشهاده مع جمع من خيرة صحابة رسول الله والمؤمنين. لقد أحدث استشهاد حجر بن عدي بدسيسة من زياد، عاصفة من الحزن والأسى في بلاد الإسلام وحرّكها من شرقها إلى غربها حيث سجّل ذلك في صفحات التاريخ، نورد هنا قصة ثبات حجر وأصحابه على مبدئهم لنبيّن جانب من جرائم زياد ابن عبيد من جهة، ومن جهة أخرى فإن ملحمة حجر بن عدي وأصحابه في (مرج عذراء) هي واحدة من أعظم الملاحم التي سطّرها الخواص من أهل الحق على صفحات التاريخ.

وهي حكاية مريرة شبّهها رسول الله وأمير المؤمنين بشهادة (أصحاب الأخدود) قبل وقوعها بسنين. أرسل معاوية إلى زياد يُبين له تردده في قتل حجر وأصحابه، فألح زياد عليه في قتلهم، واخيرًا جاء عملاء حكومة الشام إلى مرج عذراء لقتل حجر وأصحابه. أرسل معاوية (هدبة ابن فياض القضاعي) و (الحصين بن عبد الله الكلابي) و (أبو شريف البديّ) إلى مرج عذراء من أجل إنهاء قضية المسجونين وإعدام قادة الإنتفاضة. جاء شرط معاوية إلى المسجونين فأخرجوا ستة منهم كانوا قد استشفعوا ووجهوا الى ثمانية آخرين وقالوا لهم: «قد وكلنّا أن ننقل لكم ما أمرنا بنقله إليكم وهو أن تتبرأوا من عليّ وتسبّوه،

فإن فعلتم ذلك فسنطلق سراحكم». فقالوا: «لا نفعل ابدًا»، ففكّوا وثاقهم وأحضروا أكفانهم وحفروا قبورهم وكانوا قد قضوا الليل بطوله في الصلاة والدعاء فأقبلت ساعة استشهادهم. فرحل حجر وأصحابه إلى بارئهم وهم غرقى في نشوة الدعاء، فهم قد ذهبوا إلى الصّدق وتقلّدوا وسام الصدّيقين، لقد انشد الوجود كله ترنيمة الخلود والبقاء، لأنهم كانوا صادقين تمامًا، وهذا هو الصدق. نعم لقد ابتهلوا الى الله بالدعاء، ليس من أجل إنقاذهم من الموت بل ليتمتعوا بالشهادة أقصى استمتاع، وليعشقوها أكثر ليتمكنوا من نيل الثواب الإلهي، وأن يستشهدوا في سبيله كما يُريد لهم ذلك. لم يطلبوا من الله سوى الشهادة، لأن الشهادة في هذه المرحلة هي الكلمة الوحيدة والوسيلة الفضلى التي يعرفها الطاغوت، وأن الظالمين كانوا يرتجفون من هذا التصرّف. وكان دائمًا اسم الشهيد موضع اضطراب وعذاب لهم.

في ليلة تنفيذ حكم الإعدام جاء الجلادون إلى الثوار وقالوا لهم: «لقد رأيناكم أطلتم الصلاة أجدتم في الابتهال والدعاء، نسألكم مرة أخرى ما هو رأيكم بعثمان؟»، فقالوا جميعًا: «كان أول من عدل عن حكم الله وعمل بغير الحق «، فقال الجلاّدون: «لقد كان امير المؤمنين معاوية يعرفكم حق المعرفة إذ أمر بقتلكم». وطلبوا مرة أخرى من الثوار أن يتبرأوا من الإمام علي فقالوا: «لقد رضينا بولايته، ونكنّ له حبًّا عظيمًا».

طلب حجر من جلاديه أن يُمهلوه ليصلّي ركعتين، وقال لهم: «والله لم أتوضأ قط إلّا وكنت مصليًا» فقالوا له: «صلِّ» فأدى صلاته وقال: «والله ما صليت صلاة أقصر من هذه، كنت أتمنى أن أطيلها لولا لديّ ما ينتظرني»، ثم قال: «اللهم إنا نستعديك على أمتنا، فإن أهل الكوفة

قد شهدوا علينا وأهل الشام يقتلوننا، أما والله لئن قتلتموني فإني اوّل فارس من المسلمين سالك في واديها، وأوّل رجل من المسلمين نبحته كلابها». قيل أن هُمام ابن حجر قتلوه أيضًا، حيث أنهم أرادوا بهذا العمل أن يستغلوا عاطفة الأبوّة حتى يكف حجر عن الصمود ويندم على فعلته، فلما علم بما يبيّتون طلب منهم أن يقتلوا ابنه قبله، فتكرموا عليه واستجابوا لطلبه، فأرسل في طلب ابنه فحضر وقال لجلّاديه اقتلوه أولًا، فلما سُئل عن ذلك قال: «خشيت أن يرى السيف على رقبتي فيخرج عن ولاية علي عليه السلام فلا نستطيع أن نلتقي ببعضنا في المقام الذي أعدّه الله للصابرين». يقال إن حجر لحظة استشهاده كان يردد هذه الكلمات: «سلام عليك يا مولاي العظيم يا علي ابن أبي طالب، إنني اليوم بفضل موالاتي لك أنال درجة أصحاب الأخدود». «يا أهل العراق سيُقتل سبعة نفر بعذراء مثلهم كمثل اصحاب الأخدود»[١]. بعد ذلك أقبل هدبة بن فياض على حجر بسيفه وقال له: «لم اظن أبدًا أنك ستجزع من الموت أو تخاف من السيف»، فقال حجر: «إذا خفت وأنا في هذه الحال فهذا ليس بعيب لأن قبري قد حُفر، وإن كفني قد أُعد وسيف العدو قد استُل، ولكن والله لن تسمعوا جزعي اثناء الموت، ولن تروا مني عملًا يغضب الله، أما بعد الموت فلا تنزعوا عني حديدًا ولا تغسلوا عني دماً فإني لاق معاوية على الجادة». ثم تقدّم الجلاد نحوه وقال: «ادن رأسك لأضرب عنقك»، فأجابه حجر: «هذا دم يراق منّي بغير حق إذا قدّمت رأسي، أعنتك على ارتكاب عمل قبيح وغير صحيح، معاذ الله أن أعينك على عمل قبيح كهذا». ثم قدّموا رأسه وضربوا عنقه.

---

(١) نقل هذا الحديث في تاريخ ابن عساكر، نقلاً عن الإمام علي ورواه البهيقي كذلك.

لقد استشهد حجر مع خمسة من أصحابه، أما عبد الرحمن ابن حسان وكريم ابن عفيف الخثعمي طلبوا من جلاديهم أن يذهبوا بهم إلى معاوية، وهناك سيتبرءا من عليّ عليه السلام، فأرسلوا إلى دمشق بالخبر فأمر معاوية باحضارهم، ولما دخل الخثعمي على معاوية قال: يا معاوية، الله الله، أنك سترحل من هذه الدنيا الفانية إلى دار البقاء وستسأل عن قتلنا وتحاسب على دمائنا». فقال معاوية: «ماذا تقول في عليّ؟ فقال: «أفهل أقول ما تقول أنت، أفهل أتبرأ من عليّ الذي هو موضع رضى الله؟»، فلم يُسرّ معاوية لهذا الجواب. لكن الشمر بن عبد الله الخثعمي طلب له الشفاعة من معاوية، فقال معاوية: «سأعفو عنه، ولكن سيبقى شهرا في السجن، وبعد انقضاء المدّة أطلق سراحه بشرط ألا يدخل الكوفة أبدًا»، وقد اختار أن يقطن الموصل بعد ذلك.

بعد ذلك التفت معاوية الى عبد الرحمن ابن حسان وقال له: «وأنت ماذا تقول في عليّ»، فقال: «أشهد أن الإمام علي كان من أولئك الذين يذكرون الله دائمًا، وكان يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر، وكان يعفو عن الناس». فقال معاوية: «وماذا تقول في عثمان؟»، فقال: «كان أول من فتح أبواب الظلم بوجه الامة وأغلق أبواب الحق». فقال معاوية: «قتلت نفسك»، فقال: «لقد قتلتك حيث لا ربيعة في الصحراء».

هذه الجرأة لم تترك الفرصة لأحد لكي يشفع فيه، وكتب معاوية إلى زياد برسالة وأرسلها بيد عبد الرحمن وكتب في تلك الرسالة: «هذا الرجل الذي بعثت هو شر الناس، عاقبه بما يستحق واقتله شرّ قتلة، يا زياد ادفنه حيًا في قس الناطف»[١].

(١) صادق آيينه وند، ثورات الشيعة في تاريخ الإسلام، منشورات سباه، سنة ١٣٦١ه.

لقد أحدث استشهاد حجر وأصحابه شرخا في هيكل الإسلام، وقد غرق الناس في حزن عميق في ذلك اليوم، حتى معاوية نفسه لم ينسى ذلك اليوم حتى آخر عمره فقد قال عن هذه الحادثة وهو في فراش الموت: «يا حجر، ويل لي منك»، وكذلك كان يقول: «لي مع ابن عدي يوم طويل»، وهذه واحدة من فضائح زياد بن أبيه والذي كان في يوم من الأيام من خواص أهل الحق. فاعتبروا يا أولي الأبصار.

عبد الله ابن عباس

الحديث عن أخطاء العظام الذين قضوا عمرهم في العبادة والجهاد ونشر العلوم والمعرفة أمر جد صعب ومرير. ولكن لما كانت أخطاء العظام عظيمة مثلهم، وآثارها تنعكس على المجتمع، فذكر تلك الاخطاء لكي يعتبر الناس بها إلى جانب تلك المحاسن أمر واجب وضروري. يتطرق هذا الكتاب كذلك للأحداث المصيرية، والتاريخية للخواص من المجتمع من هنا في نفس الوقت الذي نثني فيه على النقاط الإيجابية في حياتهم، فإن تحليل عثراتهم هو أمر مهم ومفيد لاطلاع المعنيين بالموانع التي تقف في طريق الحق والسير على الصراط المستقيم. أحد هؤلاء الخلّص من أهل الحق الذي سجّل اسمه في صفحات التاريخ في لحظة حساسة وتاريخية، هو ابن عم الرسول الكريم وأمير المؤمنين ابن عم عالم مؤمن. رجل دعا له النبي ﷺ ليكون فطحلاً في تأويل القرآن. رجل وقف بوجه الخلفاء مرارًا من اجل إثبات حق ولاية علي وذلك بالبحث والمحاجة، رجل انبرى للدفاع عن أهل البيت ما عاش، وعبّأ أهل بيته في صفهم، رجل كان الذراع القوية لأمير المؤمنين أثناء خلافته وأمين أسراره، رجل حارب في

الجمل إلى جانب علي، وفي صفين حمل لواء الجهاد ضد الضالين من أهل الشام، رجل انبرى مرارًا لمحاجة الخوارج بلسان فصيح وبليغ بالنيابة عن أمير المؤمنين وهدى الكثير منهم إلى طريق الحق والهداية. رجلٌ مرّغ أنوف المنحرفين الخوارج في التراب في معركة النهروان إلى جانب ابن عمه، وتسلّم أمر ولاية أكبر الأمصار الجنوبية للبلاد الإسلامية (أي البصرة) من قبل أمير المؤمنين. هذا الرجل هو عبد الله ابن العباس بن عبد المطلب.

كان ابن عباس مفسراً وراوياً لمعظم أحاديث رسول الله وموضع ثقة الفريقين، عُيّن واليًا على البصرة بعد معركة الجمل ايام خلافة الإمام علي، وبسبب الظروف الخاصة للبصرة من حيث الأرض الواسعة والسكان اقتضت من الإمام أن يختار رجلًامن أهله مقتدرًا من جميع الجوانب ليكون حاكمًا على تلك الديار، خصوصًا بعد أن اشتبك فريقان من المسلمين في حرب ضروس بالقرب منها، ودبّ في قلوب أهلها الفرقة والبغضاء.

استطاع ابن عباس بكياسته وحنكته أن يهدئ الأمور، وبلسان عذب وحديث علمي جمع الناس حول الحقيقة وإن كان في بعض الأحيان يتعدى حدوده، ويرشده الإمام حينئذٍ إلى الطريق. عندما شددّ على بني تميم كتب إليه الإمام قائلًا: «أبا العباس رحمك الله فيما جرى على لسانك ويدك من خير وشر، فإنّا شريكان في ذلك وكن عند صالح الظن بك ولا يفيلنّ رأيي فيك والسلام»[١].

كان الإمام بالنسبة لعبد الله مشفقًا محسنًا، كان يسدي إليه

(١) نهج البلاغة، الرسالة ١٨، (صبحي الصالح).

النصح، وقد علمه بعضًا من كنوز علومه ونصائحه ومن جملتها ما يلي:

«أمّا بعد، فإن المرء قد يسره درك مالم يكن ليفوته، ويسوؤه فوت ما لم يكن ليدركه، فليكن سرورك بما نلت من آخرتك، وليكن أسفك على ما فاتك منها، وما نلت من دنياك فلا تكثر به فرحًا، وما فاتك منها فلا تأس عليه جزعًا، وليكن همّك فيما بعد الموت»[١].

«أمّا بعد، فإنك لست بسابق أجلك، ولا مرزوق ما ليس لك، واعلم بأن الدهر يومان، يوم لك ويوم عليك، وإن الدنيا دار دول»[٢].

«سع الناس بوجهك وبمجلسك وحكمك، وإيّاك والغضب فإنه طيرة من الشيطان، واعلم ما قربك من الله يباعدك من النار، وما باعدك من الله يقربك من النار»[٣].

في خطابه عليه السلام لعبد الله، كان يصغّر الدنيا في عينه ويعظم من شأن الآخرة كان يحثه على الرزق المقدّر وينهاه عن الحرص، حتى يسكن من ثورة عينه وقلبه اللاهث وراء الذهب والفضة والجواري والغلمان ويجرّه إلى جادة الإعتدال، وأخذ عبد الله ينحرف في سلوكه لانه رأى نجم حكومة ابن عمّه علي إلى أفول نتيجة تفرّق وتشتت أهل العراق، وأن مخالب وأنياب لصوص الشام تأذن ببشارة انتصار معاوية، وقد أدرك أن أصحاب الإمام قد تفرقوا وأن أهل الشام قد تسلطوا وسيغدوا الإمام بلا نصير ولا معين، وقد يكون عدم حضوره على رأس الجيش المتحرك من البصرة صوب الشام هو أيضًا علامة على تردده

(١) المصدر السابق، الرسالة ٢٢.

(٢) المصدر السابق، الرسالة ٧٢.

(٣) المصدر السابق، الرسالة ٧٦.

في البقاء في جبهة الحق، كما توقع طه حسين[١]. لا شكّ في أن عبد الله ابن العباس كان من الساسة المتفتحين والمحنكين في عصره، وأن أعماله كانت قائمة على التدبير والنظرة للمستقبل ومراعاة جوانب الأمور، من هنا فإن توقعات هذا الكاتب المصري (طه حسين) جديرة بالتأمل. وبغض النظر عن أسباب الأحداث التي سبقت موضوع بحثنا، نتطرق للأذى الذي تسبب به عبد الله ابن عباس للإمام عليّ وهو في أوّج الفتن والحروب الداخلية التي فرضت عليه، والهم الذي ملأ به قلب إمامه والجرح الذي أحدثه في جسم المجتمع الإسلامي.

إن خلفية هذا الحدث تبدأ من النقطة التي كتب فيها أبو الأسود الدؤلي وهو من أصحاب الإمام إليه يخبره بأن ابن عباس قد استأثر بأموال بيت مال المسلمين لنفسه وأطلق العنان لهواه غير مراع لسنة الإسلام، وجاء في الرسالة: «أن ابن عمّك قد أكل ما تحت يده بغير علمك فلم يسعني كتمانك ذلك». وعند قراءة الإمام لرسالة أبي الأسود أثنى عليه لإرساله هذا التقرير وكتب الى ابن عمّه بدون مجاملة او مماشاة يقول له: «أمّا بعد، فإنه قد بلغني عنك امرٌ إن كنت فعلته فقد أسخطت الله وأخربت أمانتك وعصيت إمامك وخنت المسلمين، فارفع إليّ حسابك، واعلم أن حساب الله أعظم من حساب الناس والسلام»[٢].

لم يُعر عبد الله ابن عباس رسالة الإمام ولا طلبه بإرسال قائمة بمصروفات بيت مال المسلين في البصرة أي أهمية، وقال بغرور

(١) طه حسين، علي وأبناؤه، ترجمة أحمد آرام، الصفحة ١١٩.

(٢) نهج السعادة، وزارة الإرشاد الإيرانية، الجزء ٥، الصفحة ٣٠٠.

وبدون مبالاة مجاملًا إياه: «أمّا بعد، فإن كل الذي بلغك عني باطل، وأنا لما تحت يدي ضابط وعليه حافظ فلا تصدق الضنين»[١].

كما يتضح من الرسالة أنها لا تبرأ المتهم ولا تسر الإمام، لأنه لم يعرض دليلًا مقنعًا لرد الاتهام، علاوة على ذلك فإنه كان على علم بسيرة علي في التشدد بما يخص بيت المال وبعدالته وليس له مفر ردّ الاتهام بشكل صحيح، ولكن مع ذلك لم يفعل، وكتب إليه الإمام في رسالة أخرى: «أما بعد، فإنه لا يسعني تركك حتى تعلمني ما أخذت من الجزية من أين أخذته، وما وضعت منها فيما وضعته، فاتقي الله فيما ائتمنتك عليه واسترعيتك إياه»[٢].

على إثر الرسالة تلك تيقن أن الإمام لن يغّض النظر عن حقوق المسلمين، ولا مفر من تقديم حسابه الدقيق وقد كانت نتيجة الحساب معلومة وعبد الله يعلم جيدًا أن إمامه لن يتردد لحظة واحدة في إرجاع اموال بيت المال ومعاقبته. فعلى العكس مما كان ينتظر من شخصية مرموقة مثله، ترك أمر الحكومة من غير أن يمتثل لأمر الإمام أو يذهب إلى الكوفة لمقابلة الإمام. وحتى انه لم يعمل كما هي العادة، بأن يقدم إستقالته للإمام، وقد ترك عمله ورحل عن المدينة (البصرة)، ولأنه كان يعلم بأن أهل البصرة لن يدعوه يخرج من المدينة بأموال بيت المال المسروقة، فأقدم على حيلة، وهي أنه طلب من أخواله من بني هلال أن يتولوا حمايته للخروج من المدينة بسلام. فالتجأوا للعصبية الجاهلية، وعدلوا عن طريق الإسلام الواضح، فحملوا أموال بيت المال

(١) المصدر السابق، نفس الجزء والصفحة.

(٢) المصدر السابق، الصفحة ٣٠٢.

وأفرغوها في أكياس ابن عباس، هذه الاموال التي يقدرها المؤرخون بستة ملايين درهم، وتولوا حمايته بسيوفهم المستلة حتى خرج من البصرة إلى مكة بسلام. فيا للعجب من هؤلاء الناس الذين رجحوا قرابتهم على اختلاس بيت المال من قبل الوالي، وأصغوا لصوت العصبية وتولوا حماية ابن أختهم المتمرد السارق، وأنقذوه من قبضة الناس. ذهب إلى أخواله في مكة ليكون في حمايتهم، واختياره لمكة محلًا لسكنه لم يكن اعتباطًا، فقد آوى إلى المدينة التي تعتبر حرمًا آمنًا ليتمكن في ظل حرمة مكة أن يتمتع بأموال اليتامى والأرامل ومجاهدي البصرة، وأن يتسلى بالجواري والغلمان. وكم كان قصير النظر عند إختيار الحرم الإلهي الآمن ليستغله في هكذا أمر واقع، ووقف أمام الله بلا خجل. وكم هي المسافة شاسعة بين فعلته وتصرفه، فقد جعل حساب الله وراء ظهره وترك أمامه الحقيقة واختص لنفسه بأموال المسلمين. ما أعظم العبرة عندما نرى هكذا أعمال تصدر من أعلام الدين ورؤساء القوم وخلّص الصحابة.

حقًا أن ابن عباس قد ترك جبهة الإسلام في أحرج لحظة في تاريخ الإسلام وأعفى نفسه من حمل ثقل المسؤولية، بالإضافة لهذا أقدم على خيانة كبرى بحق الإسلام، في حين أنه هو نفسه كان عالمًا مرموقًا ومجتهدًا. يعتقد أنه كان يعلم بأنه وإن كانت جبهة امير المؤمنين على الحق وأنه قد ساهم فيها بشكل فعال إلى جانب الإمام وأنه كان بمثابة الذراع القوية لحكومة ابن عمّه، لكن هكذا أرادت حوادث الدهر، أن يهزم في الوقت الذي كان يطمع في مال الدنيا والجواري والغلمان والذهب والفضة، وهو بحانب الحق لم يكن يريد أن يشارك الإمام عليه السلام همّه إلى آخر لحظة. وفي الحقيقة انه تعذر بتقديم حساب بيت المال والذي كان أمرًا طبيعيًا حتى ينفصل عن الذي يعلم به أكثر

من أي شخص آخر انه على حق. كما انه لم يطلب من عدوه معاوية عونًا، لهذا أقدم على سرقة بيت المال والفرار إلى مكة حتى يبتعد عن الفريقين. كذلك كان يعلم أن معاوية ليس بالرجل المؤمن بل رجل المراهنات السياسية وهو لن يطلب منه أموال البصرة.

لما علم الإمام يخروج ابن عباس من البصرة وسرقته أموال بيت المال بعث إليه برسالة ملؤها الألم والحزن الذي يملأ قلب حاكم مظلوم ووحيد، فكل كلمة من كلمات الرسالة تحكي عن وضع وظروف حكومة الإمام وغربته ومظلوميته، ولكن في نفس الوقت تبين ثباته وسموه المحيّرين. الإمام الذي أصيب بسهم مسموم من أقرب المقربين إليه وأمين أسراره وابن عمّه وفي أحلك الظروف وأقسى حوادث الدهر. الإمام الذي بقي وحيدًا في الكوفة وليس له قوة للوصول إلى أموال البصريين المسروقة. الإمام الذي يتأوه من خلّص أصحابه ويقول: «أما بعد، فإني كنت قد أشركتك في أمانتي، ولم يكن من أهل بيت رجل أوثق عندي منك بمواساتي وموازرتي وآداء الأمانة، فلّما رأيت الزمان قد كلب على ابن عمك، والعدو قد حرد، وأمانة الناس قد خربت، وهذه الامة قد فتنت، قلبت لابن عمك ظهر المجن، ففارقته مع القوم المفارقين وخذلته أسوأ خذلان، وخنته مع من خان، فلا ابن عمك آسيت ولا الأمانة إليه أدّيت، كأنك لم تكن على بينة من ربك وإنما كدت أمة محمد عن دنياهم وغدرتهم فيئهم، فلما أمكنتك الفرصة في خيانة الامة، أسرعت الغدر وعاجلت الوثبة، فاختطفت ما قدرت من أموالهم، وانقلبت بها إلى الحجاز، كأنك كما حزت على أهلك ميراثك من أبيك وأمك فسبحان الله أما تؤمن بالمعاد؟ أما تخاف الحساب، أما تعلم أنك تأكل حرامًا، وتشرب حرامًا، وتشتري الإماء وتنكحهم بأموال اليتامى والأرامل والمجاهدين في سبيل الله التي

أفاء الله عليهم. فاتقي الله وأدّ إلى القوم أموالهم، فإنك والله لأن لم تفعل وأمكنني الله منك لأعذرن إلى الله فيك فوالله لو أن الحسن والحسين فعلا مثل الذي فعلت، ما كانت لهما عندي هوادة ولما تركتهما حتى آخذ الحق منهما، وإني أقسم بالله ربي وربك رب العزة ما أحب أن ما أخذت من اموالهم لي حلالًا أدعه ميراثاً لعقبي، فما بال إغتباطك به تأكله به حرام. ضح رويدًا فكأنك قد بلغت المدية (ودفنت تحت الثرى) وعرضت عليك أعمالك بالمحل الذي ينادي فيه المغتّر بالحسرة، ويتمنى المضيع التوبة، والظالم الرجعة، ولات حين مناص»[١].

وبعد أن قرأ ابن عباس رسالة الإمام عليه السلام كان عندها مقيمًا في مكة، وقد شرع في إسرافه من اموال بيت المال، وهو في أوائل أيامه في مكة وقد اشترى ثلاثة جواري حسان وكان يمضي معهن أحلى أوقاته، فكتب إلى الإمام يقول: «أما بعد، فقد بلغني كتابك تعظم عليّ إصابة المال الذي أصبت من بيت مال البصرة ولعمري أن حقي في بيت المال أكثر مما أخذت والسلام».

إن ابن عباس في رسالته هذه كسابقاتها، لم يثبت حقًا أو يدرء جرمًا، بل أنه نثر التراب على جرمه وأدر ظهره لماضيه، كأنه ذكريات الجمل وصفين والنهروان قد انمحت من مخيلته. ننهي هذه المجادلة بين الحق والباطل بآخر خطاب للإمام في جواب رسالة ابن عباس: «أمّا بعد، فإن من العجب أن تزين لك نفسك أن لك في بيت مال المسلمين من الحق أكثر مما لرجل واحد من المسلمين، فقد أفلحت

(١) نهج السعادة، الجزء ٥، الصفحة ٣٠٤ – ٣٠٩.

أن كان تمنيك الباطل وادعائك مالًا يكون ينجيك من المأثم ويحّل لك المحرّم، إنك لأنت المهتدي السعيد إذًا. وقد بلغني أنك إتخذت مكة وطنًا، وضربت بها عطنًا تشتري بها مولدة مكة والمدينة والطائف، تختارهن على عينك وتعطي فيهّن مال غيرك، فارجع هداك الله إلى رشدك وتب إلى الله ربك وأخرج إلى المسلمين من أموالهم، فعمّا قليل تفارق من آلفت، وتترك ما جمعت وتغيب في صدع من الأرض غير موسد ولا ممهّد، قد فارقت الأحباب وسكنت التراب، وواجهت الحساب، غنيًا عمّا خلّفت، فقيرًا الى ما قدمت والسلام»[١].

مصقلة بن هبيرة

هذه المرة نتكلم عن واحد من القادة مع الامام علي، شخص من المفروض أن يكون منقاداً لأوامر ونواهي خليفة رسول الله باعتباره أمين وعين الحكومة في البلاد الإسلامية. ان القادة والعمال هم من الخواص وهم من أمناء الخليفة بين الناس. وبواسطة هؤلاء يتعرّف الناس على الحاكم، وهم حلقة الاتصال بين الإثنين، فإذا أردنا تقسيم هذه المجموعة من الخواص فسيكون الولاة والمحافظين في طبقة الممتازين منهم.

إسم ذلك الوالي هو (مصقلة بن هبيرة)، وهو من قبيلة شيبان والمنطقة التي أرسل إليها لاداء مهمته هي مدينة تقع في محافظة فارس في إيران وتسمى (اردشير خره)، وهي من المدن التابعة لولاية البصرة، كانت محافظات خوزستان وفارس وكرمان في إيران تحت إمرة

(١) المصدر السابق، الصفحة ٣١٠.

حاكم البصرة في ذلك الزمان، وقد أعطيت حكومة البصرة من قبل أمير المؤمنين إلى ابن عمه عبد الله ابن عباس، وفي السطور الآتية سنلقي نظرة على بعض الأحداث أيام حكم مصقلة، حتى نأخذ درس عبرة من حياة هؤلاء الخواص ايضاً، لأن أخذ التجربة والعبرة هي أحسن الدروس التي يمكن اخذها من التاريخ، وذلك على طريق التقدم والتكامل حتى لا يكرّر ابناء المستقبل أخطاء الماضي وهزائمه مرة اخرى وذلك بفضل مطالعة انتصارات وهزائم من سبقونا.

أيام خلافة الإمام علي قام جماعة من جند الري بالتآمر على الإمام والمجتمع الإسلامي، وذلك بعد الرجوع من معركة صفين، ومن اجل اهداف مختلفة كما فعل جند العراق متعذرين بقضية التحكيم مع معاوية. وقد تصرف معهم الإمام بما عهد عنه من عظمة النفس باللطف والمداراة، وما أكثر أولئك الذين قاطعوا خطبته بكلماتهم المفرّقة لوحدة الكلمة وعرّضوا وحدة الامة للخطر. وكم من لعبة سياسية خطيرة وكم من تحزبات قد أحدثوها في المجتمع الكوفي وكم من كلمات جارحة قد تفوهوا بها على أمير المؤمنين، لكنه كان يناقشهم بصبر وأناة، كان يحاججهم بنفسه تارةً أو يبعث إليهم من الصحابة المعروفين من يأخذهم بالحجة والبرهان. ومن بين هؤلاء أحد الخوارج واسمه (خريّت) حيث كانت قبيلة (بني ناجية) تواليه، إذ دخل في أحد الأيام على علي وقال: «والله، لن اطعك ولن أصلي خلفك»، فقال أمير المؤمنين: «ثكلتك أمك، إنك ستعصي الله وتنكث عهدك وستغوي نفسك، ولما تفعل ذلك؟»، قال خريّت: «لأنك قبلت التحكيم بكتاب الله؟»، فطلب منه الإمام أن يتناقشا حول هذا الموضوع سوية ليتوضح الأمر، فقال له: «سآتيك في الغد لنتباحث في الأمر»، فقبل الإمام بذلك وتركه وشأنه.

خرج خريّت ليلًا من الكوفة مع عدد من أصحابه وهو يدقون طبول الحرب فصادفهم في طريقهم رجلان أحدهما يهودي والآخر مسلم، فاستنطقوهم فقتلوا المسلم الذي كان يحب عليًا وأطلقوا اليهودي، فجاء اليهودي إلى أحد عمال الإمام وقصّ عليه الحكاية، وبالتالي اطلع الإمام بما جرى فأرسل جيشًا في طلبهم حتى يمتثلوا للأمر أو أن يسلّموا القاتل. فلم يقبل خريّت بتلك الشروط وبعد يوم من القتال فرّ إلى البصرة، فجهّز الإمام الجيش وطلب من حاكم البصرة أيضًا أن يمد الجيش بمدد من عنده وهكذا حصل، وللمرة الثانية عثر جيش الإسلام على خريّت، وبعد حرب ضروس فرّ زعيم المتمردين مستغلًا ظلام الليل. في هذه الأثناء تجرد خريّت من أي عقيدة دينية وذهب إلى ساحل البحر وشكل مع الكفار والرهبان عصبة أخذت على عاتقها إرتداد جماعة عن الإسلام ومن ثم شكل جيشًا، فأعقبه جيش الإمام حتى ظفروا به في أحد الأيام وقتلوه.

إسمه الكامل خرّيت بن راشد آل نجي، وقد أثر جيش الإسلام نفرًا من المرتدين الذين لم يتوبوا ويرجعوا عن ارتدادهم وأرسلوه إلى الكوفة، ذكر عدد الأسرى حوالي ٥٠٠ نفر في طريق عودة الجيش مرّ على المنطقة الواقعة تحت سيطرة مصقلة، فاستغاث بعض الأسرى به وقد كانوا من قومه ليخلصهم من الأسر، فاتفق مصقلة مع قائد الجيش على أن يشتري الأسرى ويحررهم، لم يكن يملك المال اللازم لذلك، فقرر أن يرسل المال إلى الكوفة قريبًا فوافق القائد وأطلق سراح ٥٠٠ أسير. علم الإمام عليه السلام بذلك الأمر فأثنى على مصقلة واعتبر عمله من شيم الرجال الأحرار، لكن للأسف لم يستمر مصقلة طويلًا في طريق الأحرار، بل إنه كان يقصد خداع الإمام حيث كان التعصب القبلي والجاهلي قد بعث من جديد في داخله، فهو قد أقدم على

خداع الإمام عندما قابل صيحات الإستغاثة للمتمردين من قبيلة (بكر بن وائل) أخوته من أبيه، الذين لم يرجعوا عن ارتدادهم، وأذاق الإمام المظلوم والمحاط بخدع وحيل الكوفيين كأسًا من السم، فزلزل أركان الحكومة الإسلامية وقذف الرعب في قلوب الناس، وانتشر صوت انعدام الأمن في الأقاليم الواقعة تحت سيطرة الإمام وتردد صداه في اسماع أعدائه.

كان مصقلة من أولئك القادة الذين لا يزال التعصب القبلي والقومي يغلي في عروقهم إلى الحد الذي كان أفراد قبيلته أعلى مرتبة من سائر الأفراد أيام حكم الإمام، وهو قد تسلّم رسالة عتاب من الإمام فيما مضى وهي: «بلغني عنك أمرٌ إن كنت فعلته فقد أسخطت إلهك وعصيت إمامك، إنك تقسم فيء المسلمين الذي حازته رماحهم وخيولهم، وأريقت عليه دماؤهم، فيمن اعتامك من اعراب قومك، ألا وإن حق قبلك وقبلنا من المسلمين في قسمة هذا الفيء سواء، يردون عندي عليه، ويصدرون عنه»[١].

إن عدم الإستجابة للخواص ومطالب الأقرباء حين تقتضي مطالبهم الدخول في دائرة الباطل، تكون ممكنة فقط في ظل الإيمان الكامل والتحرر والإحساس بالمسؤولية، هذا الأمر قد جعل الكثير من الخواص من أهل الحق يقعون في مستنقع الانحراف والخداع، ومصقلة هو أحد هؤلاء، فهو أمام إستغاثة أفراد قبيلته وضع الحق الواضح والبين جانبًا وتمسك بالتعصب القبلي. طلب الإمام بعد مدة من مصقلة أن يسدد ديونه فكان في كل مرة يستمهله، وبعد ذلك وكّل أمره لوالي البصرة

(١) نهج البلاغة، الرسالة ٤٣، (صبحي صالح).

عبد الله ابن عباس ليطالبه بالديون المؤجلة، فطلب عبد الله منه أن يفي بوعده ويسدد ديونه، فقال له مصقلة: «لو كنت قد طلبت هذا المال من ابن عفّان (عثمان) ما حجبه عني قط». وبهذه المناسبة نقول: «ما هذا المنطق الذي يعمل به أهل الضلال الذين يستشهدون بأعمال الباطل التي يرتكبها الآخرون للتغطية على أخطائهم؟ وبهذه الطريقة يبرؤون أنفسهم منها، فإذا تجاوزنا ما تحجج به مصقلة من عمل هذا الصحابي، ونضع مسؤولية حقيقة الأمر على عاتقه، ونتسائل هل أن الخليفة الثالث كان سيتغاضى عن عمل أمثال مصقلة أم أن تغاضيه هو عن أعمال بني أمية فقط؟

المهم في الأمر، هي الطريقة النفسية التي يتعامل بها بعض اصحاب الحق حيث أنهم لم ينكروا لحد الآن بشكل تام الحق والهدف، لكنهم لا يملكون القدرة على التحرك طبقًا للطريقة المطلوبة، فلكي يغطي هؤلاء على أخطائهم يتحجّجون لشيوع هذه الأخطاء بين أفراد المجتمع وكذلك الوجهاء من الناس، لقد أثبت هذا الأسلوب في علم الإجتماع الجنائي من قبل العلماء. مما لا يخفى على مصقلة وأمثاله، أن كل واحد مسؤول عن أعماله، فهو مقابل إطلاق سراح ٥٠٠ أسير استدان من بيت المال مبلغًا معينًا، وكان مضطرًا لتسديده، كان يستطيع مصقلة الطلب من الإمام أن يستمهله او يقسط عليه المبلغ أو أن يطلب إعفائه من تسديد جزء من المبلغ، كما أنه كان يستطيع أن يأخذ مالاً من المرتدين من أفراد قبيلته الذين اشتراهم ويسدد به دينه. كان يستطيع هذا القائد أن يأتي إلى الكوفة وأن يطلب من الإمام مهلة أطول للدفع، لمّا عرف من العفو اللطف لدى الإمام، وبالنتيجة يسلم نفسه للحكومة الإسلامية للتصرف معه، لكن مصقلة لم يفعل أيًّا من تلك الأمور التي كان يمكن أن تفتح كل واحدة منها طريقًا للهداية،

بل أنه اختار طريق الضلال، وخرج من البصرة على أثر حيلة ليلتحق بالعدو. بمعاوية ابن أبي سفيان رأس الأحزاب والمشركين وابن هند آكلة الأكباد، ذلك الأعور البطين الذي كان لسنين عديدة ذليل طريق الحق والهداية، كان يعرف جيدًا الفرق الشاسع بين إمام الكوفة عليه السلام وسلطان دمشق. وأدار ظهره للحق عن دراية ودخل على الباطل، لقد ذهب هو وذاع خبره في العراقين ومكة والمدينة وكل البلاد الإسلامية، أنه قد التحق بمعاوية أحد قادة الإمام، فزرع همًّا في قلب الإمام والمؤمنين، ورسم البسمة على شفاه المنافقين والكافرين والمشركين، قال الإمام في هذا الفرار: «ما له ترحه الله، فعل فِعل السيد وفرّ فرار العبد، أما أنه لو أقام فعجز ما زدنا على حبسه فإن وجدنا له شيئًا أخذناه، وإن لم نجد له مالًا تركناه»[١].

لما وصل مصقلة إلى الشام استقبل بحرارة من قبل معاوية، وأرضاه من جميع الجهات، ولما مضت مدة على إقامته في الشام، كتب رسالة إلى أخيه نُعيم في الكوفة لعله يستطيع إغوائه ويأتي به إلى الشام، لكن هذا المؤمن الحر قد ردّ عليه بعنف ردًّا مليئًا بالعبرة لأهل الحق، بعث نُعيم بهذه الأبيات الشعرية إلى أخيه الضال:

لا تأمنن هداك الله من ثقة
ريب الزمان ولا تبعث كجلوانا
ماذا أردت إلى إرساله سفهًا
ترجو سقاط امرئ ما كان خوانا

(١) نهج السعادة، الجزء ٥، الصفحة ١٧٣.

عـــرّضـــتـــه لـــعـــلـــي أنـــــه أســـد
يـمـشـي الـعـرضـنـة مـن آســـاد خـفـانـا
قـد لـنـت فـي مـنـظـر عـن ذا ومـسـتـمـع
تـــأوي الـــعـــراق وتـــدعـــي خـيـر سـيـبـانـا
لـو كـنـت أديـــت مـــال الـقـوم مـصـطـبـرًا
لـحـق أجـبـيـت بـالأفـضـال مـوتـانـا
لـكـن لـحـقـت بـأهـل الـشـام مـلـتـمـسًـا
فـضـل ابـن هـنـد وذاك الـــرأي أشـجـانـا
فـــالآن تـكـثـر قـــرع الـســن مـــن نـدم
ومـــا تـــقـــول قـــد كـــان الـــذي كـان
وظـــلّـــت تـبـغـضـك الأحـــيـــاء قـاطـبـة
لـم يـرفـع الـلـه بـالـبـغـضـاء إنـسـانـا

إن حكاية مصقلة وفراره من الحق من أجل مال الدنيا هي مسألة ممكن أن تتكرر لكل أتباع الحق والطريق القويم، إن طريق التصدي لهذا الأمر وأخذ العبرة من هذه الأحداث والوقائع إلى جانب التوجه الدائم لله سبحانه وتعالى والمحاربة المستمرة مع النفس الأمّارة بالسوء، وعدم الالتفات للآمال والمطامع الدنية التي تبعد عن الله. إن ملاحظة جواب اخيه نُعيم – الذي يأتي من منطلق الإيمان الخالص – هو مليء بالعبر. بالإضافة إلى أننا في هذا الكتاب قد أوردنا مقتطفات من كتاب علي وبنوه (طه حسين) نورد هنا أيضًا تحليله عن تصرف مصقلة ومعاوية حيث نجعله مسك الختام والذي قال:

«لم يكن مصقلة لوحده، بل أن عامة أهل البصرة والكوفة بل كبار القوم وأشرافهم كانوا مثل مصقلة، لقد اشترى الأسرى وأعطقهم ليس من اجل الثواب الإلهي أو ينوي فعل الخير، بل لكي يرضي تعصبه القبلي وإن خداع الحكومة هي وسيلة لإرضاء تلك التعصبات. لما علم أمير المؤمنين بخدعته وطلب منه الحق، لم يصبر ولم يسترد ما في ذمته، بل إنه هرب إلى عند من كانوا يحاربون الخليفة فترك الصديق وتمسك بالعدو. ما أبداه معاوية من ترحيب به، لم يكن من جهة عدم تسديده المبلغ وفراره إلى الشام، فهذه كانت خدعة وتكريم لم يكن من اللائق أبدًا أن يكرم بمثله مسلم حقيقي. كان عمل معاوية حسنًا لو كان قد أكرم رجلًا روميًا لجأ إليه بدل مصقلة ليستعين به على قيصر ويكون عونًا له في حربه ضد الكفار، أما أن يأوي شخص كاد لإمامه بلا سبب نكث عهده وهرب إلى غيره ليفسد على العراق أمره، هو نفسه يعلم أي سياسة قام معاوية باتباعها من أجل إدامة ملكه الجديد، هذه السياسة التي عمودها الفقري عبادة الدنيا والأهواء والأرباح والأماني والشهوات. هنا يتوضح جيدًا الفرق بين المذاهب السياسية لعليّ الذي أراد كل شي من اجل الدين، والمذهب السياسي لمعاوية الذي سخّر نفسه كليًا للدنيا»[١].

(١) عليّ وبنوه، طه حسين.

(PBUH) became known, and became the lantern of guidance to all humanity. Among the elite were the infallible Imams (PBUT) and their noble companions like Abu Dhar al-Ghaffari, Ammar bin Yaser, Salman al-Farisi, Malek al-Ashtar, may Allah bless them all. To the side of this elite, there are members of an elite group whose hearts were blinded by the love of this world's life, who insulted the sanctities of Islam and Muslims, and were the reason behind the backwardness and weakness of the nation.

stances means missing out on an opportunity and therefore creating a loss than cannot be compensated."[1]

By studying history, something very important is revealed to us, which is knowing the credibility of the elite in the delicate moment leading to the deviation of history's path or stance. It reveals that the study of historical events and deriving lessons and experience from them is a great way for the aware people to know their roles and duties in the future, learn from the example of those experiences and prevent them from repetition. The elite shall not be busy with life attractions in sensitive and fateful moments.

In this regard, Sayyed Khamenei indicates:

"Our research on the topic of the elite shall be on two aspects, the first is the historical side that includes: Who are those elite? And what are their names? The second: What shall the elite do in any stage in history? In brief: The elite are those who, in fateful moments, are not subject to the restrictions of the world's life attractions."[2]

The following book looks into the first part of Sayyed Ali Khamanei's speech, about knowing the elite who traced the path of history with their political stances.

In the heart of events that occurred during early Islam, the elite of men who were loyal to the Prophet Mohammad

(1) Previous source

(2) Previous source

of this elite group in the society, those who prefer their life to the fate of the Islamic world for centuries to come. This is while Imam Hussein gained a state of respect even from Abdullah bin Abbass, Abdullah bin Jaafar, and even Abdullah bin Zubair, who was not at ease with Imam Hussein, yet reverenced and honored him.

Among all the high ranked people and the elite who support the right, who did not support the Umayyad government and did not join the falsehood front, many Shiites acknowledged the Imamate of Imam Ali (PBUH) and his place as the first legitimate caliph. When all of these felt the oppression of the ruling power, they became weak out of desire to maintain themselves, their money and positions. As a result of the weakness of these people, the public leaned towards [following] the group supporting falsehood."(1)

Therefore, it could be said that the victory of the nation and its defeat is related to this group of elites, and thus it is necessary to us to know the role that these are playing in the progress and downfall of the Islamic society.

On this level, Sayyed Khamenei reiterated:

"Everything is related to the elite, their decisions and stances on the right time, their initiatives, their reluctance… etc. These are the ones who save history and defend the humane values, and thus slacking off taking necessary

(1) Previous source

aforementioned were the minority and that group was an elite group supporting the right, but is fragile before the attractions of life that include wealth, fame, and rank, and who deviate from the sake of Allah for their own selves, they commit to silence when the right is ought to be spoken.

If these were the majority, then what a calamity. When those walking the path of Imam Hussein are taken to martyrdom and slaughter, while the supporters of Yazid take over power, and sons of Umayyad rule the state established by Prophet Mohammad (PBUH) – Their rule will live a thousand months and the Imamate will become a kingship and sultanate."(1)

Based on the aforementioned, it is clear that the position of the elite in society is very delicate and important since they are the model for the society, and their movement towards the goals pushes others to achieve them as well. Contrary to that, their cessation and weakness leads to the silence of the audience, and the silence of the elite in supporting Imam Hussein (PBUH) stand as witness to what we are saying.

Sayyed Ali Khamenei spoke about this topic and said:

"When Imam Hussein revolted, not much of the elite supported him, despite the sublime rank he had in the Islamic society. Notice the harm caused by the existence

(1) Previous source

matters (pleasure, reputation, wealth, etc…) are pleasant things, as they are all the joys of life ﴿the provisions of this World's life﴾. When the holy Quran describes them as ﴿the provisions of this world's life﴾, it does not mean that they are ugly; yet Allah provided provisions for the humans to enjoy. However, it is one case if the person became too involved with them to the extent that he cannot avoid them if tough commands required him to do so, and it is another case if one enjoyed them with the ability to avoid them easily when the person is tested."(1)

If the elite of the right path constitute the majority of the Islamic society, and were from those who are not driven by the attractions of life and the fading pleasures, the future will inevitably supporting to this society. However, if the opposite happened, where the elite of the right path are the minority of the society, and were among those who fail a test in the first round, the balance with flip, and those will be the prey of oppression – this is what truly happened when Yazid bi Muawiya was the caliph.

Sayyed Ali Khamenei says on this level, "Each society has these two types of supporters to the right, if the majority was to the good group, i.e. including those who can get rid of life's pleasures, then the society will not fall into what happened in the era of Imam Hussein (PBUH). Rest assured that the future would be guaranteed to eternity. Yet if the

(1) Previous source

With reference to early Islam, we find that there are elite people who were companions of Imam Ali, Imam Hussein (PBUT), and the sons of Hachem. The other party were the companions of Muawiya bin Abi Sufyan, and among them was an elite group with opinion and providence to support them. According to the aforementioned, the elite of each society comes in two types: the elite who support the right, and the elite who support falsehood. What do you expect from the elite who support falsehood? Do not expect anything from them except conspiracy against the right and against you. This requires you to fight them. Fight the elite who support falsehood; this is an undebatable matter."[1]

Therefore, as Sayyed Khamenei indicated, the elite can be classified into two groups: the elite of the right, and the elite of falsehood. When the followers of right know their front, they ought to fight the followers of falsehood. The Supreme Leader, in this regard, states the following:

"Know my dears that the elite of the right are divided into two groups:

The first group is composed of those who conquer in struggle the attractions of life that include wealth, lust, money, pleasure, prosperity, and reputation. The second group includes those who fail in the said struggle. All these

---

(1) Speech delivered by His Eminence Ali Khamenei unit 27 complex (huseiniyah) (Mohammad the Prophet of Allah (PBUH)) on 20/3/1375 Hijri (November 5, 1955)

First, there is a category that marches based on thought, awareness and will, and knows the path it is taking. Whether this category is taking the right or wrong path is not our concern now, but this category can be dubbed “The Elite”. The other category does not examine to see what is the right path or the right position, and does not care to understand, analyze, measure and realize, but rather follows the trends and public opinions; and we shall dub this category “The public”.

Therefore, the society can be divided into “The elite and the public”. Examine the situation, because I want to refer to a point regarding these two categories, and there must not be any confusion in this regard. Who are the elite? Are they a special category? The answer is no! This category that we dub the elite includes educated people, and there might be uneducated people who understand what should be done, and work in accordance with a plan and will. Even if they never attended school, gained a certificate, or wore a scholar’s ensemble, they are rather enlightened regarding the reality of matters.

Thus, the elite are those who perform a job or adopt the stance and approach based on intellect and analysis, i.e. they understand, decide, and act. These are the elite. Those who stand aside on the other hand are the public; they are the ones who flow with the waters, without analyzing any events. When people shout in support of someone, they voice it with them, when the people shout against someone, they shout with them. They come and go however go the circumstances.

has no ability to analyze and realize matters in the fields of social events. It constantly bends with all winds, and bows to the ruling regime with a tendency to adapt with new circumstances. This groups' behavior and state of thought has no capabilities to investigate and analyze, and thus usually follows in behavior and action.

In fact, it could be said that not everyone with a certificate or an education can be capable of analysis and investigation, but rather there are many people who never attended schools but have superb abilities to analyze and investigate.

Our research in this book will be about the first group dubbed "The Elite"; those whose behavior and action are based on knowledge and analysis, those who know their path and realize the reasons behind why they took this path and decided to achieve their goals in accordance with knowledge, and those who are not drifted by propaganda. These people create historic events, and firstly perform their work based on desire and tendency. In brief, it is fair to say that the sublimity or declination of the human society are related to this category of people.

Sayyed Ali Khamenei spoke about the aforementioned categories, and quoting from what he said:

"Notice my dears, if you examines the human society, any society, in any city or country, you will find that, from a certain perspective, people are classified into two categories:

Introduction

Each stage and era of the human life has its own cultural, political, economic and social particularities. However diverse these stages are, they are similar in terms of historical norms that rule human social behavior. In this regard, Imam Ali (PBUH) stated, "You should take a lesson from the fate of the progeny of Ismael, the children of Isaac and the children of Israel. How similar are their affairs and how akin are their examples."(1)

Therefore, similarities in traits and behavior sometimes become a lesson and example for future generations. History is a detail in the life of all human societies, which has rules in all its stages that reoccur if necessary conditions applied. Therefore, reviewing history in a general view, and following the history of Islamic societies that especially have religious governments, shall be the best of teachers and guides to our Islamic society.

History is studied through researching and tackling its different sides, which include examining the life and method of those who recorded fateful stances in the history of humankind on different levels. Some generally classified the human society into two groups; the elite and the public, the follower and the leader, and each of the said groups has its own definition that distinguishes it from the other. The second group is classified as the "followers" and thus

(1) Peak of Eloquence (Nahjul Balagha), Sermon 192

The Elite
and the Fateful Moments

Imam Khamenei

الخـواص
واللحظات المصيرية

كل شيء مرتبط بالخواص، قراراتهم في الوقت المناسـب، تضحياتهـم فـي الوقـت المناسـب، إقدامهم، إحجامهم... هؤلاء هم الذين ينقذون التاريخ ويدافعون عن الإنسانية، وتهاونهم في اتخاذ المواقف اللازمة يعني ذلك فوت الفرصة وفي ذلك خسارة لا تعوض.

دار المودة
للترجمة والتحقيق والنشر